

892.709:K161nA:v.1:c.1

كنون، عبد الله
النبوغ المغربي في الادب العربي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032661

892.709:K161nA

V.1

كنون، عبد الله

النبوغ المغربي في الأدب العربي

APR 14

F2

DEC 3

G2326

892.709

K161nA

MRB V-1

~~MRB V-1~~

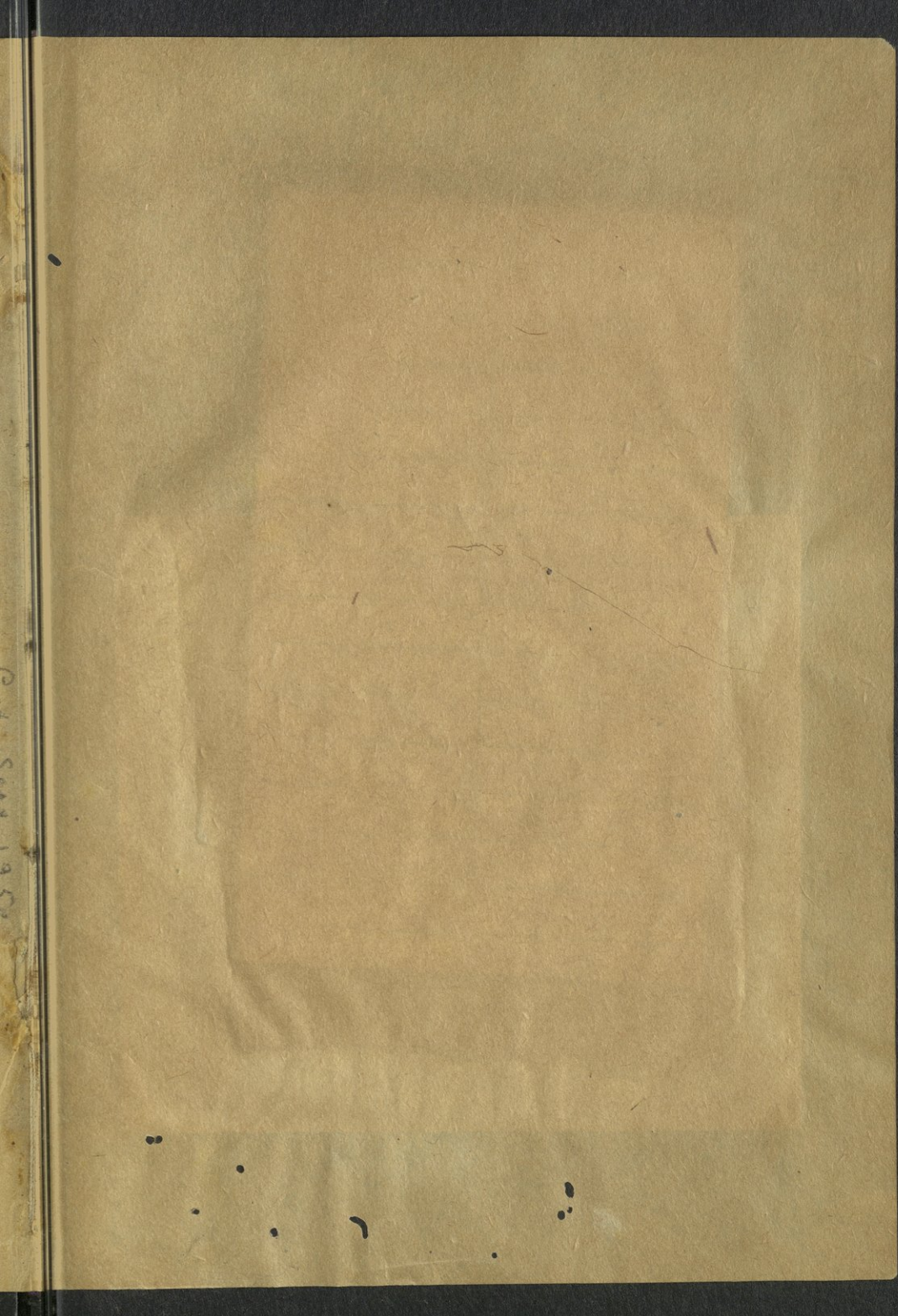
~~MRB V-1~~

~~MRB V-1~~

~~5-1597 69~~

~~MRB V-1~~

29 JUL 65



892.709

K161n A

v.1

الجزء الاول



النبوغ المغربي في الادب العربي

المؤلف

كنون

كتاب الادب العربي في القرن الرابع عشر

تأليف

عبد الله طوق الحارثي



69563

المطبعة المهدية
بتطوان

Cat. Sept. 1950

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

فاتحة الكتاب

هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم والادب والتاريخ والسياسة ورمينا بذلك الى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب وتطورها في العصور المختلفة من لدن قدوم الفاتح الاول الى قريب من وقتنا هذا؛ فالحركة العلمية وما طرأ عليها من نشاط وفتور، في جميع العصور، مبسطة فيه أحسن البسط. والسياسة واتجاهاتها التي كانت تتخذها بحسب طبيعة كل دولة مفصلة فيه تفصيلاً مستوفى. وهكذا التاريخ بقسميه السياسي والأدبي؛ ومنه التراجم. وقد احتوى جملة وافرة من تراجم الملوك والوزراء والقواد والفاتحين والعلماء والادباء والفقهاء والمتصوفة وغيرهم والأدب لا نقول إلا أنه الروح المتغلغلة فيه والحلة التي يلبسها للناس بل نقول اننا ما تعرضنا لغيره من الابحاث الاخرى الا لتربط حلقات البحث الموصل الى اكتناه حقيقة ماضينا الادبي وتجليته على منصة العروس ليشاهده من كان يجادل فيه. ومن ثم كان اسم هذا الكتاب (النبوغ المغربي في الادب العربي)

وقد كثر عتب الادباء في المغرب على اخوانهم في المشرق لتجاهلهم اياهم، وانكار كثير منهم لكثير من مزاياهم، ولاكن اغلب اللوم في

في هذا مردود على اولئك الذين ضيعوا أنفسهم وأهمنوا ماضيهم وحاضرهم حتى اوقعوا الغير في الجهل بهم والتقول عليهم، وهو معذور وحسبه انه لم يقصر تقصيرهم بل سعى فأخفق ولا عيب على من بلغ جهده. ونحن نعتقد اننا بتقديم هذا الأثر الضئيل الى الدوائر العلمية سنزيل كثيرا من التوهم والتظن في تاريخ المغرب الأدبي وسنرفع حجاب الخفاء عن جانب مهم من الحياة الفكرية لاهل هذا القطر وسوف ينقضى تجلنى اخواننا من بحاث الشرق على أمجادنا وتحاملهم على إعادنا لان ذلك لم يكن منهم عن عمد وسوء قصد وانما هو ارتياح واجتهاد



أما عن ترتيب الكتاب فاننا جعلناه على جزأين وخصصنا الجزء الاول للبحث والاستنتاج والثاني للآثار الادبية. ثم الجزء الاول خمسة عصور ^١ عصر الفتوح، ونعني بها الفتوح الاولى وفتح مولاي ادریس. وعصر ^٢ الموحدين وفيه الكلام على المرابطین. وعصر ^٣ المرينيين وفيه الكلام على الوطاسيين. وعصر ^٤ السعديين. وعصر ^٥ العلويين. والجزء الثاني قسمان: قسم المنشور وقسم المنظوم. وانما اخرجنا الآثار الادبية الى الجزء الثاني ولم نذكر ادبيات كل عصر معه رغبة في عدم توقف المطالع وتلهيه عن مواصلة البحث وتكوين فكرة عامة عن جميع العصور مع ما في ضم تلك الآثار بعضها الى بعضها من تأليف مجموعة ادبية نفيسة تكون وحدها دليلا ناطقا على ما للوطن العزيز من ماضٍ أدبي حافل. هذا على كثرة ما

اغفلناه منها (لأن قريشا قصرت بهم النفقة) ولولا ذلك لخرجت هذه المجموعة مضاعفة عما هي عليه.

وفضيلة هذا الكتاب في أنه ليس لقطر من أقطار العروبة اليوم نظيره، إذ أن جميع كتب الادب وتاريخه عامة تنتظم البلاد العربية جمعاء - ما عدا المغرب بالطبع. وعمل مثل هذا لا يخفى على العارف ما يقتضيه من جهود جبارة ومشاق عظيمة وإذا تذكر - مع ذلك - ان مصادر هذا البحث الجليل، هي أقل من القليل، ومع قلتها فان كثيرا منها محفوظ في الخزائن الخاصة التي لا طمع في الوصول اليها بمجان أو مال، فانه يكون اسبق منا الى طلب الخارج والتماس المعاذر فيما عسى أن يكون وقع لنا من التقصير والزلل والخطأ والوهم ولا سيما مع السرعة في اخراجه للناس لشدة الحاجة اليه وكثرة الطلب عليه وكان يلزم ان يبقى سنين طويلة تحت التهذيب والتنقيح.

وهناك نقطة سوف لا يماري احد من قراء هذا الكتاب في أنه امتاز بها عن كثير مما تخرجه مطابعنا في هذه الايام وهي أنه ليس فيه حرف واحد كتب انتصارا للنفس او تعريضا باحد أو تملقا لشخص أيا كان، ولست أبالي بعد هذه ما يوجد فيه من عيب أو يوصف به من نقصان.



ولا اضع القلم من يدي قبل ان اتوجه بكلمة شكر وثناء الى الاخ

العالم الاديب الواعية السيد عبد السلام ابن سوذة الذي أمدني بكثير من الفوائد والمعلومات، وسوغني من الخزانة السودية القيمة كل ما ام يكن في اختها الكنونية من الاصول والمستندات، واني احمد الله على أن لم يجعل علي لاحد - غيره - منة في هذا الامر، وأغذاني عن «مدرسة» الخزانين الذين هم مصيبة العلم في هذا القطر، حتى المكتبة العامة بالرباط على مساس الحاجة الى كثير مما فيها لم يقدر لي أن ارجع اليها في شيء للحجز بيني وبين السفر في غالب المدة التي كنت أشتغل فيها بهذا الكتاب

ولا أبخس بقية الخلاء، حظوظهم من الشكر والثناء، كالاديب السيد محمد العربي الزكاري الذي نقل الكتاب بخطه الجميل من مبيضته والاستاذ الكبير الحاج محمد بنونة الذي اعتنى بتصحيح جله، على كثرة شغله وكتب اسمه بالقلم الكوفي الجميل، والعلامة السيد محمد داود الذي صحح بعض الملازم ايضا ولم ينزل مهتما بأمره منذ الايام التي كان يصدر فيها السلام حتى لقد هم بطبعه على نفقته وتقديمه هدية لمشتركي مجلته لو لم يضطر الى توقيفها بعد. والشرفين المرحوم السيد عبد السلام القصصري والسيد محي الدين الريسوني والسيد محمد العرفاوي والسيد عبد الله بناني والسيد عبد السلام الطنجي والسيد محمد العربي ابن جاون كل واحد على ما بذل من جهد او مال في سبيل اخراج هذا الكتاب والحرص على اتمام طبعه منذ اكثر من ثلاث

سنين حين قدم الى المطبعة - فـالله تعالى يجازيهم جميعا عن العلم
والادب خيرا.

واني لأسجل لهم هذا الذكر الحسن هنا قياما بالواجب الذي
يحتمه الاخلاص والمروءة والدين فماشكر الله من لم يشكر الناس نساء له
تعالى أن ينهمنا رشدنا ويقينا شر أنفسنا وينفعنا بما علمنا ويزيدنا
علما وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

عصر الفتوح

الفتوح الإسلامية

لم يتم فتح المغرب كله إلا في زمن يزيد بن معاوية سنة 62هـ على يد (عقبة بن نافع)، ذلك الصحابي الجليل الذي ورط نفسه وأقحمها بالمخاطر في سبيل نشر الدعوة الإسلامية وبثها بهذه الاصقاع. ففي الحقيقة ان هذا هو الفتح الاول لبلاد المغرب وما كان سابقا عنه إنما هو مقدمة وتمهيد له

وأول ما فتح من البلاد طنجة ثم ويليها وهما إذذاك حاضرتا المغرب، ثم استرسلت الفتوح بعد في سائر القبائل البربرية التي كانت تنقطع الاطماع دونها لتحصنها ومناعتها وشدة بأسها والتي طالما حاولت ايقاف جيش الفتح الاسلامي عند حده، فقاتلها عقبة قتالا ذريعا واستنزلها على حكمه. ثم تقدم الى السوس ففتح تارودانت عاصمته ومضى لا يلوي على شيء حتى وقف بساحل المحيط الاطلانطيقي حيث رفع يده الى السماء وقال: «اللهم اشهد اني بذلت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد اقاتل من كهر بك حتى لا يعبد أحد من دونك». فانتشر الاسلام بالمغرب من اقصاه الى اقصاه وبدأ يصارع الوثنية المستحكمة فيه، ولولا قتل عقبة بنهودة من مدن الزاب لما بقي لها معه ظهور البتة في المدة القريبة. وليكن وقوم ذلك الحادث المؤلم في مثل تلك الظروف الحرجة جاء

ضربة لازب على عدم نجاح الآمال المتعلقة باستقرار الحالة بعد الفتح واستتاب الأمن والراحة المتيسر في ظلهما كل عسير الممكن معهما تذليل جميع الصعوبات القائمة بأعمال الفاتح الكبير

اضطرب الجبل بعد موت عقبة بن نافع وانتقضت الامور بافريقيا الشمالية وامت الفوضى وغلبت الفتن وجرت بعد ذلك حوادث كثيرة لا شأن لنا بها فكان من النتائج المتحتمة الوقوع ان توقفت دواليب الحركة الاسلامية وضعفت العوامل والاسباب الباعثة والمشوقة الى الدخول في الاسلام حتى ارتد عنه من ارتد ممن كان اسلام حديثا ولم تخالط بشاشته قلبه. وفي زمن الوليد بن عبد الملك سنة 87 هـ قدم موسى بن نصير واليا على افريقيا فقبض على زمام السلطة بيد من حديد وضبط الشؤون واستلحح الاحوال فاصبحت البلاد تفرح في بحبوحة العدل والنظام وتتمتع بسكينة وطمأنينة لالعهد لهما بهما من قبل. فكان هذا هو الفتح الثاني الحقيقي، وقد قاتل المرتدين عن الاسلام وبذل قصره في حملهم على الرجوع اليه والتمسك بجبله المتين، وكان يشتري العبد يظن انه يقبل الاسلام من بعد أن يجرب فظنته ويمحص عقله فيعرضه عليه ثم يمضي عتقه ويتولاه

وهكذا شيد صرح الاسلام في افريقيا (1) والمغرب وأقام دعائمه على السياسة الحكيمة والسير العادلة فلم يبق يخشى عليه الانتقاض بعد هذه الجهود العظيمة والمتاعب الجسيمة

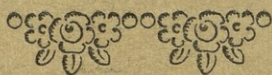
وفعلا فقد استمرت الحال على ذلك سنين عديدة انصرف العزم فيها

(1) يطلق مؤرخونا افريقيا على المغرب الادنى والاوسط ونحن ننبههم في ذلك احيانا

الى تعمير الخراب وتجديد المندثر وفي أثنائها فتحت الانداس بجيوش
البربر المسلمين الصادقي الايمان. وكان يظن انه لما ير جسع السيف إلى
غمده ينصرف الغزم الى ترقية مستوي البلاد العلمي والادبي بعد رقيها
عمرانا واقتصادا وسياسة، ولكن خطرا جديداً أصبح يهدد هذا القطر
التعس المنكوب فلم يتح له أن يجارى الاقطار الاسلامية الاخرى في
النهضة والتجدد والاخذ بأسباب الحضارة والتمدين بعد ان ظن أنه
اجتاز دور الانشاء والتكوين، ذلك هو خطر الخوارج النازحين اليه من
الشرق المضطهدين من حكوماته حيث انهم لم يجدوا مجالا فسيحا لترويج
بدعهم وبث دعايتهم في امن وامان مثل المغرب. وقد قاسى منهم الامرين
وذاق بسببهم من المحن والاهوال صنوفا والوانا، حيث لعبوا دورا خطيرا
في حوادثه السياسية واثاروا فتنا وحروبا كان كل من العرب والبربر
في غنى عنها. غير ان لم تدم هذه الحال فقد شاء الله أن تنجلي وينجلي
معها كل ضير وضرر على مستقبل البلاد

فبينما الايمان متذبذب والشعور الديني آخذ بالضعف لبعده العهد
بالهداة المرشدين الساري اليهم نور النبوة امثال عقبة، وموسى، وفيما
الاقوال والخلافات المذهبية رائجة ونزعات الملحدين ووساوس اهل
الضلالات متسربة الى نفوس هذا الشعب البربري الضعيف الذي لا
زال لم يستقم مزاجه ولم يتمخض فكره بالعقيدة الاسلامية الحق. اذ
اتى ادريس بن عبد الله فاراً بنفسه من الرشيد الذي اضطهد شيعته الخارجين

عليه وشنتهم شذر مذر فكان دخول هذا الفرع التركي الى المغرب فاتحة
عصر جديد طالما تأقت له النفوس واشترأت اليه الاعناق
فما وطيء ثرى البلاد المغربية حتى وفدت عليه القبائل معلنة بمبايعته
داخلة في طاعته. فبدأ أعماله بتأسيس الدولة الادريسية سنة 172 هـ
بمعونة عبد الحميد الاوربي والي مدينة ويلي وسعي مولاه راشد، وهي
اول دوله عربية مستقلة في المغرب، وبعد أن توطد له الملك جهز
الجيوش واستنفر المقاتلة وخرج غازيا يضرب في بلاد المغرب طولاً وعرضاً
حتى دوخه جميعه وقضى على حركات الخوارج وسكن فتنهم المندامة
اللهيب فلم تقم لهم بعدها قائمة. ثم تقدم الى تلمسان ففتحها سنة 173 هـ
ودخلها فنظر في احوالها وبنى بها مسجداً ثم عاد الى ويلي وقد استقام
له أمر المغرب وتم له اقتطاعه من جسم الخلافة العباسية وازالت كل سلطة
دينية او سياسية كانت لها عليه، وكان هذا هو ثالث الفتوح
الاسلامية المهمة.



كيف انتشر الاسلام بالمغرب

هكذا كان تطور الحركة الاسلامية وسيرها بالمغرب مدة قرن كامل وهكذا كان حرص ولاية العرب شديدا على إشادة معالم الاسلام بهذا القطر وتثبيت اركانه وإقامة دعائمه حتى ارتكز فيه ارتكازا قويا وتمكن من نفوس سكانه أيما تمكن فأصبح وكأنما آوى الى وطن وسكن هما اعرف به منه بهما. فكيف تم ذلك؟ وما هي العوامل والاسباب التي سنت الوصول الى هذه الغاية؟

ذلك ان البربر الذين كانوا قد اعتادوا حياة والفوضى القوا التمرد والعصيان بعد ان تمكن منهم العرب وكسروا شوكتهم، اصبحوا مقتنعين بعدم إجداء المقاومة عنهم وذهب كل مجهوداتهم في الدفاع سدى لما رأوه من شدة مراس العرب للحروب وطول مغالبتهم لاعدائهم فلم يسعهم والحالة هذه الا الاذعان لسطوتهم وتسليم مقاليد الامور اليهم، فساسوهم بالحكمة والانصاف واخذوهم وبالعدل المساواة حتى أووا الى ظل الطاعة واخذوا الى السكنينة والهدوء. هنالك تذوقوا طعم السلام لأول مرة وانصرفوا الى ادارة شؤونهم وتدبير مصالحهم وبدءوا يشمرون بهنداة الحياة ويجدون لذاذتها

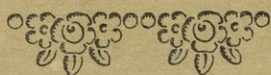
ثم نظروا فيما خلف بأيديهم من عادات الوثنية وبقايا الديانات الاخرى المحرفة فلم يجدوا في ذلك شفاء غلتهم ونقع أوامهم فأخذوا ويتطاولون باعناقهم الى الدين الجديد الذي جاء به انفتاحون والاقوياء ورأوه موفيا

بأغراض الحياة ومآربها ضامنا لمصالح البشر في المعاش والمعاد فكان مذهبه
اليه خير داعية ومرشد أنار امامهم السبل وابان لهم معالم الرشد وسرعان
ما استمالهم الى جانبه وأدخلهم في حظيرته وكنان أكثر ظاهراته
تأثيرا عليهم ثلاثا

(أ) يسر شريعته وسماحتها غير المحمودة فكل تعاليمها هين سهل
يمكن الاحاطة به والقيام عليه في غير تعب ولا عناء. والاسلام كما لا
يخفى دين الفطرة الخالي من التكاليف الشاقة التي تجعله عبئا ثقيلا على
كواهل معتنقة اذ ليس فيه الا ما ينطبق على الذوق والعقل والمصلحة العامة.
(ب) حسن معاملته لكل من يدين به ويحتسب بحماه فما هو الا ان
يتعلق بسبب من اسبابه حتى يصبح عضوا عاملا في جمعيته الكبيرة
لا يميزه عن بقية اعضائها مميز ولا يفصل بينه وبينهم فاصل. واعتبر
انت بابن السكاهنة البربرية المشهورة في التاريخ بطول مقاومتها للاسلام
ومحاربتها الآتين به حتى ماتت، فانهما وليا بعد اسلامهما قيادة جيش
كبير من المسلمين يحتوي على اثنى عشر الف مقاتل،

(ج) رفق الولاة المسلمين وعدلهم وتشربهم بروح الديموقراطية
الحق التي جاء بها الاسلام ودعا اليها مع ما كانوا عليه من الاخلاق
الفاصلة والسجايا الكاملة وما خصوا به من لطف التكرين وحسن التكيف
حتى لقد اكبر هؤلاء البربر ديننا انجب مثل اولائك الرجال الافذاذ
وكون مثل تلك الشخصيات الكبيرة التي يندر وجودها في التاريخ.

على ان البربر لم يعادوا الاسلام في اول الامر ولم يقاوموه تلك
 المقاومة العنيفة الالجهلهم بحقيقته وعدم احاطة علمهم بمحاسنه ومنزايه
 وقد فطن لذلك الولاة العرب بعد حين فرتبوا لهم الفقهاء والقراء
 يلقنونهم العربية ويبصرونهم بالدين. فلما اكتنھوا كنهه وعرفوا حقيقته
 واضطلعوا بآعاليمه السامية وآادابه العالیه اصبحوا من اكبر دعائه واحمى
 انصاره فجاهدوا في سبيله الجهاد الاكبر واندفعوا يهاجمون الممالك
 الآمنة والشعوب المطمئنة رغبة في ادخاله اليها وبسط ظله الوريث عليها
 فهم الذين فتحوا الاندلس وسهلوا طريقها للعرب وما زالوا بعد ذلك
 حاميتها وذادتها الى آآخر العهد بها.



استعراب البربر

نتيجة طبيعة ان يستعرب البربر بعد اسلامهم ويتعلموا لغة التنزيل الذي هو دستور الاسلام واقتنومه والمصدر الاول لجميع احكامه وتعاليمه فانما بالعربية تفهم اصوله وفروعه وتقرر وسائله ومسائله. على انه اذا كان الاسلام دين الفطرة والخلق، مستعدا بذاته للانتشار فكذلك هذه الفصحى لغة البيان والشعر تمتلك برقتها القلوب وتستلب العقول واجر بالشعب الذي دخلاه معا فرحب بهما واحسن اقتبالهما ان يشهد التطور العتيق والفتح الجديد في مزاجه وعقليته وحياته العامة.

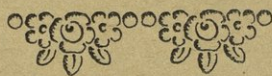
ولقد سارت العربية في المغرب اول الامر بسير الاسلام مترسمة خطاه متتبعة ءثاره حتى انها لو كانت بقيت من ذلك الوقت تنمو وتثمر لكانت الآداب العربية قد ءاتت اكملها من ذلك الوقت ايضا ولكن هناك عوائق كثيرة حالت دون سيرها المطرد وتقدمها المستمر فتاخرت بذلك النهضة الادبية في المغرب وتقدمت في الاندلس التي فتحت بعده حيث لم تجد في طريقها شيئا من تلك العراقيل.

واول ما بدأ نشاط هذه الحركة في ايام حسان بن النعمان الغساني احد ولاية افريقيا من قبل عبد الملك بن مروان فانه كان من المهديين السبيل لتقدم الثقافة العربية واستقرار الحضارة الاسلامية بالمغرب فدون الدواوين ورسم اللغة العربية اي جعلها لغة الدولة الرسمية فوجب بذالك تعلمها على البربر المسلمين وغير المسلمين. ثم بعد ذلك انزل عمر بن عبد العزيز

بافريقيا والمغرب عشرة من الفقهاء يعلمون الناس القرآن ويفقهونهم في الدين. كذلك فعل موسى بن نصير فرتب عددا من الفقهاء والقراء للغرض نفسه وهذه كلها محاولات كان لها نتيجتها الصالحة واثرها محمود في سرعة استعراب البربر وطبعهم بالطابع العربي الصميم كما شوهد أثر ذلك يوم فتح الاندلس حيث خطب طارق وهل هو احد الموالي البربر خطبته المشهورة في جيشه الذي أناف على الاثنى عشر الف جندي فيهم ثلاثمائة فقط على اكثر تقدير من العرب ففهمها الجيش كله واثرت فيه تاثيرها البالغ المشهود «في اندفاعه الى حومة الوغى وتهافته على الموت تهافت الذباب على الشراب. دع عنك اللفظ الفصيح والسبك العجيب والبلاغة النادرة، المستجمع كل ذلك في تلك الخطبة. لا تقل ان مولاه صنعها له، فقد علمنا انه ذهب الى فتح الاندلس بلا اذن من مولاه حتى انه لما سمع بانتصاره وبفتوحاته العظيمة اتى غاضبا حاقدًا عليه فكيف يفسر هذا الا بسرعة انتشار العريية كالسرعة التي انتشر بها الاسلام.

اما الامر هكذا فما الذي قضى عليها بعد ذلك واوقف سيرها لآمد بعيد جدا؟ هنا مضلة الافهام ومنزلة الافلام، والذي يظهر لنا انها تلك الفتن والحروب التي نشبت بين العرب والبربر فيما بعد والتي انما كان مشارها التعصب الاعمى للمجنسية البربرية والقومية البربرية الذي لم يبق ولم يذر شيئا مما اتى به العرب. ومما لا شك فيه ان بعض الحصون

والمعاقلة المنيعية التي لم يكن وصلها الاسلام او وصلها ولم يتمركز فيها
لم يكن للعربية ان تهاجمها او تدخلها فالبربرية ولو انها انهزمت امامها لم
تجد خيرا من ان تحتفظ بالرمق الباقي منها في ذلك البعض من الحصون
والمعاقلة. وهناك حقيقة في شعف جبال الاطلس كان متربعها ومقيلها
حيث بقيت تتنازع البقاء فثانا تجد من ياخذ بضبعها من متعصبة البربر
ومتحمسيهم او ممن لا ناقة له ولا جمل في هذا الامر وانما همه بذر
الشقاق والخلاف بين العنصرين المتمازجين والجنسين المتحددين فتنهض
وتستوي، وانا تبقى مهملة منبوذة لا يوبه لها ولا يحتفل بها وذلك
غالب امرها. بل فيما عدا عصر الفتوح الذي نحن فيه وفيما بعده بقليل
لم يبق لها بجانب العربية ظهور ولا صولة مطلقا وخصوصا بعد قيام الدول
العربية البحت من بني مرين والسعديين والعلويين كما ستجد تفاصيل
ذلك في تضاعيف هذا الكتاب



الصراع بين العرب والبربر

إذا عدنا لذكر الصراع القائم بين العرب والبربر فلسنا نقصد صراعا دينيا من نوع ما سبق فنكون نقضنا حكمنا بأن البربر لم ينتقضوا على الاسلام اولا الا كانهم جهلوه فعادوه، وانما نقصد هذا الصراع السياسي الطويل الذي ثارت عوامله بين العنصرين المتنافسين فيما بعد بسبب تداول الحكم وتنازع السلطة.

ولعل مشار النزاع اولا انما كان لاجل استبداد العرب بوجود المنافع واختصاصهم بالمناصب العالية في الدولة فبدات المطالبة بالمساواة في الحقوق ثم استفحل الداء فبدأ البربر يشعرون بالخطر يتهدهدهم وانهم ان لم يتلافوا الحال ربما افضى الامر بعد هكيانهم الاجتماعي الى نحو وجودهم السياسي اصلا فهاجت حميتهم وثار عصبيتهم وهبوا مندفعين كالسيل الجارف يريدون في البدئيل حقوقهم المهضومة وتثبيت مركزهم الاممى المتضعع ثم لما استحلوا الظفر واستمروا اطعم الظهور والرياسة لم يبقوا قانعين بما حصلوا عليه فتعلقت امالهم بالملك والامارة وساروا في سبيلهم متحمسين.

ونستشهد التاريخ في اثبات هذا الرأي فنجد ان اول ما وقع هذا الاستبداد في دولة الامام ادريس حيث يتحدث المؤرخون انه في سنة 189 هـ وفدت عليه وفود العرب من بلاد افريقيا والاندلس في نحو الخمسمائة فارس من القيسية والازد ومذحج وبني يحصب والصدف

وغيرهم فسر بوفادتهم واجزل صلاتهم وقربهم ورفع منازلهم وجعلهم
بطانته دون البربر فاعتز بهم لانه كان فريدا بين البربر ليس معه عرب
فاستوزر عمير بن مصعب الاردني واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد
القيسي قيس عيلا لئلا كما في القرطاس وذلك لفظه. ولكننا نلاحظ انه
لم يظهر اثر سبي هذه السياسة الاستثنائية كما يحسن ان تسمى في
ذلك الحين على عهد الامام ادريس وعل ذلك يرجع لاشتغال الناس في
بناء المدينة العظيمة فاس ولما كان له ولهم من عظيم المنزلة عندهم وصدق
المحبة فيه فلم يكونوا ينظرون الى اعماله بعين الشك والريبة كما نظروا
الى اعمال اولاده من بعده ولان الامر في اوائله قلما ينتبه اليه فلا
يظهر ما يكون نتيجة له او اثرا عنه. وكل ما نريد ان نقوله هو ان
ساوك الامام هذا كان مبدأ الاستبداد على البربر ومنشأ الخلاف على
العرب وان لم يظهر ذلك الا بعد ان ازداد خرق سياسة الا دارسة
واختلال ادارتهم وتبذلهم المقوت فقويت الهمم وشدت العزائم على
مقاومتهم والسعي في استيصالهم.

فظهر على مسرح التاريخ موسى بن ابي العافية فجاء في اثر
الدولة الفتية يصلي رجالها نيرانا مستعرة ويشن عليهم كل غارة شعواء
حتى قوض اركانها المتينة وهد بنائها الشامخ وكاد يستأصلهم لولا ان
اخذت الناس الشفقة عليهم فمنعوه منهم فاقبل عنهم خزيان حقيرا. وما
كاد يستريح ويأخذ في تدبير شئونه حتى انبرى له بدو عبيد فساووه

بعضاهم ومن هنا تعلم ان البربر لم يكونوا يريدون الانفراد بالسطة
 اول الامر وانما كانوا مفعولا بهم ومضروبا على ايديهم فان ابا عبد الله
 الشيعي القائم بدعوة العبيدين كان يدعوهم الى بيعة العلويين ايضا وهل
 كانوا بالمغرب الا داخلين في دعوة علوية ومبايعين للادارسة العلويين؟
 فلا يخلوا هؤلاء الخارجون معه امسا ان يكونوا مغرورين او منتهزين
 الفرصة للحصول على مطالبهم في ظل الدولة الجديدة على حد قول
 الشاعر:

اذا لم يكن للمرء في دولة امرى نصيب ولا حظ تمنى زوالها
 وطيلة وجود الدولة الفاطمية في المغرب والنزاع قائم بينها وبين
 الامويين الذين في الاندلس على المغرب. فما كانت تطفأ لظي الحرب
 بينهم. وبعد ذلك قامت دولة البربر من مغراوة وبني يفرن فكانت
 دولة بربرية محضة ولم ير أهل المغرب على عهدا الا الحروب الطاحنة
 والفتن الداخلية الماحقة فكان عهداً مشؤوما خلت البلاد فيه من السكان
 وانقطعت جميع الحركات الناشئة من اجتماعية وعمرانية وكادت البلاد
 تعود الى جاهليتها الاولى لو لم يتداركها الله بعبد الله بن ياسين مؤسس
 دولة المرابطين.



الوسط الفكري في هذا العصر

ما ذا تؤمل من الحياة او ترجو من مستقبل لامة انقسمت على نفسها ونشرت عقد اجتماعها بيدها فطمع فيها الا بعد والاقرب وتراجعت يفتك بعضها بالبعض الآخر فمرت عليها ثلاثة قرن ولم تذق فيها طعم السلام ولم تنقلب الى ظل الراحة حتى ترامت اخيرا على الصعيد منهوكة القوى خائرة العزم ليس الانفسها المتردد دليلا على وجودها.

ان الامة المغربية في هذا العهد كانت على اسوأ حالة عرفت عليها امة متأخرة بلغت الدرك الاسفل من الجهل وسوء الادارة عادمة الالفة مختلفة النظام لا رابطة تجمعها ولا قانون يردعها بل هي تائهة في بيداء الغواية لا تهتدي الى مسلك يخلصها مما هي فيه من العناء وكأنما نودي فيها بحى على الجمود والخمود فهي سائرة في هذا السبيل تقاوم كل حركة تنزع الى التجديد وتعرقل مساعي كل من يهيب بها الى الحياة. حتى الفتح العربي لم يؤثر فيها ! انها لاحدى الكبر ! اما على عهد الرومان ومن كان قبلهم فقد علمنا انها بقيت على جاهليتها الاولى منغمسة في بورة التوحش والهمجية ديدنها التمرد والعصيان فهل تريد ان تبقى كذلك حتى على عهد العرب حملة الهداية الاسلامية ومنوري الشعوب؟ حقا انها لفترة طويلة مرت على المغرب بعد دخول العرب اليه بدون ان يحصل فيها على اي طائل من علم او معرفة او حياة ادبية جديدة فهل لذلك من سبب او كان غيره من الاقطار كذلك يتأخر عن الاخذ بحظه

من معارف العرب وءادابهم وفنونهم هذه المدد كلها؟

يحدثنا التاريخ انه عند ما يتم الاستيلاء العربي على قطر من الاقطار يؤمه عدد وفير من القطان العرب فما يكاد يستقر بهم النوى ويتم تعرفهم بسكانه الاصليين حتى تتمكن بينهم اواصر المحبة والالفة ويتآخوا ويتولى بعضهم بعضا ويتصاهروا فتتفتح الاجناس وتمتزج العناصر امترجا قويا يصبح من العسير فصله بعد مرور السنين. ولا يخفى ما لذلك من الاثر الصالح والنتيجة الحسنة فسي طبع تلك الشعوب المختلفة بالطابع العربي الصميم في اخلاقها وعاداتها وءادابها وجميع مناحي تفكيرها وحياتها العامة. فتنتفى الفوارق وتتلشى المميزات وتتفق المنازع وتشبه الغايات فيصبح الشعب كتلة واحدة وجنسا واحدا له قوميته ومشخصاته وعوائده واخلاقه الموحدة. واذا اردت ان تتحقق من هذه الفكرة فانظر الى العراق والشام ومصر والاندلس حيث ان الكثير ممن فتحوها ووطنوا بها ولحق بهم الجماهير الغفيرة بعد ذلك فكانت النتيجة ما سبق. وهذا مما لا نزاع فيه. انما علينا ان نبحت لم لم يؤثر الفتح العربي تأثيره المعهود في المغرب، ولم تكن له تلك النتائج السارة؟

وهنا نقطة الموضوع والغرض المهم من هذا البحث

ونستطيع ان نقول في بساطة وايجاز ان هذه الرحلات التي اثرت تأثيرها المعروف في الاقطار الاخرى، لم يصل منها الى المغرب لسوء الحظ الا النادر الضئيل بل ربما لم تكن مبألتين اذا قلنا انه لم يصل منها

اليه شيء اصلا. وذلك لبعد الشقة اولا ولما كان عليه المغرب عهدئذ من التأخر والانحطاط والجهل والجمود الذي لا يتفق مع العقلية العربية الشائرة في ذلك الحين. فلم يكن بالمغرب الا الجماعات المحاربة المؤلفة من جنود جلهم من المرتزقة وجفاة الاعراب، وهم مع ذلك قليل وقليل جدا حتى ان جيش طارق الذي فتح الاندلس لم يكن فيه الا ثلاثمائة عربي او ثلاثة عشر عربيا على الخلاف في ذلك وهو اثنا عشر الفا! ارأيت كيف كانت الاغلبية الساحقة للعنصر البربري وكيف كان الحال والطول بيده فلا غرابة اذا قاوم العرب وما أتى به العرب من معارف وفنون فاوقف نفوذهم عند حده ما دام يعتبر نفسه هو صاحب السلطة في بلاده والمهيمن فيها على سائر الموارد والمنافع، يضم الى هذا الاعتبار القوة التي يتأيد بها في حمل الغير على الاعتراف له بهذا الحق المشروع. وكانت العقلية البربرية حينذاك في خمود مستمر من نسج خيوط الجهل والغباوة عليها فلم يكن لدى البربر من تأهل واستعداد لقبول ما جاء به العرب من مدنية وعرفان والترحيب به، بله استحسنه واصطناعه فلا غرابة كذلك اذا قاوموا كل مفيد نافع وكل منافع مصادم لما وجدوا انفسهم عليه مما يهيب بهم الى نبذ الكسل والجمود ومجاراة الاحياء وسنن الكون، فهم لم يدخلوا في الاسلام دخولا بينا اولم يشتبوا عليه الا بعد التي واللتيا وبعد ان دخلوا فيه لم يشاءوا ان يجمعوا للاتين به سلطانا عليهم في الاخلاق والعادات واللغة والسياسة وساعدهم على ذلك ما

وجدوه في الاسلام من التعاليم السمحة السهلة التي لا تضايق الناس فيما
عدا الامور الجوهرية من الاعتقادات ورسوم العبادات وبذلك ظلوا وهم
مسلمون يحاربون العرب ويهدمون ما بقي في ظلال الدول العربية او
التي لها ميل الى العروبة من معالم الحضارة ومثاثر التمدن.
وبهذا تدرك سر ما القى بالمغرب في وهاد التأخر والانحطاط طيبة
الثلاثة قرون المتكلم عنها في حين ان جاراته الاندلس التي فتحت بعد
قد بلغت اوج المدنية والحضارة.

على اننا ان صورنا حياة المغرب الفكرية في هذا العصر بهذه الصورة
القائمة فلانمر بدون ان نشير الى ذلك البصيص الذي كان يومض عليها
احياناً فيكسبها اشراقاً وبهجة لكنه سرعان ما كان يخبوا فتعود الى ما
كانت عليه من الاسوداد الحالك، فقد كان لترسيم بعض الفقهاء العرب
الذي انتبه اليه بعض الولاة نوع من التأثير في اضاءة السبيل امام افراد
عديدين نعرف بعضهم اندفعوا بكل ما في طاقتهم ومجهودهم الى الكرع
من حياض المعارف واجتهدوا في ازالة غشاوة الجهل عن اعينهم فتحملوا
عن اوطانهم ومساقط رءوسهم وضربوا في طول البلاد الاسلامية وعرضها
مستفيدين معتبرين بمشاهداتهم وما جرياتهم في رحلاتهم هذه ثم عادوا
الى اوطانهم مزودين بأنفع المعلومات وافيد الحقائق. ولكن الغالب انهم
كانوا يرتحلون عنها بعد ما يجدونها على تلك الحالة الموصوفة فيذهبون
اما الى الاندلس واما الى افريقية الاغلبية التي كانت تجري في اثر

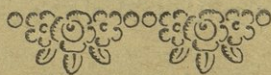
الاندلس بغية اللحق بها. وهؤلاء امثال الاصيلي رواية البخاري ويحيى
ابن يحيى الليثي الطنجي رواية الموطا وقد أقاما بعد رجوعهما بالاندلس
وأبو عمران الفاسي وكان غالب مقامه بأفريقية ودراس بن اسمعيل
وأبو جيدة بن احمد وهما ممن نفخ الحياة في جسم الامة المغربية بالعمل
على تهذيب النفوس وترقية المدارك فأقاما اود الاجتماع المائل الى الانقضاء
ووضع الحجر الاساسي في بناء النهضة الجديدة التي قامت على عهد
الموحدين بعد ذلك.

اما الاول فهو الذي نشر مذهب مالك بالمغرب اذ قد تلقاه بالموازية
عن ابي مطر الاسكندري فأخذها عنه كثير من الاندلسيين والافريقيين
منهم ابو الحسن القابسي وابو الفرج بن عبدوس وخلف ابن ابي جعفر
ومحمد بن ابي زيد القيرواني الذي شد الرحلة اليه ليجدد العهد به بفاس
فوجد الناس منصرفين من جنازته وكانت وفاته سنة 357.

واما الثاني فقد كان ايضا من رجال الفقه والدين والصلاح والاصلاح
وهو الذي دافع عن اهل فاس وحررهم من العبودية لما دخلها عامل المنصور
ابن أبي عامر وقال اخبروني عن بلادكم اصالح هي ام عنوة؟ فقالوا لا جواب
لنا حتى ياتي الفقيه يعنون أبا جيدة وكان يعمل في بستان له خارج
المدينة فلما جاء سأله فقال لا اصالح هي ولا عنوة رانما اسلم عليها اهلها
فهي لهم «المغرب للمغربيين» فقال العامل خالصكم الفقيه وقد عرف الناس
فضله من ذلك الحين وقدروه قدره ولذلك لما توفي سنة 365 ودفن خارج

باب المسافرين احد ابواب فاس تركوا تسميته بذلك وسموه به فهو يدعى باب سيدي بوجيدة الى الان.

وان ننس لانس تلك الجزيرة الجميلة الواقعة على ساحل البحر الرومي، التي كادت تعد قطعة من الاندلس بما قام فيها من اسواق رائجة للعلم والمعرفة وصفقات رابحة للفنون والاداب، نعني مدينة سمبته الفيحاء فإنها كانت دائماً بسبب قربها من الاندلس واعتبارها باب العدو مثابة الكثير من الادباء والعلماء المختلفي الطبقات، فكانت زاهية الحضارة حين كان المغرب موحش الارحاء وكانت تنير بأنوار العرفان حين كان المغرب الاقله كقاعده الادريسية. في جاهلية جهلاء، انما كانت حركتها قاصرة عليها لم تبلغ من القوة مبلغ التأثير في غيرها من مدن المغرب فتجعلها تمشي في اثرها ولذلك لم نعتبرها اعتباراً عاماً كالحركات التي قامت بعد في غيرها من المدن المغربية.



عصر الموحدين

ملامة البحث السابق

رأينا كيف ابتدأت حركة الفتوح الإسلامية في المغرب وكيف
تم انتشار الإسلام الذي تلاه بالطبع انتشار الثقافة العربية، ولكن إلى حد
ما، فهي لم تتمركز تمركزاً تاماً، ولم تستقر استقراً ثابتاً موطداً بل
بقيت تعاني من الحملات العدائية والمقاومات العنيفة التي كان يقيمها
ضدها أعداء العروبة ومبغضو النهضة والتجدد ما جعلها كأنها كفة
ميزان لا تزال شائلة راجحة

❦ دور التمويل والانتقال ❦

في هذا الوسط المنظم وبين هذه الترازع المقلقة، قام عبيد الله بن
ياسين يصرخ في القوم صراخاً عالياً متواصلاً ينبه فيهم حاسة الإدراك
ويعين لهم ما أتاهم من الهدى والنور

عبد الله بن ياسين الجزولي، ولله در جزولية كم انجبت من
رجال ودرج فيها من أبطال، هو أحد تلامذة أبي عمران الفاسي، ولكن
ليس مباشرة بل بواسطة إنما يكفيننا أن نقول أنه خريج تلك المدرسة
الراقية بشهادة الأحوال ودلالة الأعمال. وانظر كيف كان بنو المغرب
يخدمون مغربهم ولو كانوا نازحين عنه، فإن أحد زعماء صنهاجة
القبيلة الحميرية العظيمة وهو يحيى بن إبراهيم الكدالي لما رجع من الحج

ومر في طريقه بالقيروان، اجتمع بابي عمران هذا وتحدث اليه عن سوء الحالة الاجتماعية بالمغرب وما عليه القبائل من الجهل باصول الدين وفروع الشريعة فبعث معه بكتاب الى تلميذه وحجابه يذهب معه او يرسل اليه من تلاميذه من يطاع للدعوة والارشاد فينير لهم السبيل ويفتح لهم طريق الفلاح. ومن حسن الحظ فقد وقع اختياره على تلميذ من الخذاق الاذكياء الفقهاء النبلاء اهل الدين والفضل والتقوى والورع والادب والسياسة والمشاركة في العلوم والضبط والحزم، كما وصفه ابن ابي زرع، هو عبد الله بن ياسين الذي اجتمعت فيه حقا اوصاف القيادة وشروط الرعامة التي تؤهله للمقام بجلال الاعمال وعظائم الامور

دخل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة بقصد تعليمهم امور الدين واقرائهم الكتاب العزيز فوجد القوم في ظلمة من الجهل لا يفرقون بين حلال وحرام ليس معهم من الاسلام الا الشهادتان تحت واحداهم تسم نسوة فأكثر فجعل يعلمهم الدين ويبين لهم الشعائر والسنن ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فتقلت وطأته عليهم ونفرت قلوبهم منه وصادف أن مات حاميها والذاب عنه الامير يحيى بن ابراهيم المذكور فتوفرت الاسباب على مزاياها وتوليته الادبار فخرج مع من ثبت منهم على دعوته الى بعض الربط يقيمون الصلاة ويعبدون الله تعالى ثم سمع بهم الناس وانتقل خبرهم في القبائل فنسلوا اليهم من كل حذب وانخرطوا في سلكهم وامتثلوا ما امرهم به واقاموا معه على تلك الحال مدة ليست

بالقصيرة فسماهم هوأ وسماهم الناس المرابطين من اجل ملازمتهم للربط
ولم ينزل على هذه الحالة حتى فويت جموعه وكثرت وفوده فذبحهم
الى جهاد من لم يؤمن بالله عز وجل واتبع غير سبيل المؤمنين من قومهم
قومهم فاستجابوا له وقاموا معه بغزو القبائل غير المتدينة من بلاد صنهاجة
فظهر عليهم واقام فيهم دين الاسلام كما جاء به صاحب الدعوة صلى
الله عليه وسلم ثم واصل غزوه وفتوحاته في بلاد سجلماسة ودرعة اذ
كانت على ما كان عليه اهل صنهاجة فدخلها واقام بها حتى اصبح احوالها
وغير ما وجد بها من المناكر ثم سار حتى وصل الى بلاد السوس
فغزا جزولة وماسة وتارودانت وجميع البلاد السوسية فظهره الله عليها
واعلا كلمته بها وكان يرتب العمال في كل البلاد التي يحل بها ويامرهم
باقامة العدل واطهار السنة واخذ الزكاة والعشر من القبائل واسقاط
ما سوى ذلك من المغارم التي طالما كانت السبب في مروقهم من الاسلام
وخروجهم عن الطاعة. ولم ينشب ان توفى في غزاته الكبيرة ببرغواطة
وكانت ارض كفر ومجوسية سنة 451 بعد ان خيرهم فيمن يتصبه اميزا
عليهم فانفقوا على ابي بكر بن عمر الممتوني فوافقهم عليه.

وهنا نقطة الفصل بين العصرين، وهكذا ابتداء الامر عاديا بسيطا
فانتهى بتأسيس الدولة الممتونية او المرابطية التي تداولت الحكم فيما
بعد جادة في تنفيذ خطة ابن ياسين بالحرف وكان من افرادها العاهل
الاكبر والرجل المصامي الفذ يوسف بن تاشفين الذي غير خريطة

المغرب وقلب ممالكه العديدة راسا على عقب وازل كل الحواجز التي كانت تفصل بين اقطاره المتجاورة وانجائه المتقاربة فتجعل كلا منها عدوا للآخر يتربص بهما فترات الانحلال والضمف فيشب عليه وثبة الضاري المفترس مريدا ان يحقه به لا على انه اخوه وشقيقه له بها له وعليه ما عليه ولكن على انه عبده وتبيعه الذي يجب عليه كل حق وليس له اي حق.

سمى يوسف لضم اطراف المغرب بعضها الى بعض ولهم شعته ورأب صدعه فتم له كل ما اراد وكملت جميع مساعيه بالنجاح. تقدم فاحتل تلمسان والجزائر واعمالها ~~وسمى~~ وازال عنها ساطة الاغيار فتوحدت الدولة وتماسكت اجزاء البلاد التي طالما اشتكت النفرق والانقسام واصبح ليوسف النفوذ المطلق على المغرب كله من **الجزيرة** الى اقصى الصحراء وكن اهل الاندلس حينئذ في ضيق عظيم من جهة اعدائهم الذين اضطهدوهم وارهقوهم الذلة والصغار حيث ان ملوك الطوائف الذين كانوا بها عهدئذ، كانوا منهمكين فيما لا يعنى من الشرب واللهو مشتغلين بالكيد والدرس بعضهم لبعض يؤدون الخراج لاعدائهم الذين يتخذونهم مثل الجنود الاحتياطية متى نادوا عليهم ابوا الذداء وامتشوا ما يلقي عليهم ولو قي تشيت شمل الممالك الاسلامية واتقضاء على دولها وتسليمها الى الاعداء بل هذا كان الغالب عليهم حتى ان الفونس السادس عزم على اجلاء العرب عن البلاد في ذلك الحين فوصل بنفسه الى

ساحل المحيط الاطلسي من جزيرة طريف واقحم بفرسه في اليم حتى
 بلل حوافره وقال هذا يجب ان انتهى بجنودي فهلع المسلمون لذلك
 اشد الهلع واستصرخوا ملوك الاسلام مستعدين بهم على امرائهم فافاق
 هؤلاء من الغفلة ونظروا فشمروا بخرج الموقف ودنو الخطر منهم فاقبل
 احدهم وهو المعتمد بن عباد ملك اشبيلية فعبر الى العدو ومثل بين
 يدي يوسف بن تاشفين فبسط لديه رغبة اهل الاندلس ورهبتهم فانعم
 له بالجواب ووعد بالجواز الى العدو وتكرر الطلب وكثر الالحاح
 عليه فاخذ يعد العدة وجاز وقاتل الفونس السادس ملك قشتالة وجيوشه
 وانتصر عليهم انتصار باهرا سنة 469 في واقعة التلاقة المشهورة وهي من
 اكبر الوقائع التي جرت في الاندلس فوصل اليه سائر ملوك الطوائف
 وحيوه بامرة الاسلام، فصار يدعى امير المسلمين من ذلك اليوم وهو اول
 من تقلب به من ملوك الاسلام فيما نعلم، وهنوه بالفتح المبين والنصر
 المكين فاقتبلهم بما يليق بهم من البشر والترحاب وقربهم وخصهم بنصائحه
 الغالية وحضهم على الوحدة ورعى اخوة الاسلام واوصاهم بحفظ الثغور
 وحراسة الحدود وابقى لديهم قطعة من جيشه بقصد معاونتهم والعمل
 معهم يدا بيد على جهاد الاعداء ودفاع المعتدين وقال لهم هذه الجنود
 الباسلة لا ينقصها الا الادلاء على مواطن ضعف العدو فكونوا لها كفات
 تكف لكم محات

بسطنا هذه القضية التاريخية هنا وان كانت ليست من موضوعنا لنقرر

حقيقة واقعية طالما اغفلها الكتاب والمؤرخون وقاسوها قياسا فاسدا حيث اندفعوا في تغليب اهوائهم وتحككهم عواطفهم ورموا المجاهد العظيم يوسف بن تاشفيس بما اوحى اليهم التعصب والتخرب من التوحش والهمجية في معاملة المعتمد بن عباد الذي يكفيننا من مساويه انه عرض «الفردوس» العربي «الفقذ» في منتصف القرن الخامس الهجري بمجونه وانهماكه في اللذات والمشتهيات

اننا مهما تملكنا الاريحية الادبية واخذنا الجمال الفني واستحوذ علينا الخيال الشعري، لا يبلغ بنا ذلك الى نسيان شخصيتنا والتهاون في حفظ كياننا فنفضل قول بيت من الشعر على اتقاذ مملكة من ازهي الممالك الاسلامية واوسعها واغناها واعظمها حضارة وعمرانا ورقيا

ليس يبلغ بنا استهواء المظاهر الخلابية وحب التريئة والترخف ومجالس الهوى والطرب وعزف القيان وغناء الشعراء وتبذير مال الامة في تبطين البساتين بالغنبر (1) والغالية وتشيد القصور ونباطحات السحاب وزخرفتها ونقشها - الى الاستكانة للذل والصغار والاستعباد واداء الجزية التي يوجب الاسلام والشرف وحب الاستقلال والمجد اخذها لا اعطاءها ! فبالحقيقة ان عمل يوسف جليل وجليل جدا وفوق ما يظنه الظبان ويقدره اولئك الكتاب الخياليون، بل والاسلام والمدنية والعلم كلها جميعا مدينة ليوسف بن تاشفين وممنونة منه باتقاذ الاندلس وبقائها كل هذه المدة في يد العرب وجد من يعترف بذلك الآن ام لا. ومن المحقق انه لو لم يسارع

(1) هذه اشارة الى يوم الطين في قصة المعتمد المشهورة مع خطبته الرميكية. انظر النقع

يوسف الى انقاذ الاندلس في ذلك الحين لما وجد ابن رشد ولا ابن الطفيل ولا ابن باجة ولا ابن العربي ولا ابن خلدون ولا ابن الخطيب ولا، ولا، ممن انجبتهم تلك الجزيرة في حياتها الثانية التي جاد بها عليها يوسف ابن تاشفين

كتب علماء الاندلس غير ما مرة ليوسف يناشدونه الله ورابطة الاسلام ان يبادر لاتقاذهم وتخليصهم من ايدي ملوك السوء الذين انصرفوا ثانية بعد عودته، الى لهوهم ولعبهم واغفلوا نصائحهم واهملوا امر الجند وضنوا عليه بالنفقة اللازمة فاصبحت البلاد من جديد معرضة لحملات اعدائهم اليقظين المنتهزين للفرص وحضه علماء المغرب وساسته وقواده وزعماء الرأي فيه على تلبية طلب هؤلاء فتردد في الامر وبقي يقدم رجلا ويؤخر اخرى ثم كتب الى علماء العراق وعلى رأسهم يومئذ حجة الاسلام الغزالي فافتوه بوجوب المسارعة الى ذلك والا فيكون مواخذا امام الله والناس والتاريخ.

فالما رأى اجماع الامة علمائها وساستها ورجال الحرب فيها على رأى واحد عزم متوكلا على الله وسار الى الاندلس. اما هؤلاء الملوك وبعبارة حكام المقاطعات فمنهم من اتقى القياد ولم يساخذه الهوس الى التهور في الدفاع غير المجدي ومنهم من تعنت واستحدث من الضعف قوة لم يكن يستحدثها في محاربة من كان يؤدي اليهم الخراج من ملوك النصرانية! ومنهم المعتمد بن عباد الشاعر الغزل الرقيق! فالقى عليه القبض رجال

يوسف الابطال الا شداء

وهل تدري ما فعل به بعد؛ لقد كانت معاملته له بحيث لو لم يتفق المؤرخون على روايتها لقلت انها من المستحيل على ملك بربري متوحش كما يصفه كتابنا المتمدنون؛ لقد عامله بمالم تعامل به اوروبا الحديثة نابليون العظيم لما سرتة وشتان بين نابليون والمعتمد، لقد ارسله الى طنجة عروس المغرب فلبث فيها شهورا الى ان فرغ الفاتح من اعماله وتقرر مصيره في اغمات، لا تقل وما اغمات؟ واين اغمات من اشبيلية؟ فلم تكن اغمات احدى القرى المهجورة في بلاد الصحراء او الجزر القاصية في عبر المحيط؛ بل هي كما يقول مؤرخو تلك العصور مدينتان:

اغمات اريكة وهي مدينة عظيمة في ذيل جبل كبير الاشجار والثمار والاعشاب والنباتات، ونهرها يشقها وعلى النهر راحة كثيرة تدور صيفا وفي الشتاء يجمد ويجوز عليه الناس والدواب واهلها ذو ويسار واموال ولهم على ابوابهم علامات تدل على مقادير اموالهم

واغمات ايلان وهي مدينة كبيرة في اسفل جبل يسكنها يهود تلك البلاد. زادياقوت في المعجم وليس بالمغرب فيما زعموا بلد اجمع لاصناف الخيرات ولا اكثر ناحية ولا اوفر حظا ولا خصبا منها الخ وفي كلتا المدينتين طنجة واغمات لم يكن بمنزلة المحبوسين السياسيين التي نعرفها في هذا العصر بل كان مطلق الحرية ليس عليه ادنى حجر ولا على من يريد زيارته والوصول اليه. وقد اجتمع به شعراء طنجة ولما باؤها وطارحوه احاديث

الادب والشعر كما وفد عليه جل ادباء الاندلس وهو في اغمات لزيارته
وكانوا يقضون معه الاوقات الطويلة وغيرهم من الاطباء والعلماء
كذلك. وحسبك ان يوسف احتاج مرة الى طبيب له الخاص فوجده عنده
فلم ينكر ذلك واستدعاه من عنده

ارايتم معي ايها القاريء كيف كان يوسف رجلا عظيما بكل ماتحتمله
هذه الكلمة من المعاني؟ لا كني اراني قد اطلت عليك وربما لم تكن ممن
يرى فيه ذلك الرأي القائل فيكون هذا الكلام لديك من تحصيل الحاصل
ولا كن لاباس فانا ارجع بك الى حيث كنت

طوى يوسف صحف تاريخ المغرب والاندلس، وجعلها صحيفة
واحدة هي صحيفة تاريخ المغرب الموحد فانتفت الفوارق السياسية وزالت
الحواجز الاصطلاحية وتساكن اهل المغرب والاندلس بعضهم الى بعض في
وطن واحد وتحت رعاية دولة واحدة وتقاربوا واتصلوا لا كما كان
تقاربهم واتصالهم بل بصفة مجدية ومؤثرة في جميع مناحي الحياة الشعبية
والبيئية، فأتى هذا التحاكن بالفائدة المنتظرة منه وفعل الافاعيل في تكوين
الدماع المغربي وقدر زناد افكار المغاربة فهاموا بحب المعارف والفنون
وشغفوا الشغف كله بطلب ما عند جيوانهم من ذلك فاصحبت بينهم
وبين العلم والاداب نسب متمكنة واسباب متصلة. وكانت مراکش التي
بناها يوسف بن تاشفين (454) حاضرة المغرب يومئذ وكرسى مملكته
فكان بلاطها منتدى الادباء والشعراء ومقتني العلماء والحكماء على اختلاف
طبقاتهم وتباين مشاربهم لمزيد تقريب هذه الدولة لهذا الصنف من

للناس واختصاصهم حتى لقد كانت ابوابهم اشبه بابواب بني العباس صدر دولتهم. ومن الواضح ان المناصب العالية التي كان هؤلاء يتولونها في الدولة عن جدارة واستحقاق كانت تشوق المراكشيين وتعري النشأ المغربي بالمغامرة في سبيل الطلب والجد في تلقف ثقافة اولائك العظماء. وهكذا اخذ المغربي يستفيق من ذلك السبات الطويل ويخرج من عزلته الموحشه وينافس غيره في طرق ابواب الحياة واكتشاف ما وراءها من نجاح وفلاح فكان ضرب المثل بالفعل اوقع في نفسه من جميع تلك المحاولات التي اريد بها نقله من خموده وجموده المطبقين الى عكسهما طفرة في طريقة عين فكان نصيبها الفشل والا خفاق في غير مامرة

كما ان الوسائل الفعالة التي اتخذها عبد الله بن ياسين في بت دعوته الاصلاحية وايقاظ القبائل الى الواجبات الدينية كان لها الاثر الصالح في تنبيه تلك القبائل الى واجبها في الحياة وما يراد منها. وكان نجاح عبد الله محققا لكونه من انفسهم يخاطبهم بلغتهم ويعرف ميولهم واذواقهم ومواطن الضعف والقوة من اخلاق كل قبيلة منهم فكان يجس انباضهم ويستحس منها دقات قلوبهم ويقودهم بالزمام الذي يراه صالحا لقيادتهم فما لبث ان وضع الحجر الاساسي في بناء هذه النهضة المباركة ورسم بيده خططها وبرامجها التي نفذت فيما بعد بنصها وفصها.

انما كانت الدولة بربرية بحتة وان اسرع الاستعراب الى الشعب لانه لم يقو حتى يكسوها حلة العروبة فتوتي النهضة اكملها وقد كان ذلك لقصر عمرها في زمن الموحدين.

الثورة الاجتماعية

لا ريب ان للحركات السياسية اثرا في تكوين الاوساط الادبية والعلمية، انما هذا الاثر محدود ومحدودة مناطقه فلا يصح اعتباره وحده كوسيلة لهذا التكوين وانما هو من جملة الاسباب ومختلف العوامل التي تؤثر تأثيرا عاما، ولذلك فنحن لم نختص كل دولة بعصر وادمجنا دولة في دولة مثل ما فعلنا في دولة الادارسة وبني العافية ومغراوة وبني يفرن وغيرها من السلط المتعاقبة على المغرب في القرون الثلاثة الاولى وكونا منها جميع عصرا واحدا اطلقنا عليه «عصر الفتوح» كذلك ادمجنا الدولة الممتونية هاهنا في الموحدين وكونا منهما معا عصر الموحدين وندمج الوطاسيين في المرينيين ونكون منهما عصر المرينيين؛ لهذه النكتة الدقيقة التي يغفل عنها كثير من الكتاب ومؤرخي الاداب فيجعلون الحركات العلمية والادبية كوليدة للانقلابات الدولية والاتجاهات السياسية كيفما كانت وانى تأتت، وهو كما علمت غلط مني به كثير من المؤلفين القدماء والجدد.

واذا تأمل القاري قليلا، عرّف سر قراننا بين الدولتين الموحدية والمرابطية في فصل واحد وعصر واحد فنحن لا ندعي ان هذه النهضة الادبية التي قامت على عهد الموحدين هي وليدة الانقلاب الموحدي وحده فقط ولا نقول ايضا انها من نتائج انتصاب الدولة المرابطية وفتحها للاندلس لا بل الذي نراه انها متولدة من جميع هذه الاسباب والعوامل المختلفة

ولا يصح افراد أحد هذه الاسباب وعدم وصله بالآخر وجعله السبب الرئيسي في تكونها فذلك من الغلط. كذلك يقال في العصر السابق فهو كله من حيث الشبه الكلي بين حوادثه السياسية وحركاته الانفصالية وما كان يعترى وجهته الثقافية من الجمود تارة والنشاط تارة اخرى بحيث لم تتضح وجهته تماما صح ان يكون عصر الفتوح ولا زائد.

وهذه الثورة الاجتماعية التي عنونا بها الفصل هي الانقلاب الموحدى بعينه ولا مبالغة في اطلاقنا عليها ذلك الاسم فاننا نراه كما هو في نفس الامر ثورة اجتماعية اكثر منه انقلابا سياسيا ولكن هذه الثورة انتهت بتأسيس دولة والقضاء على دولة اخرى، وذلك الشان في الثورات الاجتماعية بعد ما تاخذ اتجاهها تنقلب الى حركات سياسية غايتها نفس سلطة الاغيار واقامة سلطة موالية على انقاضها لتستطيع التنفس والنمو في جو اكثر حرية وملاءمة من الجو الاول.

فنحن لو نظرنا الى المهدي في بداءة امره ومغامراته الخطيرة في بث دعوته الإصلاحية وبعبارة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لما رأينا فيه الا ما رآه امير المسلمين على بن يوسف من انه رجل صحيح القصد حسن النية وامر بتخليته، بل انك لتدهش من اقدام هذا الرجل وتعرضه نفسه للخطر المحقق ليس في بسلاسه التي ربما يظن انه يفعل ذلك لما وقر في نفسه من القيام على الدولة، ولكن في اسكندرية ومهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان فلو كان هذا الرجل متحققا

من سلامته ومؤمنا على حياته اصح القول حينئذ والتسليم بوجهة نظر
القائلين بان نهضته سياسية من اول الامر. لكن الامر بالعكس ومناقض
تماما لما يزعمون لان من يطلب الملك ويعمل على اسقاط الدولة لا
يذهب بنفسه الى التمكين منه وعرض روحه على الخطر بمواجهة امير
المسلمين واغلاظ القول له مع كونه لا زال قليلا مستضمفا ليس معه الا قوة
الايمان وصدق العقيدة واليقين واستمع الى قول ابن خلدون في هذا
الصدد فهو نص على ان غاية الرجل كانت شيئا فوق السياسة وقبل
الدولة :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفائرة ما يتناوله ضعفة
الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين
ونسبته الى الشعوذة والتلبيس فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحق والذمي على
اهل البغى قلبه وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم
الموحدون اتباعه من انتسابه في اهل البيت وانما حمل الفقهاء على تكذيبه
ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فانهم لما رأوا من انفسهم
مناهضته في العلم والفتيا والدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بانه متبوع الرأي
مسموع القول موطأ العقب تقموا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح في مذاهبه
والتكذيب لمدعياته، وايضا فكانوا يونسون من ملوك لمتونة اعدائه
تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال
الديانة فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتساب للشورى

كل في بلده وعلى قدره في قومه فاصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا
لعدوهم وتقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتشريب عليهم
والمناصبه لهم تشيعا للمتنونة وتعصبا لدولتهم ومكسان الرجل غير مكانهم
وحاله غير معتقداتهم وما ظنك برجل تقم على اهل الدولة ما تقم من
احوالهم وخالف اجتهاده فقهاءهم ونادى في قومه ودعا الى جهادهم
بنفسه فاقتلم الدولة من اصولها وجعل عاليها سافلها اعظم ما كانت قوة
واشد شوكة واغر انصارا وحامية وتساقطت في ذلك من اتباعه نفوس
لا يحصيها الا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بانفسهم الهلكة
وتقربوا الى الله تعالى باتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة والتعصب
لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو
بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكارده والتقل من الدنيا حتى
قبضه الله اليه وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه حتى الولد
الذي ربما تجنح اليه النفوس وتخاذع عن تمنيه فليت شعري ما الذي
قصد بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في
عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم امره وانفسحت دعوته
سنة الله التي قد خلت في عبادته.

وفضلا عن انه لم يقم لطلب الملك، فانه لم يقم لطالب ثار له عند
هذه الدولة، فانها لم تؤذه بشيء ولم تمد اليه يسدا بسوء اصلا، وكون
تنازع الزعامة بين قبيلته مضمودة وقبيلة صنهاجة التي منها لمتونة هو

الباعث له على القيام كما قد قيل به ضعيف وخصوصا مع ما علم من ديانتهم وتقواه وعدم تمسكه باسباب العصبية التي نهى عنها الاسلام. على اننا لا نرى ان هناك عصبية كانت موجودة بين القبيلتين حين قيام ابن تومرت، يدل على ذلك انه لم يكن يحارب بقبيلته فقط ولا بالمصامدة كلهم فقد بقي منهم من لم يدخل في غمار الحرب كما انضاف اليه قبائل اخرى من غيرهم ولذلك كانوا يسمون بالاسم الجامع «الموحدين» حين لم يشملهم اسم المصامدة حتى قامت الدولة على غير اكناف المصامدة من القبائل. كما انه لم يجزؤ قط على دعوة القوم الى الحرب بدافع العصبية وبسبب هذا التنازع، وانما كان يدعوهم ويتألفهم بداعي الايمان والعقيدة لا غير ولولا ذلك لما تم له امر ولا انتشر له بينهم ذكر.

على ان الحوادث التاريخية بترتيبها الطبيعي شاهدة لذلك فابن تومرت الذي شب على طلب العلم والجد والاجتهاد في تحصيله، والذي ربما كان من خريجي مدرسة ابن ياسين الاصلاحية، لما اكمل دراسته الاولى تاقت نفسه الى زيادة الكرع من حياض المعارف والتضلع بفنون العلم والادب. وبحث فلم يجد في هذا القطر القاحل ما يسد نهمته ويروي غلته، وهذا اول نقص شعر به في مقومات الاجتماع المغربي، فترحل الى المشرق ودرس به على العلماء المشاهير امثال ابي حامد الغزالي وابي بكر الطرطوشي وتشبع بالافكار الحرة والمذاهب الفلسفية والكلامية ورجع مملوء الوطاب بالمعلومات الوفرة التي عززها بمشاهداته

واختباراته وما جريبات احواله في رحلته تلك التي فتحت في وجهه بابا كبيرا من الآمال في اصلاح الوسط المغربي وانعاش الروح الاسلامية السكائمة في اعضائه ومفاصله.

وهكذا كان فما ان وطئ ثرى البلاد المغربية حتى بدأ بتنفيذ خطته وابرأ ما كان يزوره في فكره من ذلك الى حينز العمل فصرخ صرخاته الجهييرة في الالهابة بالعلماء الى نبذ التقليد الاعمى والجمود الممقوت ومجاعة الاحياء وسنن الكون في الاخذ باسباب النهوض الفكري والاصلاح العلمي لتلافي ذلك الوسط الموبوء بشتى الامراض الاجتماعية الفتاكة التي قضت على حياته السنين الطويلة فبقى سادرا في ظلام الجهل الحالك لا يدري ما يقدم ولا ما يؤخر. ولاكن العلماء او اشباه العلماء كانوا في سبات عميق وبحالة من التعصب يرثى لها فلم يعيروا الداعي المخلص اذنا صاغية بل اعرضوا عنه ونافروه واجتمعوا وغريب منهم الاجتماع على مناهضته ونصب فخاخ السقوط له.

وانت تعرف ما كان يدعو اليه وما هو محور المناظرة التي كانت تجري بينه وبينهم مما قدمناه لك من كلام ابن خلدون في وصف اولئك العلماء ونريد الآن فننقل كلمته في وصف غزارة علم ابن تومرت وما افاده في رحلته المشرقية من العلم الذي لم يكن معروفا عند اهل المغرب اذ ذاك والذي كان المهدي يدعو اليه. قال: «وانطوى هذا الامام راجعا الى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين،

وكان قد لقي بالمشرق ايممة الاشعرية من اهل السنة واخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر اهل البدعة وذهب الى رايهم في تاويل المتشابه من الآي والاحاديث بعد ان كان اهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التاويل والاخذ برايهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التاويل واقرار المتشابهات كما جاءت ففطن اهل المغرب لذلك وحملهم على القول بالتاويل والاخذ بمذاهب الاشعرية في كسافة العقائد واعان بامانتهم ووجوب تقليدهم والف العقائد على رايهم مثل المرشدة في التوحيد وكان من رأيه القول بعصمة الامام على رأي الامامية من الشيعة والف في ذلك كتابه في الامامية الذي افتتحه بقوله اعز ما يطلب الخ على ان هذا الرأي الشيعي انما استجده بعد ذلك حين نبذه الفقهاء ونفاه رجال الدولة من مراكز فخرج الى السوس للتاثير على عقول العامة وجهلة البربر الذين يتوقف على نصرتهم واخذهم بضبعه في الانتقام من اعدائه وتنفيذ خطته. يدلنا على ذلك اجماع المؤرخين على عدم ذكرهم له في جملة الاراء التي ابدوها حين المناظرة للعلماء بمراكش وفاس وغيرهما وان الكتاب المذكور اعز ما يطلب انما افه لما كان مستقرا بجبل تينمل في سوس بعد نفيه وهذا واضح.

نعم فان المهدي لما رأي تعصب العلماء عليه يش من اصلاحهم ومجيء الخير على ايديهم فوجه شطره الى ناحية اخرى وقصد طبقة

العامّة من الشعب يدعّوهم الى الرشد ويعلمهم امور الدين بعد ما كان شديد الالب عليهم لا يعذرهم بجهلهم فطالما نكل بهم تنكيلا هو واعوانه على اقل مخالفة منهم لاصول الشرع وامر ليس من الدين يجدهم عاكفين عليه، وذلك حين كان يرجو من العلماء معونته ومعاضدته فيما هو بصدده ولكن خاب ظنه فرجع الى هؤلاء العوام وتنزل لتعليمهم بنفسه وتهذيبهم وتأديبهم فكنت تراه طيلة يومه يعقد المجالس العلمية الخاصة والعامّة ويلقي الى الناس ما ينفعهم متخذاً في ذلك الاساليب المختلفة للوصول الى الغرض المقصود بسرعة، فتارة تراه يعلمي بالبربرية وتارة بالعربية، كذلك فعل في تأليف الكتب التي تسارع الفريقان من القراء الى دراستها وتفهمها فتعلقت معانيها باذهانهم ورسخ مضمونها في افئدتهم واصبحوا كما يريد ابن تومرت دعاة التوحيد الحق وبذلك سماهم الموحدين.

وبقى المهدي على حاله من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باثنا دعاته في القبائل وفي كل يوم يرتفع صيته ويؤمه الناس من كل جهة فيعرف كيف يستميلهم اليه ويدخلهم في حزبه حتى اصبح سلطانا مطاعا في جميع القبائل، والمغرب اذذاك وفي كل وقت هو القبائل، بل اصبح ملكا صاحب دولة في قلب الدولة الشرعية.

وقد كانت هذه الاعمال كلها تثير سخط الدولة المرابطية عليه وكلما اشتدت صولته كلما اوجست الخيفة من ان ينقلب عليها فتعض اصابع الندم على ان لم تكن حبسته يوم كان بمتناول يدها. وصممت الغرم

على أن تناوشه القتال وتبدأه بالمحاربة حتى تستولى عليه وتنفذ فيه حكم الفقهاء فارسلت اليه اول طليعة في سنة 515 ومن هذا ابتداء الطور الثاني من حياة المهدي وهو الطور السياسي الذي جاءت تلك المحاولات الاولى كالتمهيد له.

ولا حاجة بنا الى القول ان المهدي ثابر في محاربة القوم ومناجزتهم القتال وكانت الحرب بينهم سجالا. انما لم يكتب له ان يرى نتيجة مسعاه حتى انه لم يفرح بالانتصار على خصومه في موقف مشهود ورغم ذلك فانه كان قوي العزم صحيح العقيدة في جهادهم واتقا بالنصر عليهم وغلبتهم والادالة منهم كما وعد بذلك اصحابه وهو يجود بنفسه. وكان حريبا ان يشهد الدولة المرابطة تخرب من فوق عرشها العالي ويتهدم بنيانها الشامخ لولا ان المنية عاجلته فتوفي وهو ما زال شابا في مقتبل العمر سنة 524 وفيها يطوي سجل اعمال المهدي العظيمة ويبدأ دور رفيقه عبد المومن ابن علي الكومي الفتى الجلد الصبور الذي كان لقي المهدي في (ملالة) وهو عازم على التشريق في طلب العلم فرجع عن عمره وصحب المهدي واكتفى بالدراسة عليه وهذا احله منه محلا لا ثقا به واشركه في امره وكاشفه بخبيثة نفسه وكان هو وارثه وخليفته من بعده بعهد منه.

وكانت الدولة المرابطة حينئذ قد شاخت في اوان الشباب وتمكن منها الضعف كاشد ما يكون، فانهار كل ما بناه ذلك العاهل العظيم يوسف ابن تاشفين لهذه الدولة من اثار المجد الرفيع واركان العز المنيع، ذلك

ان عليا ابنه كان معرضا عن سياسة الملك والتدبير مشغلا بالعبادة وامر
الاخرة فهو لم يعتزل الحكم ولم يتفرغ لما هو بصدده فغلب على امره
واستقل الولاة بما في ايديهم وعاد العتو والفساد في القبائل كما كان
بعد ما كانوا اطوع لابيه من البنان واتبع من الظل وبسرزت المراتة الى
ميدان السياسة فلعبت دورها الذي طالما زلزل العروش وقلب الممالك.
وهذا كاف في صرف النظر عن هذه الدولة وتوجيهه الى من يحيط
وحدة الامة بسياج الحكمة والتدبير ويحقق املها في النهوض بمواصلة
السعي والعمل، لذلك فان العقلاء من اهل المغرب وعامة اهل الاندلس
ساعدوا حركة العصيان وناصروها في السر والاعلان. والقبائل قد
شاهدنا ما كان من رياضة المهدي لهم وتربيتهم على مبداء وبعبارة ما
كان من تخريجهم في مدرسته فلم يكونوا محتاجين الى تجديد عهد ولا
تشبث طاعة فسرعان ما دانت البلاد لعبد المومن فقوض دعائم الدولة
المرابطية ودوخ المغرب من ادناه الى اقصاه وسرعان ما استقرت الاحوال
واستتب الامن وعادت الامور الى نصابها وقامت الدولة الموحدية
بمراكش شامخة البنيان رفيعة الاركان فلو انها كانت عملية هدم وتخریب
لما تمت بهذه السرعة العجيبة.

ثم كانت دعوة المهدي بن تومرت التي خلاصتها الحض على
المعرفة والرجوع إلى الاسلام الصحيح الذي كان عليه السلف الصالح

مع ما عقبها من حركة التجديد والانشاء والتنظيم في جميع مرافق
الدولة ومصالح الامة، كان ذلك من اعظم ما نبه الافكار من الخمول
ونشط الهمم من الخمود وعاد على الشعب المغربي بالفائدة المحسوسة
في عالم السياسة ودولة العلم والادب.
وكذلك تم الانقلاب الاجتماعي الهائل.



الدولة والثقافة

ما هنر عطفه بين البيض والاسل. مثل الخليفة عبد المومن بن علي بهذا المطلع المطرب وحده، وهذا البيت المفرد، مدح محمد بن ابي العباس السمعاني عبد المومن بن علي الذي استعاده منه واستعاده وامره بان يقتصر عليه واجازه فيما يقول العماد الاصبهاني في كتاب الخريدة بالف دينار قائلًا له : لقد قلت في هذا كل شيء!

نعم، لقد قال فيه كل شيء! اليس قد مدحه بالشجاعة والتفوق فيها حتى نفى عن غيره ان يكون هازا عطفه مثله في الوعى المرتفعة بين السيوف اللامعة؟ وانظر انت الى رشاقة هذا التعبير وما فيه من الحسن والجمال، اليس يدعوا الى الاعجاب بحسن خلق عبد المومن قبل الاعجاب بحسن خلقه وبرشاقة قده واعتدال مشيته قبل شجاعة قلبه وثبات جاشه؟ وفوق هذا وذاك اليس قد دعاه بالخليفة؟ وهذه هي الامنية الحلوة التي طالما تمنها ملوك الاسلام وحلموا بها في منامهم حتى المضروب على ايديهم منهم، فيعدون الشرف الصميم والفخر العظيم والغاية التي لا قبلها ولا بعدها ان ينعتوا بالخليفة فيكونوا ظل الله في ارضه ووارثي سر النبوة وواضعي ايديهم على رقاب ملايين البشر. لذلك فعبد المومن الناقد البصير يحق له ان يشير على السمعاني بالاعتصار من القصيدة على مطاعها هذا لانه كما قال قد جمع كل شيء، يمكن ان يقوله شاعر في ملك ذي صولة وبأس مثل عبد المومن. وهو من جهة اخرى خشى ان يدرس

البيت ويضيع في تضاعيف القصيدة فابقاؤه على حاله من الفردية ادعى الى حفظه وسيره وتخليده في الناس.

وبعد، فهذا مثال واحد من امثلة تنشيط عبد المومن للادب والاخذ بضبعه واكرام اهله واحلالهم منه المحل اللائق بهم وادرار الصلات الطائفة عليهم، ففي كل نقلة، وفي كل احتفال عيد وغيره، وفي جميع المظاهر العادية وخلافها والمقابلات الرسمية والمواقف العامة، كان يجلس الى الشعراء، وما اكثرهم في دولته فمن اندلسيين الى مغاربة الى افارقة ومنهم الى مصرى وشامى وعراقى وغيرهم، يحاورهم ويساجلهم فينشرون عليه من عقود مدائحهم كل نفيس غال فيحسن الاستماع اليهم ويسر من ثنائهم عليه وينتقد هذا ويقرض ذاك وفي الاخير يجيزا لكل ويفيض عليهم من سبب عطائه وبحر نواله.

وهنا يحسن ان اورد للقاريء ما ذكره صاحب المعجب في وصف احتفاله ببيعة اهل الاندلس له على ظهر « جبل الفتح » كما كان يسمى هو جبل طارق ملخصا قال: « ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فاقام به اشهر او اثنى به قصورا عظيمة والمدينة الباقية الى اليوم ووفد عليه وجوه اهل الاندلس للبيعة كاهل مالقة وقرنطة ورندة وقرطبة واشبيلية وما الى هذه البلاد وكان يوم عظيم اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها واعيانها وملوكها من العدو والاندلس ما لم يجتمع لملك قبله واستدعى الشعراء وكان على بابهِ طائفة اكثرهم مجيدون

فكان أول من أنشده أبو عبد الله محمد بن جبوس من أهل فاس قصيد
أجاد فيهما ما أراد:

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا

وبحسبه ان كان شيئا قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا

وأنشده ابن الشريف المعروف بالطليق المرواني:

ما للعداجنة أوقى من الهرب

فقال عبد المومن الى أين الى أين رافعا بها صوته فقال الشاعر:

أين المفر وخيل الله في الطلب

وأين يذهب من في رأسه شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب

حدث عن الروم في أقطار اندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فاما أتم القصيدة قال عبد المومن بمثل هذا تمدح الخلفاء! وأنشدا:

سيد الاشبيلي الملقب باللص:

غمض عن الشمس واستقر مدى زحل

وانظر الى الجبل الراسي على جبل

أنسى استقر به؟ أنسى استقبل به؟

أنسى رأى شخصه العالي فلم ينزل

فقال له عبد المومن لقد اقلتنا يا رجل فأمر به فأجاس وأنشد محمد

ابن غالب البنسي المعروف بالرصافي:

لوجئت نار الهدى من جانب الطور * قبست ما شئت من علم ومن نور

لخ» هذا وغيره يفيدك بالخبر اليقين عن عناية الموحدين بالادب ويدلك على نشاط الحركة الادبية ونفاق سوقها في هذا العصر الزاهر حتى عمت البدو والحضر والعرب والبربر فاخصبت الافكار وتفتحت العقول وءاتت الاداب والفنون اكلها الشهي وثمرها الجنى. اما الفضل في ذلك كله فانه يرجع الى عبد المرمم وحده الذي عرف من اين توكل الكنتف فاستغل جميع عناصر الحياة التي كانت متوفرة في عهد الملوك المرابطين قبله، انما لم يعرفوا كيفية استخدامها ولم يترك من وسائل التشجيع واسباب التنشيط شيئا الا فعله واستحدث في ذلك اساليب خاصة به وكيفيات لم يتبع فيها احدا. ولعل ذلك راجع لما تلقفه عن استاذه ومربيه المهدي بن تومرت من انواع المعارف وفنون الاداب ولما تطور فيه من الاطوار واعبه من الادوار وما جر به بنفسه من تضاريف الدهر وتقلبات الزمان فليس ينكر انه استفاد من ذلك كله وانه في مدرسة الحياة هذه درس علوم الاجتماع والنفس باجمعها. غير اننا ان اعتبرناه هو منشيء هذه الحركة وموجدتها وصاحب الفضل الكبير فيها فلا ننسى ما بذله خلفاؤه الصالحون كيوسف ابنه ويعقوب المنصور ومحمد الناصر وغيرهم من اعقابهم واحفاده والامراء الموحدين الاخرين الذين كانوا مقيمين بالاندلس وافريقيا فان لهؤلاء ايضا فضلا كبيرا في قيام الحركة الادبية واستمرار تقدمها الى الامام. انما نحن في سائر تلك البلاد لا يهمنا الا المغرب اذ هو موضوع كتابنا هذا وقد وقفناك على مبدأ

الامر فيه فلنوقفك على منتهاه.

كان عبد المومن رجلا ثقفا حاذقا متحققا بكثير من فنون العلم والادب قد تلقف عن المهدي بن تومرت ما أتى به من المشرق وزادته الايام حنكة وتدريباً على الامور فجعلت منه ذلك العبقري الفذ الذي يندر ان يوجد الزمان بمثله الا في الفينة النادرة. ولقد استخدم مواهبه كلها في تثبيت مركز الدولة وتقريب مستقبلها الحفيل بالمعظائم حتى شاد لها ذاك العز المكين والفخر المبين الذي بقى ذكره مخلدا في بطون التواريخ. وكان هماما بكل معاني الكلمة لا يستعظم مطلباً ولا يستبعد غاية، ملوكياً، كما يقول المراكشي، كانه ورث الملك عن ابيه واجداده فلم يقصر نظره على امر خاص من أمور سياسة الدولة ولم يوجه عنايته الى ناحية واحدة من النواحي العديدة التي يتطلبها اصلاح المجتمع بل كان يقبل بكلية على كل امر جليل او حقير صغير او كبير فيرتق الفتوق ويرأب الصدوع ويتقن عملية المزج والتلقيح بين العناصر المختلفة والاجناس المتباينة. ولقد خص الاندلس قبل المغرب برعايته وحمايته وعرف مالا هاهنا من فضل ويدي في تقدم المعارف العامة واستخلص منهم صفوة الصفوة واختص بعلمائهم وقربهم من مجلسه وجعلهم بطانته واهل مشورته فافاد ذلك المغرب والمغاربة كثيراً

ولا نريد ان نطيل بالكلام على ما عمله اعقاب عبد المومن في هذا الصدد فما جئنا بنموذج ماعمله هو الا ليكون نموذجاً عاماً عن جميع

اعمال اعقابها خصوصا وقد تتبعوا خطاه وترسموا اثاره في ذلك ومن
لم يترد منهم على ماعمله هو في البر بالعلماء والعلم لم يقصر عنه اصلا غير
ان تاثير هذه البعثات العلمية او الوفود التعليمية اوما شئت فسمها لم
يبلغ من القوة في زمنه بحيث تظهر نتائجه لكل انسان ما بلغ في زمن
يوسف ابنه ويعقوب حفيده ومن بعدهما، اذ قد ازهر غرس عبدالمومن
واثمر بتعهد ابنائه له بالسقى والرعى فتفتحت الافكار وتنورت العقول
واتسعت المدارك وبلغ الشعب المغربي الى درجة عالية من الثقافة العلمية
حتى لقد استجلى المنصور ذلك واصبح مضطرا الى عدم الاستمرار في
مغالطة الشعب الناهض ببعض التعاليم والشعائر التي اتت بهما دولتهم
وكانت الغاية منها سياسية محضة، فتقدم بالغائها الى الشعب الذي
قابلها بمزيد الحماس لما كان باقيا على جهالته، ونبذ هانبا الذواة لما حصص
الحق وتبين الصبح لذي عينين على ان الغريب في امر هذه الدولة التي
راينا ما بذلته من جهود في خدمة الثقافة الاسلامية العربية وتقل الشعب
البربري من حضيض الجهل والجمود الى اوج المدنية والعرفان، هو اعتناؤها
الزائد بالبربرية وعدم نسيانها لها حتى بعد استقامة امرها ونجاح
مطلبها. فلقد بلغ من محافظتها عليها وتكريمها لاهلها ان حظرت كثيرا
من الوظائف الدينية على من لا يحسن الافصاح بها، بل عزلت الخطباء
وخطيب القروين نفسه من الذين ليسوا ببربر او ليسوا ممن يتكلمون
البربرية ثم ولت مكانهم من يضطلع بالمهمة المزدوجة وينطق اللغتين معا.

والحق ان هذا تصرف غريب وفي منتهى الغرابة، يجعلنا نقف امامه حائرين مشدوهين لانعرف سميلا الى التوفيق بينه وبين ما قدمناه من سهر الدولة على تعميم نشر العلم والثقافة العربية الاندلسية. اما المؤرخون فلم يذكر وا لنا السبب الحامل على هذه المهزلة التاريخية ولا كيف انتشر امرها ومتى. ونحن نستطيع ان نقول في قليل من التردد والحذر انه ربما كانت هذه احدى وصايا المهدي لعبد المومن وهي من بنود البرنامج الذي رسمه له عند وفاته ليواصل جهوده في القضاء على دولة المرابطين، بل ربما كانت من تقليد الموحدين الاعمى لابن تومرت واقتداءهم به في القائه دروسه بالعربية والبربرية وكتابته تأليفه باللغتين، فان يكن ذلك فانه من الاغلاط الفادحة والاطغاء الفاحشة وعجيب صدوده من عبد المومن العارف بصفات الامور ومقاديرها وامكنتها وازمنتها اذان الظروف التي اضطرت المهدي الى ذلك هي غير الظروف التي قامت فيها دولة عبد المومن وتمركزت. فابن تومرت كان مفتقرا الى حماية البربر له ومحتاجا الى ايديهم العاملة لمساعدته في القيام بنشر دعوته، وابن تومرت زيادة على ذلك قد بثت العربية في هذه الاوساط البربرية البحت وقد كان له مندوحة في الاقتصار على لغة القوم وجعلها هي اللغة الرسمية في جميع الاحوال، غير انه لم يفعل ذلك بل بث العربية ايضا ولم يستعمل البربرية الا بقدر الحاجة اليها والحاجة الشديدة فقط، اما عبد المومن فقد كان على الضد من ذلك كله اذ قد كان قد انتهى كل شيء واصبح وحده

صاحب النفوذ المطلق في البلاد بعد ان قضى على المرابطين واسس دولته المرحدية باسم الدين فلم لم يرسم لغة الكتاب ويستغنى بها عن غيرها ولم هذا التعصب للبربرية الذي ادى الى تنحية رجال الدين عن وظائفهم واحلال اخرين ربما كانوا اقل منهم ديناً واخلاصاً في محالهم؛ لانرى ما يسوغ لعبد المومن هذا السلوك الغريب، اللهم الا ان يكون احد امرين كلاهما يرجح صاحبه:

(1) فاما أن يكون مراده تحدي العرب بذلك ليتوسل الى ابعادهم عن مواقف الزعامة الدينية ومواطن قيادة الفكر العام خوفاً من انتقادهم عليه في يوم ما ونبذهم طاعته بالعراء، كما حدث بالفعل في أيامه، فقد ثاروا ضده مرتين، مرة في سلا بقيادة ابن هود ومرة في سبتة بقيادة القاضي عياض. ولا نرتاب في أن ثورة ابن هود كانت سياسية محضة لا تباعه خطة المهدي حذو القعدة بالقعدة أملاً في النجاح الذي حصل للمهدي، وقد ساعده الحظ في اول الامر وكتب له النصر في جميع المواقع حتى كاد يتغلب على علي كامل ممثلة عبد المومن الشاسعة، ويقول ابن ابي زرع انه لم يبق بيد عبد المومن الا مراكش فقط الا أن صاحب الحلل الموشية قال ان فاساً بقيت معه كذلك. ثم دارت عليه الدائرة وتمكن عبد المومن من اخماد ثورته ورجع الامر الى نصابه.

وأما ثورة القاضي عياض فقد كانت مزيجاً بين دينية وسياسية ولكنها دينية أكثر منها سياسية، إذ أن أهل سبتة قاوموا الموحدين

اولا نزوعا منهم عن الخضوع لسلطة بدعية تعتقد في الامام والمصمة ما ينكره أهل السنة الذين كان عياض من زعمائهم فهذه وجهة نظر عياض ومن كان معه من العلماء السنيين ايضا. ولكن لما سقطت كل البلاد المغربية في حوزة الموحدين لم يبق لهم الا التسليم طوعا او كرها وهو الذي كان ثم لما حدثت ثورة ابن هود اغتتم القوم الفرصة فأعادوا الكرة استينافا لتأييد رأيهم الاول وتحديا لسلطة الموحدين التي رأوا منها انحرافا ظاهرا عنهم ولربما اشتموا منها رائحة الغدر بهم وقد اضطروا أخيراً الى التسليم ايضا وتشتت شمل القائمين بالثورة وتربص ببعضهم حتى توفي حنف انفه.

(2) وأما ان يكون اراد استرضاء البربر بذلك واستبقاءهم على حالهم الاول من جهة اخرى اذ كان قد تقرر عندهم انهم اهل التوحيد الحق والاسلام الصحيح وغيرهم مبتدعة ومقلدون لا يصح الاقتداء بهم كما لا يصح ان يقفوا مواقف الوعظ والارشاد ليلا يريدوا العامة ضلالا على ضلالهم. وهو من هذه الناحية ان كان يعتقد بخلاف ذلك وان هذا من تشديدات ابن تومرت فقط: قد اراد مراوغتهم وعدم اظهار شيء من نواياه والا فيكون قد اتخذهم تكأ يستند اليها في اقامة سلطانته ببيت المذهب الامامي في الناس. ومعلوم ان ليس من يقرره للعامة ويبينه لهم الا البربر الذين تلقوه عن صاحبه مباشرة، اذ كانت اكثرية الرعية وجل اهل العلم ان لم تقل كلهم في البلاد سنيين لا يرضون

الحركة العلمية

كانت نهضة عبد الله بن ياسين دينية محضة، وعى اساسها قامت دولة المرابطين فلم تعن بغير رجال الدين ولم تختص بمن عداهم من ارباب المعارف المتنوعة رغم ما صار اليها من جيوش العلماء والفلاسفة والمتأدبين من جراء فتح الاندلس وضمها الى الايالة المغربية، ولم يكن يطمع هؤلاء في القرب من الدولة قرب خطوة الا ان يتلبس احدهم بلباس الفقهاء وعلماء الفروع كما فعل ملك بن وهيب فرقى الى منصب وزير لعلي بن يوسف، وكل من انف منهم ان يخرج عن طوره ويتربا بغير زيه يبقى قابعا في كسر بيته منزويا عن الدائرة السلطانية من قلة الرغبة فيه. انما حاول بعضهم ان يداخلوا الامراء اللاتونيين الذين كانوا يفدون على الجزيرة ويتولون اعمالها وكان الادباء يقدمون اليهم غالي المدائح ونفائس منتجات القرائح مما تجد الشيء الكثير منه في قلائد الفتح بن خلقان وغيرها بل ان القلائد نفسها انما الفت باسم الامير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين، لكن سداجة اوليك الامراء وغلبة الطبع البربري عليهم وقصر مدة حكم المرابطين على الاندلس، كل ذلك حال دون تأثرهم بالثقافة العربية وتذوقهم للحضارة الاندلسية حتى يمكن ان يكونوا رسل التوفيق بين نظرية الدولة ونظرية رعاياها الاندلسيين.

كانت هذه حال الدولة المرابطية ازاء المعارف والفنون وكل المؤرخين يتفقون على ذلك، ويذكرون انه لما قام المهدي بن تومرت بنشر دعوته

في انحاء المغرب لم يكن بفاس ومراكش وغيرهما من يقوم في وجهة ويلزمه الحجة وينقض دعاويه لأنه كان قد تشقف بفنون العالم والمنطق والكلام في المشرق وهذه العلوم كانت لا توجد بين اهل المغرب ولا يحفلون بها. ولما جمع علي بن يوسف بينه وبين علماء حضرته للمناظرة لم يكن من الصعب عليه ان يسكتهم جميعا ويوقعهم في الخجل حتى ان امير المسلمين نفسه اعجب به وكان اعجابه هذا هو السبب في عدم اذايته ومسه بسوء، غير ان وزيره بن وهيب السالف الذكر وكان قد شارك في ضروب من المعارف والفنون الا انه لم يكن يظهر منها الا ما ينفق في زمنه، لما سمع كلام بن تومرت استشعر حدة نفسه وذكاء خاطره واتساع عبارته فاشار على امير المسلمين بقتله وقال هذا رجل مفسد لا تومن غائلته ولا يسمع كلامه احد الا مال اليه وان وقع هذا في بلاد المصامدة نار علينا منه شر كثير (المعجب وذلك لفظه).

هذه السداجة في الملك وهذا الاصطناع انواع خاص من العلوم الذي يبدو لاول وهلة جمودا وتنطعا في الدين، كان يزينه وصف شريف ومظهر مؤثر جذاب، هو تشبعه بالروح السلفي الخالص من شوائب الزيف والالحاد وعدم مجاوراته للخلافات المذهبية والبدع والاهواء التي كانت حينذاك تنخر في جسم الوحدة الاسلامية بالشرق... فالعقائد ابسط ما يكون وقواعد الاسلام وشعب الايمان كما بينت في حديث جبريل والزهد والتشف هما شعار الدولة وطائهما الخاص.

واعتبر انت بامير المسلمين علي بن يوسف وما كان عليه من متانة الخلق وقوة الايمان وصدق اليقين والانقطاع الى العبادة قبل ما تنظر الى ابيه العاهل الكبير وهو يعمل مع الخدمة في بناء جامع مراکش ويحمل الطوب والحجر بيده وعلى كاهله الى البنائين ويريد المؤرخون انه كان صائما كل تلك المدة. كما انك تريد ايماننا بصدق هذه النظرية وربما وصلت الى حد الاعجاب بمبلغ البساطة الدينية التي كان عليها هؤلاء القوم، اذا علمت ان كتاب الاحياء للغزالي لما وصل الى المغرب وتداولته الايدي نظر فيه اولئك الفقهاء فأروه محشوا بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين ومذاهب الصوفية مما لم يحسبوه من الاسلام في شيء فقرروا كلهم وفيهم علي بن حرزهم صاحب الضريح المزار خارج باب الفتوح بفاس، وجوب طرحه ونبذه بالعراء فما كان من دولتهم الا ان جمعته واحرقته وشددت على من اخفى ولو نسخة واحدة منه فلم تعتبر موالاته الغزالي لدولتهم ولم تنظر الى المودة التي كانت بين يوسف وبينه والمكاتبات التي جرت بينهما والثناء الذي كان يثنيه الغزالي على يوسف حتى لقد هم بزيارته وقصد الشام ليركب البحر اليه فبلغه موته فرجع. اللهم ان هذا هو اليقين الصادق والايمان النافع، لا نقول هذا تاميناً على فعلهم بكتاب حجة الاسلام وارتقاء الرايهم فيه بل انما اعجابنا بروح البساطة الاسلامية الذي كان منبثاً فيهم وتحمسهم الشديد لرجال الفقه والدين. تلك هي وجهة نظر الفقهاء بل الهيئة العلمية في المغرب ايام حكم

المرابطين، وأنت ربما رايت فيها شذوذا وانحرافا عما آلت اليه الحال في زمن الموحدين فتستغرب جمعنا بين الشيئين المختلفين في نسق واحد، انما نحن لا نرى في ذلك أي اختلاف فهذه الحركة كانت هي الحجر الاساسي في بناء النهضة الموحدية، اذهذا التطب في المعارضة والاقبال على العلم ولو الديني فقط بهذه السكيلة هو الذي دفع بالناس الى حب البحث والاطلاع وادى الى الاحتكاك بالاندلسيين والنقل عنهم، وكما أن العرب في الصدر الاول أيام حكم الامويين بقوا على السذاجة البدوية والقطرة الاسلامية ولم يعنوا بغير شؤونهم السياسية والدينية وكانوا يتهيئون بطبيعة الحال للدخول في غمار المدنية العباسية ويستعدون لها بمختلف العدد والاعداد، فكذلك البربر في العصور التي سلفت كانوا يتهيئون لهذا العصر الموحدى الزاهر فما ان اقبلت تباشيره وأناخت ركائبه حتى أخذ كل شيء اتجاهه وجرت الامور في مجاريها الطبيعية حثيثة السير نحو التقدم والكمال

فأما هذه الفروع فقد بقي الاشتغال بها كما كان في عهد المرابطين بل ربما زاد وانما دخلت في طور جديد واكتست صبغة فنية لم تكن لها من قبل حيث قد استجد من العلوم الآلية ما ساعد على تطويرها وتدرجها في مراقبي التحسين والتنظيم ومال أهلها الى الترجيح والتأويل ونبذوا التعصب لائمتهم ومشايخهم وجعلوا البحث والظفر رائد لهم في معرفة الحقائق وتقرير الاحكام. فغير انه لم يبق الاقتصار عليها فقط، بل شارك

الناس في علوم اخرى وتفرغت الهمم الى علم الاصول حيث قد وجدوا من الدولة الجديدة ميلا اليها وتعصيда لحملتها لكن بدون أن تحملهم عليها حملا وتلزمهم بها قسرا بل تركت لهم الحرية في الاشتغال باي قروع العلم شاءوا والاقبال على أي فنون المعرفة أرادوا حتى اشتط يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين وتصلب في تنفيذ خطة ابن تومرت ومحاربة علم الفروع قصد الاجهاز عليه فأحرق كتب المذهب وعوضها بالصحيح العشر والمتخب الذي اختاره منها. ويقول المراكشي في هذا الصدد: «وفي ايامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد ان يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ففعل ذلك فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادير ابن ابي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونجا نحوها، لقد شاهدت منها وانا يومئذ بمدينة فاس يوتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار وتقدم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وامر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع احاديث من المصنفات العشرة الصحيحين والترمذي والموطا وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسنده ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة فاجابوه الى

ذلك وجمعوا ما امرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس وياخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنني من الكسا والاموال وكان قصده في الجملة محو مذهب ملك وازالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القراءان والحديث وهذا المقصد بعينه كان مقصدا بيه وجده الا انهما لم يظهر اه واطهره يعقوب هذا. يشهد لذلك عندي ما اخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ ابا بكر بن الجدا انه اخبرهم قال لما دخلت على امير المؤمنين ابي يعقوب اول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا أبا بكر أنا انظر في هذه الآراء المتشعبة التي احدثت في دين الله أرايت يا أبا بكر المسالة فيها اربعة اقوال أو خمسة اقوال أو أكثر من هذا فأني هذه الاقوال هو الحق وأيها يجب ان ياخذ به المقلد فافتتحت ابين له ما اشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي يا أبا بكر ليس الا هذا و اشار الى المصحف او هذا و اشار الى كتاب سنن ابي داود وكان عن يمينه او السيف فظهر في ايام يعقوب هذا ما خفي في ايام ابيه وجده وانتهى امرهم معه الى ان قال يوما بحضرة كافة الموحدين يسمعونهم وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه اياهم وخلوته بهم دونهم يامعشر الموحدين انتم قبائل فمن نابهم منكم أمر فرع الى قبيلته وهؤلاء يعني الطلبة لا قبيل لهم الا انا فمهما نابهم امر فانا ملجأهم والى فرعهم

والى ينتسبون فعظم منذ ذلك اليوم امرهم وبالغ الموحدون في برهم
واكرامهم» فمن هنا تعلم ان الحالة بقيت كما كانت في ايام المرابطين
طيلة مدة حكم عبد المومن وابنه يوسف الى ايام المنصور، اما ان هذا
كان مقصد ابيه وجده فهو مما لا شك فيه بل انه كان مقصد ابن تومرت
بالاصالة وقد عمل عليه ودعا اليه في دروسه وكتبه الا انه لم يكن صارما
في ذلك مثل المنصور.

وعلى ما يبدو في فعل المنصور هذا من تضيق خناق الحرية العلمية
وتقييد ارادة الشعب فانه قد افاد العلم من الوجهة العامة فائدة جلى
حيث قد انصرف الناس عن البحث في علم الفروع الذي كان قد اتسع
واستطال الى حد ان اصبح لا يمكن الاثام به في السنين المتطاولة
وانقطع البعض الى دراسة الاصول والبعض الاخر الى العلوم الادبية
والبعض الى العلوم الحسكية وهكذا. فانتشر الحديث وكثرت روايته
بالمغرب واقبل الناس على الاخذ عن رجاله الذين كانوا مطرحين في
زوايا الاهمال، كذلك انتشر التفسير ونبع المفسرون العديدون وعكف
الناس على تفهم كلام الله ودراسته دراسة علمية صحيحة. والتصوف لم
يبق يعد منكر الاكذي قبل ولم يبق للفقهاء على اهله تلك الصولة فظهر
جماعة من الصوفية الكمل وانبثت مذاهبهم المختلفة في الناس. وكذا
الكلام لم يدانه أي علم احر في الانتشار فقد كان ابن تومرت يلزم
به اصحابه الزاما وكان الموحدون يعدون من لم يعرف العقائد بدلائلها

على سبيل التفصيل وعلى طريقة الاشعري بالاخص، يعودنه كافر اليس معه من الاسلام الا الاسم. وألف المهدي لاصحابه عقائد مختصرة ومطولة باللسانين العربي والبربري فتأثر الناس خطاه بعد ذلك وصنفوا وشففوا ونشروا ونظموا وكان من اطولهم يداوا حسنهم عارفة في هذا السبيل عند العامة الشيخ ابو حفص عمر بن عيسى السلاجي. انما قد شيب صفو هذا العلم في اوائل ايام الموحدين بما اضافوه اليه من تعاليم الشيعة جريا وراء ما كان يذهب اليه ابن تومرت من ذلك فكان الاعتقاد بالامام وعصمته شائعا في ذلك الوقت وكانت الخطب على منابر المغرب والاندلس وافريقية التي تنيف على الفتي منبر لا تختتم عادة الا بهذا اللفظ «وارحم الله الامام المعصوم المهدي المعلوم» حتى تقدم بمنع ذلك يعقوب المنصور كما سبقت الاشارة، فكانت حسنة من حسناته الكبيرة وكفارة عن جميع ما يؤخذ عليه بشأن العلم. وعلى كل حال فلم ينتشر علم التوحيد على ما نفهمه منه حين اطلاق هذا الاسم الا في زمن الموحدين. ومثله علم اصول الفقه فقد تبوأ من بين العلوم في هذا العصر مكانا عاليا ووجد من القرائح المغربية خير معين على نموه وكماله. وهذان الفرعان من العلم مما نقله المغرب عن المشرق وانتفع به كثيرا فقد زال ذلك النزاع الشديد الذي كان بين الفقهاء وعلماء الفروع وبين المتصوفة وعلماء الكلام والذي كان يحمل بعض الفقهاء على ان يقول مثل هذه المقالة المنقولة من كتب الحلال والحرام، لراشد الفاسي. قال

فيه: «سمعت من ابي محمد عبد الله بن موسى الفشتالي ان التائب اذا اقتصر على ما عند علماء الشريعة اولى واسلم له بل لا يجوز اليوم اتخاذ شيخ لسلوك طريق المتصوفة اصلا لانهم يخوضون في فروعها ويهملون شروط صحتها وهو باب التوبة اذ لا يصح بناء فرع قبل تأسيس اصله وسمعت يقول لو وجدت تأليف القشيري لجمعتها والقيتها في البحر. قال وكذلك كتب الغزالي. وسمعت يقول اني لاتمنى على الله ان اكون يوم الحشر مع محمد بن محمد بن ابي زيد لا مع القشيري والغزالي بل مع ابي محمد يشكر فذلك اكثر امنا لي على نفسي» على ان الغريب في هذا الامر هو ان هذه الكتب التي كانت تعدم وتحرق، لا تلبث ان تحيي وتروج ايضا. وهذه الاحياء، الم يحرفها علي بن يوسف؟ فكيف عادت الى الظهور اذ لا شك انها المعنية في كلام الفقيه الفشتالي لا كنا نعلم ان هناك نسخة بقيت بيدي ابي الفضل ابن النحوي الذي تمسك برأيه المخالف لرأي الفقهاء فيها وابي تسليمها وقبل ان ينتزل عن جميع كتبه ما عداها فابقتها الحكومة المرابطة بيده فليس ببعيد ان يكون هذا الاصل هو الذي استنسخت الاحياء منه ثانيا ولكن المدونة وكتب المذهب الاخرى التي لا نعلم انه ابقى على نسخة واحدة منها كيف عادت بعد قليل الى الظهور وانتشرت بهذه الكثرة الزائدة؟ ونجيب عن هذا السؤال ايضا بانه في هذا العصر كان جل الاعتماد على الحفظ والاستظهار فبعد حرق هذه الكتب لم يصعب على الناس ان يجدوا

من يستظهرها بنفطها فكتبت عنه. وهذا الشيخ ابو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي الفاسي الفقيه الحافظ المحصل المتوفي سنة 623 يذكر المؤرخون في ترجمته ان المدونة كتبت من حفظه بعد ان احرقها الموحدون



هذا ملخص الخبر عن حركة العلوم الدينية في هذا العصر، وتقول الآن كاهتنا في العلوم الادبية متوخين الايجاز ما امكن :
يراد بالعلوم الادبية ما يشمل النحو واللغة والعروض والبيان والتاريخ والسير. ولا مشاحة انها لم تنتشر الا في هذا العصر ضرورة ان طبيعة الاجتماع في العصر السابق لم تكن تقتضيها كلا او بعضا على ما في علمك من ذلك. واذا قلنا بانتشارها النسبي فلا شك انه لم يصل الى حد التدوين وهذا في غير تلك الولاية الشمالية التي كانت في الغالب تابعة للاندلس ان لم يكن سياسيا وادبيا فادبيا على الاقل ونعني بها سبتة. فلما دالت الدولة للمغرب، لم يكن بد من سيطرة النوايس الاجتماعية عليه فتعدل وضعيته الشاذة وتعالج طبيعته المنحرفة. وقد اصبح المغربي منذ اهاب به عبد الله بن ياسين يشعر بواجباته العديدة تجاه نفسه وخالقه والناس فدخل في طور جديد من الحياة السعيدة حياة الشعور والعمل. وما لبث ان فتح افريقية والاندلس فبقى قليلا تحت رعاية رجال الدين الذين نموا فيه من الاخلاق الزاكية حب المعرفة

والاستقامة. ثم ازيلت الحواجز ورفعت الستور بينه وبين جاره الاندلسي
فتطلع الى ما عنده من مدنية وعرفان وهب يقتبس من ذلك بقدر الامكان.
ومن ذلك هذه العلوم فقد توجه اليها بكلية وخصها بكثير من
عنايته فضبطها ضبطا كافيا وأتقنها اتقا لا يقل عما لدى اساتذته الذين
تلقاها عنهم. وما عثم ان نبغ منه النحوي الكبير واللغوي الشهير والمؤرخ
الخطير، ممن طبق صيتهم الاقطار وما زال ذكرهم مقرونا بالفخار كابن
معطي صاحب الالفية في النحو التي عمل ابن مالك الفيتية على مثالها
وابي موسى الجزولي صاحب المقدمة النحوية الشهيرة والقاضي عياض
صاحب كثر من الكتب الادبية واللغوية كمشارك الانوار الذي قيل فيه:
مشارك انوار تبدت بسبته ومن عجب كون المشارق بالغرب
فاجيب هذا القائل:

وما فضل الاقطار الارجالها والا فلا فضل لترب على ترب
في كثير من امثال هؤلاء ممن يعدون من علماء العربية ومصنفي الاداب
العموميين. وفي هذا القدر دليل كاف على انتشار هذه العلوم بما
فوق الكفاية

* * *

واما العلوم الحكمية فانها انتشرت انتشارا كبيرا لم تبلغه في أي
عصر آخر حتى لقد كان هذا عصرها الذهبي في المغرب، وكان الموحدون
والحق يقال أشبه الدول الاسلامية بالعباسيين في الاخذ بوضع هذه العلوم

وتنشيط رجالها، لكن اربى عليهم في ذلك كباراء المأمون على سائر
العباسيين، يوسف بن عبد المومن فهو مامون هذه الدولة السني ناصر
علوم الفلسفة ووالى أهلها وكان هو بنفسه متحققا بكثير من أجزائها
مشاركاً في جملة من فنونها ويقول المراكشي انه استظهر من الكتاب
الطبي الملكي أكثر مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ثم تخطى ذلك
الى ما هو اشرف منه من انواع الفلسفة. وكان ممن صحبه من العلماء
المتفنيين ابو بكر محمد بن طفيل احد فلاسفة الاسلام، له تصانيف في
انواع الفلسفة من الطبيعيات والالاهيات. وكان ياخذ الجامكية مع عدة
اصناف من الخدمة من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة
والاجناد الى غير هؤلاء من الطوائف. قال المراكشي: «وكان امير المومنين
ابو يعقوب شديد الشغف به والحب له. بلغني انه كان يقيم في القصر
عنده اياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر». ثم قال: «ولم ينزل ابو بكر هذا يجلب
اليه العلماء من جميع الاقطار وينبهه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه
بهم، وهو الذي نبهه على ابي الوليد ابن رشد فمن حينئذ عرفوه ونبه
قدره عندهم اخبرني تلميذه الفقيه الاستاذ ابو بكر بندود (كذا) بن
يحيى القرطبي قال: سمعت الحكميم ابا الوليد يقول غير مرة لما دخلت
على امير المومنين ابي يعقوب وجدته هو وابو بكر بن طفيل ليس
معهما غيرهما فاخذ ابو بكر يشني علي ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضل
الى ذلك اشياء لا يبلغها قدرى. فكان اول ما فاتحني به امير المومنين

بعد ان سالني عن اسمي واسم ابي ونسبي ان قال لي ما رايتهم في اسماء
يعني الفلاسفة اقديمة هي ام حادثة؟ فاذا ذكرني الحياء والخوف فاخذت
اتعلل وانكر اشتغالي بالفلسفة ولم اكن ادرى ما قرر معه بن طفيل ففهم
امير المؤمنين مني الروع والحياء فالتفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على
المسألة التي سالني عنها ويذكر ما قاله ارسطو طاليس وافلاطون وجميع
الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليهم فرايت منه غزارة
حفظ لم اظنها في احد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ولم ينزل
يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك فلما انصرفت امر لي بمال
وخلة سنية ومركب. قال واخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال
استدعاني ابو بكر بن طفيل يوما فقال لي سمعت امير المؤمنين يشتكى
من قلق عبارة ارسطو طاليس او عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض
اغراضه ويقول لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب اغراضها بعد
ان يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها علي الناس فان كان فيك فضل قوة
لذلك فافعل واني لارجو ان تقى به لما اعلمه من جودة ذهرك وصفاء
قربحتك وقوة نزوعك الى الصناعة وما يمنعي من ذلك الا ما تعلمه من
كبرة سني واشتغالي بالخدمة (كان وزيرا ليوסף) وصرف عنايتي الى
ما هو اهم عندي منه قال ابو الوليد فكان هذا الذي حملني على تلخيص
ما لخصته من كتب الحكيم ارسطو طاليس.

هذا ماعمله يوسف بن عبد المومن في سبيل تقدم هذه العاوم

بمملكته وهالك ما عمله ولده يعقوب المنصور ممثلا في عنايته الفائقة بفد
من افذاذ هذه الطبقة: فحكى المؤرخون ان الطيب ابا بكر بن زهير كان
ملازما له ومختصا به وكان يقيم عنده الممدد الطويلة ولا يرخص له في
السفر الى رؤية اهله وصلة الرحم بذويه وقرباه حتى قال يوما يتشوق
الى ولد له صغير:

ولي واحد مثل فرخ القطا	صغير تخلفت قلبي لديه
وأفردت عنه فيما وحشتي	لذاك الشخيص وذاك الوجيه!
تشوقني وتشوقته	فيكي علي وابكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا	فمنه الى ومنى اليه

فسمعا المنصور فارسل المهندسين الى اشبيلية وامرهم ان يحتاطوا
علما ببيوت ابن زهير وحارته ثم بنوا مثلها بحضرة مراکش ففعلوا ما
امرهم في اقرب مدة وفرشها بمثل فرشها وجعل فيها مثل آلاته ثم امر
بنقل عيال بن زهير واولاده وحشمه واسبابه الى تلك الدار ثم احتال
عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرأه اشبه شيء ببيته وحارته فاحتار
لذلك وظن انه نائم وان ذلك احلام فقبل له ادخل البيت الذي يشبه
بيتك فدخله فاذا ولده الذي تشوق اليه يلعب في البيت فحصل له من
السرور مالا مزيد عليه ولا يعبر عنه، فهل سمع بمثل هذا الامر في اكرام
العلم والعلماء او بقيت بعد هذا غاية في ذلك السبيل؟

ولا تقصر الهمة الموحدية عن اختها العباسية زيادة على ذلك في

التنقيب عن الكتب النادرة وطلب المؤلفات الغريبة من سائر الجهات حتى لقد جمع يوسف بن عبد المومن الالوف المؤلفات منها وكانت مكتبته تضاهي مكتبة الحكم المستنصر بالله الاموي. وقد اورد في المعجب هذه الحكاية التي تدل على ما كان يبذله في هذا السبيل من الترضيات الكبيرة. قال: «اخبرني ابو محمد عبد الملك الشذوني احد المتحققين بعلمي الطب واحكام النجوم قال كنت في شببتي استعير كتب هذه الصناعة يعني صنعة الاحكام من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى ابا الحجاج يعرف بالمراني بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في ايام الفتنة بالاندلس فكان يعيرني اياها في غرائر احمل غرارة واجيء بغرارة من كثرتها عنده فاخبرني في بعض الايام انه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فاسر الى ان خبرها انه ي الى امير المؤمنين فارسل الى داري وانا في الديوان لا علم عندي بذلك وكان الذي ارسل كافور الخصى مع جماعة من العبيد الخاصة وامره ان لا يروع احدا من اهل الدار وان لا ياخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه اشد الوعيد ان نقص اهل البيت ابرة فما فوقها فاخبرت بذلك وانا في الديوان فظننته يريد استصفاء اموالي فركبت وما معي عقلي حتى اتيت منزلي فاذا الخصى كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه. فلما رءاني وتبين ذعري قال لا بأس عليك واخبرني ان امير المؤمنين يسلم علي وانه ذكرني

بخير ولم ينزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال لي اهل بيتك هل راعهم احدا ونقصهم شيء من متاعهم فسألتهم فقالوا لم يرعنا احد ولم ينقصنا شيء جاء ابو المسك حتى استاذن علينا ثلاث مرات فاخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه الى خزانة الكتب فامر باخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع. وولوه بعد اخذهم هذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه.

وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لا يولاها الا من ومن لان امرها عظيم لديهم. وممن ولى النظر فيها ايام يوسف بن عبد المومن القاضي ابو محمد بن الصقر، وكان من احسن العلماء نظرا في كثير من الفنون. فقام عليها اتم قيام واستنسخ لها كثيرا من المجلدات الضخام وكان كلما بالغ في النصيحة والخدمة كلما بالغوا له في العطايا والهبات. فهذا وغيره مما اغفلناه فضلا عما جهلناه يعطيك صورة واضحة لما كانت عليه هذه العلوم من الرواج والانتشار في عصر الموحدين الذين لم يالوا جهدا في البر برجالها والاحسان اليهم. ولا تنس المنة التي طوفوا بها عنق العالم المتمدين بانتشالهم الفيلسوف ابن رشد من وهدة الخمول واحلاله في المحل اللائق به فقد علمت انهم الحاملون له على تلخيص فلسفة الاقدمين كما روى المراكشي عنه. وان كانت بدت من يعقوب المنصور في حقه نزوة فان ذلك لا يقدر في موقف الدولة كلها ازاء رجال العلم، على انه هو نفسه تدارك ما فات وعاد فاصالح ما افسده

خصوصا وقد كان سبب امتحانه له سياسيا محضا كما فصل ذلك المؤرخون
فانه في شرح كتاب الحيوان لارسطو طاليس لما ذكر الزرافة وصفها
وقال « وقد رايتها عند ملك البربر بمراكش فلما بلغ ذلك يعقوب حقد
عليه ثم ان اعداء ابن رشد وجدوها فرصة مناسبة فاغروا المنصور عليه
واتخذوا اشتغاله بالفلسفة ذريعة الى ذلك فرفعوا اليه رقعا فيها ما
يقتضي الكفر والمروق والفرطقة مثل ما كان في احداها حاكيا عن
الفلاسفة اليونان: « فقد ظهر أن الزهوة احد الآلهة » في اشباه لذلك
فاستدعاه المنصور واوقفه عليها وقال هذا خطك فانكر فامر باخراجه من
عنده وطرده ولغنه الحاضرون ثم ندم بعد ذلك على ما صدر منه وارسل
يستدعيه فجاء واعتذر اليه واكرمه وبقي عنده حتي مات بمراكش رحمه
الله. وقد كان له مندوحة عن وصف ولي نعمته بملك البربر، وهو في
الحقيقة ليس ملك البربر فقط، ولا كن للسان عشرات!

وفي ايام المنصور هذا استبحر العمران بالمغرب وزهت الحضارة
وتقدم فن المعمار بتقدم حركة البناء، اذ بنى المنصور مدينة رباط الفتح
الفيحاء وجامع ابن يوسف الفخم بمراكش ومنار الكتبية العظيم بها
ومنار حسان الضخم بالرباط ومنار الخير الدة بأشبيلية الذي هو من اعاجيب
الدنيا. وانشأ في جامع ابن يوسف المقصورة والمنبر « الاتوماتيكين » وكانا
موضوعين على حركات هندسية بحيث يبرزان لدخوله دفعة واحدة
ويغيبان لخروجه كذلك. وكانت هذه المقصورة كبيرة تسع اكثر من الف

رجل كما عند صاحب الحلال. والذي صنعهما هو الحاج يعيش المهندس الذي بنى جبل الفتح لعبد المؤمن. وقد أعجب الأدباء وصفها حتى قال ابن مجير فيها قطعه الخالدة:

طورا تكون بمن حوته محيطة * فكأنها سور من الاسوار
وتكون طورا عنهم مخبوءة * فكأنها سر من الاسرار
وكانما علمت مقادير الورى * فتصرفت لهم على مقدار
فاذا احست بالامير يزورها * في قوميه قامت الى السوار
يبدوا فتبدوا ثم تخفى بعده * كتكون الهالات للاقمار

فطرب المنصور لسماعها ولم يرض بما قيل في مقصوده غيرها.
ومما حلى به المنصور جيد اعماله التمدينية ورصع تاج الحضارة المراكشية
المستشفى العظيم الذي يقول صاحب المعجب عنه: «ما أظن في الدنيا
مثله» وناهيك بها شهادة من رجل جاب الاقطار واخترق الامصار وهاك
صفته نقلا عنه:

«وبنى بمدينة مرا كش مارستانا ماظن ان في الدنيا مثله، وذلك
انه تخير ساحة فسيحة باعدل موضع في البلد وامر البنائين بانقانه على احسن
الوجوه فانقنوا فيه من النفوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على
الاقتراح وامر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار والمشومات
والماكولات واجرى فيها مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على
اربع برك في وسطه احداها رخام ابيض ثم امر له من النهرش النفيسة من

انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف
ويأتي فوق النعت واجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام
وما ينفق عليه خاصة خارجاً عما جلب اليه من الادوية واقام فيه من
الصيدلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال واعد فيه المرضى ثياب ليل
ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان كان فقيراً امر
له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وان كان غنياً دفع اليه ماله
وتركه وسببه ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض
بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى ان يستريح او يموت وكان
في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسال عن اهل
بيت اهل بيت يقول كيف حالكم وكيف القومة عليكم الى غير ذلك من
السؤال لم ينزل مستمر اعلى هذا الى ان مات رحمه الله »

وفي هذه القطعة دليل على تقدم علم النبات و الفلاحة فضلاً عن الطب
والكيمياء، وبستان المسرة اعظم دليل على ذلك. وهو بستان احده عبد
المومن بضاحية مراكش، طوله فيما يقول ابن عذاري وصاحب الحل
ثلاثة أميال وعرضه قريب من ذلك. وكان فيه كل فاكهة تشتهي. وجلب
اليه الماء من اغمات زيادة على ما استنبط له من العيون الكثيرة. وأنشأ
فيه صهريجاً واسعاً كالبحيرة كان يمرن فيه الجنود وشيوخ الموحدين
على العوم والتجديف كما في الحل. وهذا الصهريج هو المعروف بالمنارة
الكائن في اكدمل مراكش. قال ابن اليسع وما خرجت انا من مراكش

في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة الا وهذا البستان الذي غرسه عبد المومن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مونية على رخص الفاكهة في مراکش. قال الناصري: «ودعاه ابن عذراي ببستان المسرة وقال انه بظاهر جنان الصالحة. ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون:

ياجرادة مالحة، اين كنت سارحة، في جنان الصالحة في اسجاع غير هذه تجري على السنة الصبيان.» ولا زال هذا النشيد (القومي) مرويا عند الصغار حتى الآن.

ثم بعد هذا لانخال القول بتقديم الصنائع النفيسة والفنون الجميلة كالنقش والترويق وعمل الفسيفساء والمقربص الاخبار بما عوم فقد رايت ما كان بها من الاهتبال وعليها من الاقبال حتى انهم لم يخلوا منها المستشفى الذي انشئ لغير من يهملهم امرها من المرضى. ولاكن الغاية في هذا الباب هو ما عمله عبد المومن في تحلية المصحف العثماني الامام. وقد كتب في ذلك وزيره ابن طفيل رسالة بديعة نرى انفسنا مضطرين الى نقل ما يتعلق منها بهذا الغرض. قال بعد ان استهلها ببيان كيفية وصوله الى عبد المومن بطريق الهدية من اهل قرطبة بعد ان تعلق به نفسه جد التعلق لاكنه ابي ان يسلبهم تلك الذخيرة الثمينة ويوحش انفسهم بفقده حتى جادوا به بمحض اختيارهم طيبة به انفسهم:

«ثم انهم ادام الله سبحانه تايمدهم، ووصل سعودهم، لما ارادوا من

المبالغة في تعظيم المصحف المذكور، واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزير، شرعوا في انتخاب كسوته، واخذوا في اختيار حليته، وتأنقوا في استعمال احفظته، وبأنقوا في استجادة اصوته فحشروا له الصناعات المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية، وسائر بلادهم القريبة والقصية، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظاميين والحلائين والنقاشين والمرصعين والتجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ولم يبق من يوصف ببراعة، وينسب الى الحذاق في صناعة، الا احضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه، فاشتغل اهل الحيل الهندسية بعمل امثلة مخترة، واشكال مبتدعة وضمودها من غرائب الحركات، وخفي امداد الاسباب للاسباب، مابلغوا فيه منتهى طاقتهم، واستفرغوا فيه جهد قوتهم، والهمة العلية ادام الله سموها تترقى فوق معارفهم، وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء مواجهم، وتنيف على ماظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم، فسلكوا من عمل هذه الامثلة كل شعب. ورأبوا من منتشرها كل شعب، واشرفوا عند تحقيقها وابرار دقيقتها على كل صعب، فكانت منهم وقفة كادت لها النفوس تياس عن مطلبها، والخواطر تكرر راجعة عن خفي مذهبها، حتى اطاع الله خليفته في خلقه وامينه المرتضى لاقامة حقه، على وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها، وتخلصت اشكالها عن الاعتراض على احسن وجوه خلاصها، القوا ذلك ايدهم الله بنصره،

وامدهم بمعونته ويسره، الى المهندسين والصناع فقبلوه احسن القبول
وتصوروه باذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول فوق فهم حسن تنبيهه
مما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم، وعلموا ان الفضل
لله يوتييه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وسياتي بعد هذا اشارة الى
تفصيل تلك الحركات المستغربة والاشكال الموثقة المعجبة، مما صنع المصنف
العظيم من الاصونة الغريبة والاحفظة العجيبة، انه كسى كله بصوان
واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه
بعضها بعضا قد اجرى فيه من الوان الزجاج الرومي ما لم يعهد له في
تلعصر الاول مثال، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال، وله مفاصل
اجتمع اليها اجزأؤه وتلتئم، وتناسق عندها عجائبه وتنظم، قد اميلت
للتحرك اعطافها، واحكم انشاؤها على البغية وانعطافها، ونظم على صحتها
وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدر وعظيم الزمرد ما لم تزل الملوك
انسالفة والقرون الخالية تتنافس في افراده، وتتوارثة على مرور الزمن
وثر داده، وتظن العزلاقس والملك الانفس في ادخاره واعداده، وتسمى
الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه في صنعه واتحاده، فانتظم
عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تألأئه واتقاده، واشبهه الروض
المنزخرف غب سماء اقلعت عن امداده، واتي هذا الصوان الموصوف
رائق المنظر، اخذنا بمجامع القلب والبصر، مستوليا بصورته الغريبة
على جميع الصور، يدهش العقول بهاء، ويحير الالباب رواء، ويكاد

يمشى الناظر تالقا وضياء، فحين تمت خصاله، واستركبت اوصاله،
وحان ارتباطه بالمصحف العظيم واتصاله، رأوا ادام الله تأييدهم واعلى
كلمتهم مما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات، والاشراف على جميع
الثنيات، ان يتلطف في وجه يكون به هذا الصوان المذكور طورا متصلا،
وطورا منفصلا، ويتأتى به المصحف الشريف العظيم ان يبرز تسارة
للخصوص متبذلا، وتارة للعموم متجملا، اذ معارج الناس في الاستبصار
تختلف، وكل له مقام اليه ينتهى وعنده يقف، فعمل فيه على شاكلة
هذا المقصد، وتلطف في تميم هذا الغرض المعتمد، وكسى المصحف العزيز
بصوان لطيف من السندس الاخضر، ذي حلية عظيمة خفيفة تلازمه في
المغيب والمحضر، ورتب تريبا يتأتى معه ان يكسى بالصوان الاكبر،
فيلتصم به التمام. يغطي على العين من هذا الاثر، وكل ذلك كله
على اجمل الصفات واحسنها، وابدع المذاهب واتقنها، وصنع له محمل
غريب الصنعة، بديع الشكل والصبغة، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الادراك،
ويشهد بها الارتباط بين المفضلين ويصح الاشتراك، مغشى كله بضروب
من الترصيع، وفنون من النقش البديع، في قطع من الابنوس والخشب
الرفيع، لم تعمل قط في زمن من الازمان، ولا انتهت قط الى ايسره
ثواقب الازدهان، مدار بصنعة قد اجريت في صفائح الذهب، وامتدت
امتداد ذوائب الشهب. وصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال،
ويشاركه في اكثر الاحوال، مرصع مثل ترصيعه الغريب، ومشاكل له

في جودة التقسيم وحسن الترتيب، وصنع لكه تابوت يحتوى عليه احتواء المشكاة على انوارها، والصدر على محفوظ امكارها، مكعب الشكل سام في الطول حسن الجملة والتفصيل، بالغ ما شاء من التتميم في اوصاله والتكميل، جار مجرى المحمل في التزيين والتجميل، وله في احد غواربه باب ركبت عليه دفتان قد احكم ارتجاجهما، ويسر بعد الابهام انفراجهما، ولا نفتاح هذا الباب وخروج الكرسي من تلقائه وترك المحمل عليه ما دبرت الحركات الهندسية، وتلقيت التنبهات القدسية، وانتظمت العجائب المعنوية والحسية، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية، وذلك ان باسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد أعدله مفتاح لطيف يدخل فيه فاذا دخل ذلك المفتاح فيه واديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف زائدة الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما وخرج الكرسي من ذاته بما عليه الى اقصى غايته وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته ياتي بها من مؤخر الكرسي زحفا الى مقدمه فاذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالنقدم عليه انغلاق الباب برجوع الدفتين الى موضعهما من تلقائهما دون ان يمسهما احد وترتيب هذه الحركات الاربع على حركات المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر فاذا ادير المفتاح الى خاف الجهة التي ادير اليها ولا انفتح اولا الباب واخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي الى مؤخره فاذا عاد كل الى مكانه انسد الباب بالدفتين ايضا من تلقائه كل

ذلك يترتب على حركة المفتاح كالذي كان في حال خروجه وصحة هذه الحركات اللطيفة على اسباب ومسببات غائبة عن الحس في باطن الكرسي وهي مما يدق وصفها ويصعب ذكرها اظهرتها بركات هذا الامر السعيد وتنبيهات سيدنا ومولانا الخليفة ادام الله تعالى امرهم واعز نصرهم.

هذا ما اردنا نقله من رسالة ابن طفيل، وهي على طولها ممتعة ومفيدة في معرفة مدى ما وصلت اليه هذه الصنائع الدقيقة من الرقي والكمال. ودون هذا فان صنائع اخرى جلية كانت في غاية من التقدم والاتقان كصناعة الاسلحة بجميع انواعها والآلات الحربية والسفن، وكان لهذه دور كبيرة في مختلف الموانئ. وفيها صنع الاسطول المغربي العظيم الذي كان يصول ويجول وحده في عرض المتوسط والمحيط. وقرأ أن شئت في نفح الطيب ما للشعراء في وصفه من القصائد الطنانة التي تستشعر منها روح الفخار وتتعرف عظمة الاجداد

وفي هذه الاثناء كان الادريسي يتنقل في البلاد برا وبحرا لاجل ان يؤلف كتابه نزهة المشتاق في معرفة الافاق فيخلف لنا ذلك المستند الجغرافي الذي ما برح مرجعا مهما للمكتشفين وارباب الرحلات ووضع الخرائط والمصورات. وهكذا كانت دولتنا بحرية كما هي برية وكان اجدادنا روادا كما كانوا اعبادا

وبالاختصار فاننا لو اردنا استيفاء الكلام على النهضة العامة في هذا

العصر لم يكفنا مجلد ضخيم لتتبع مصادرها ومعرفة مدى ما وصلت اليه
فلنكتف بهذا القدر ففيه غنية لدوي الالباب

الرسالة العلمية واثارها

نرى من تنمة البحث السابق ان نذيله بكلمات مختصرة جدا في
حياة بعض الافراد الذين كانوا قوام الحركة العلمية في هذا العصر،
فنجيب ذكرياتهم ونتعرف احوالهم ولو بصفة اجمالية. ونضيف الى ذلك
جريدة باسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر فنحيط علما بالمجهودات
الطائفة التي بذلها اسلافنا رحمهم الله في خدمة العلم ونتصور الحركة
العلمية الموحدية على حقيقتها فلا نبقي متشوفين بعهد ذلك الى
زيادة بيان :

ابو عمر انه الفاسي

موسى بن عيسى بن ابي حجاج الغفجومي نسبة الى غفجوم وهو
فخذ من قبيلة زناتة كان بيته بفاس بيتا معروفا مشهورا، يعرفون ببني
حجاج وله عقب وكان فيهم نباهة. استوطن القيروان وحصلت له بها
رياسة العلم وتفقه بابي الحسن القابسي ورحل الى قرطبة فتفقه بها عند
الاصيلي وسمع من ابي عثمان وعبد الوارث واحمد بن قاسم وغيرهم.
ورحل الى المشرق وحج ودخل العراق فسمع من ابي الفتح بن ابي
الفوارس وابي الحسن المستملي ودرس الاصول على القاضي ابي بكر
الباقلاني ولقي جماعة وسمع من ابي ذر قال حاتم بن محمد كان ابو

عمران من احفظ الناس واعلمهم جمع حفظ المذهب المالكي الى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفة معانيه وكان يقرأ القرآن بالسمع ويجوده مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديهم. اخذ عنه الناس من اقطار الاندلس والمغرب واستجازه من ام يلقه. وفي مدرسته تخرج عبد الله بن ياسين كما سبق القول. قال حاتم بن محمد ولم الق احدا اوسع علما منه ولا اكثر رواية. وذكر ان الباقلاني كان يعجبه حفظه ويقول لو اجتمعت في مدرستي انت وعبد الوهاب - وكان اذ ذك بالموصل - لاجتمع عندي علم مالك انت تحفظه وهو ينظره

ولد سنة 375 وتوفى سنة 430 والف كتاب التعليقات على المدونة وخرج عوالى حديثه في نحو مائة ورقة. وتجدد طرفا من اخباره في قسم المنشور من الجزء الثاني

علي بن صررهم

او ابن حرازم كما هو الجاري على الالسنه اليوم فيه وفي كثيرين غيره وصوب الساحلي الاول في كتابه بغية السالك وهو السني في كتب الاقدمين. كان من ابرز الشخصيات في ايام المرابطين، وهو من ذرية عثمان بن عفان رضي الله عنه ولد ونشأ بفاس وكان من كبار فقهاءها ومدرسيها العباد الزهاد. قال الساحلي كان عالما فقيها محدثا حافظا مدرسا زاهدا في الدنيا سالكا في طريق القوم من اهل التحقيق مشاركا في علوم الشريعة لكنه اميل للتصوف .

احكم كتاب الاحياء للغزالي وضبط مسائله فكان يستحسنه ويشني عليه
درس بفاس واخذ عنه ناس الطريق كالشيخ ابي مدين الغوث وابي
عبد الله التاودي ودخل مراکش فدرس بها العام وتاب على يده خلق كثير
وزهد اميرها في الدنيا. نعم فقد كان في اول الامر ممن حمل على كتاب
الغزالي واستنكر ما فيه ثم غلبت عليه نزعة التصوف فرجع عن رايه
ونظر كما يقول ابن قنفذ فيما كان يذكره منه فوجده موافقا للكتاب والسنة
وحينئذ يجيء قول الساحلي احكم كتاب الاحياء وضبط مسائله فكان
يستحسنه ويشني عليه وقد جعل ابن قنفذ سبب رجوعه رؤيائه اها وهي كرامة
عجيبة للامام الغزالي ثم قال الساحلي ودخل مراکش فزهد اميرها واميرها
بلاشك على بن يوسف فنعرف من هذ منشأ الضعف الذي اعتري هذا الامير
الشهم بعد ما كان في اول الامر على غاية من الضبط والحزم والنجدة والقوة
فحين احاط به على بن حرزهم وامثاله من اهل التبتل والانقطاع عن الدنيا
اصلا تراجع الى الوراء واشتغل بالحراب عن العرش فكثرت الفتوق في مملكته
الواسعة التي اسسها والده يوسف بجده واجتهاده وتسني للمهدي بن تومرت
ان يتغلب عليه ولمبد المومن ان يسقط دولته

ومن امثلة زهد ابن حرزهم الدالة على صدقه واخلاصه انه لما مات والده
وكان ذامال عريض قام هو يصلي ورده من الليل فاشتغل خاطره بتركة والده
وقسمتها وما ينوبه فيها فذهل عن صلاته فلما اصبح قال لاختيه قد تركت لك
حقي في متخلف والدي فابني فعزم عليه وقال ان لم تقبله تصدقت به على

الجذمي. ولما دخل الشيخ أبو مدين للجامع القرويين سال عن مجالس العلماء
فسار اليها مجلسا بعد مجلس قال وانا لا يثبت في قلبي شيء مما اسمعه من
المدرسين الى ان جئت الى شيخ كلما تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته فاما
فرغ دنوت منه وقلت له حضرت مجالس كثيرة فلم اثبت على ما يقال وانت كل
ما سمعته منك حفظته فقال لي هم يتكلمون باطراف السننهم فلا يجاوز كلامهم
الأذان وانا قصدت الله بكلامي فيخرج من القلب فلا رمته وكان هذا الشيخ
هو علي بن حرزهم. توفي رحمه الله سنة 559 هـ وقبره بفاس مزاراة

القاضي عياض

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي كان اماما
وقته في الحديث وعلومه عالما بالتفسير وجميع علومه فقيها اصوليا عالما
بالنحو واللغة وكلام العرب واياهم وانسابهم كاتب شاعرا مجيدا ريان من
علم الادب خطيبا بليغا صبوراً حليماً جميل العشرة جواداً سمحاً كثير الصدقة
دعوا على العمل صلوا في الحق. هكذا وصفه ابن فرحون في الديباج
دخل الاندلس ورحل الى المشرق طالبا للعلم واكثر الاخذ فذاقت شيوخه
عن المائة فيهم القاضي أبو بكر بن العربي وأبو الوليد بن رشد وابن عتاب
وابن حزمين والمازري وابن سكرة وأبو الطاهر السلفي وغيرهم. قال ابن
بشكوال وجمع من علوم الحديث كثير اوله عناية كبيرة به واهتمام بجمعه
وتقييده وهو من اهل التفنن في العلم واليقظة والفهم وبعد عوده من
الاندلس اجلسه اهل سبتة للمناظرة عليه في المدونة وهو ابن ثلاثين سنة

او ينيف عليها ثم اجلس للشورى ثم ولى قضاء بلده مدة طويلة حمدت سيرته فيها ثم نقل الى قضاء غرناطة ومنها ايضا الى سبتة قال ابن الخطيب وبنى الزيادة الغربية في الجامع الاعظم وبنى في جبل المينا الراتبة الشهيرة وعظم صيته ولما ظهر امر الموحدين باذر الى الدخول في طاعتهم ورحل الى لقاء اميرهم بمدينة سلا فاجزل صلته واوجب بره الى ان اضطربت امور الموحدين عام 543 فتلاشت حاله ولحق بمراكش مشردا به عن وطنه وانت قد عرفت سلوكه بازاء الموحدين اولا وثانيا مما كان السبب في هذا التشريد الذي يتكلم عنه ابن الخطيب وهنا بعد ما عرفت مكانة الرجل تعرف ان الموحدين لم يكونوا بمأمن منه الا بعد نقله من بلده سبتة الى عاصمتهم مراكش.

وللقاضي عياض التصانيف البديعة منها اكمال المعلم في شرح صحيح مسلم كمل به معلم شيخه المازري ومنها كتاب الشفا بتمريف حقوق المصطفى ابداع فيه كل الابداع وسلم له اكفاؤه كفاءته فيه ولم ينازعه احد في الانفراد به ولا انكروا مزية سبق عليه بل تشوفوا للوقوف عليه وانصفوا في الاستفادة منه وحمله الناس عنه فطارت نسخه شرقا وغربا وهو في الحقيقة كتاب فريد دحض به مزاعم الملاحدة ومطاعنهم على المقام النبوي الشريف واتي في ذلك بالعجب العجائب مما لا ينكره الا اعمى القلب مطموس البصيرة. ومنها مشارق الانوار في تفسير غريب الحديث المختص بالصحيح الثلاثة وهي الموطأ والبخاري ومسلم وضبط الالفاظ والتنبيه

على مواضع الاوهام والتصحيقات وضبط أسماء الرجال وهو كتاب لو كتب بالذهب لكان قليلا في حقه وقد تقدم مدحه شعرا. ومنها كتاب التنبیہات المستنبطة على الكتب المدونة جمع فيه غرائب من ضبط الالفاظ وتحرير المسائل. وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك وغيرها مما سذكروه بعد. وله رسائل أدبية وديوان خطب ومقاطع شعرية وسنلم بجميع ذلك في الجزء الثاني.

وكان ابو الفضل بمنزلة من الجد في تعظيم الشريعة والذب عن حرما بحيث ان الفتح ابن خاقان الكاتب والشاعر المشهور صاحب قلائد العقیان دخل عليه يوما وهو بمحكمته فاشتم منه رائحة الخمر ورأى عليه آثار نشوتها فغضب عليه وجرده من ثيابه وحده الحد الشرعي ولم تاخذه في الله لومة لائم وخرج الفتح من عنده مغضبا حنقا وهم ان يحذفه من قلائده فقیل له ان ذلك يكون ادعى لاشتهار امره وظهوره فعدل عن ذلك. لكن القاضي الفاضل الاديب بعد ان خرج الفتح من عنده اتبعه بصلة سنية ابقاء على وده واسترضاء لخاطره وضربا للمثل في ان التمسك بقواعد الاسلام وحفظ حدوده لا ينافي الاريحة الادبية ولا يذهب بظرف الاديب ورقة حواشيه. كان مولد القاضي عياض بسببة في شعبان 496 وتوفي بمراكش في رمضان 544 وقبره بها احد منارات سبعة رجال.

المتردغي

هو أبو الحجاج يوسف بن عمران المتردغي، سيد علماء زمانه واحد
اساطين الكلية القروية. اخذ بفاس عن ابي ذر الحشني وابي محمد بن
زيدان ولقي بتلمسان الفقيه ابا عبد الله بن عبد الرحمن التجيبي فاخذ
عنه واجاز له ورحل الى الاندلس فقرأ بقرطبة واشبيلية على جلة اشياخها
وكان عالما بالنحو واللغة والبديع ذا كرا للتاريخ والاداب ينص كتاب
هر الاداب وكتاب الامالي ومقامات الحريري وكتب السير نصا،
اقتصر على اقراء الحديث والتفسير فكان اماما فيهما وله تفسير جليل
صل به الى سورة تبارك الملك وهو من ابداع التفاسير وله تآليف
فيعدة في فنون شتى منها كتاب الفرق بين الاغنياء المعنيين والفقراء
المضطرين وما يجب في ذلك على الولاة الامرين وعلى جميع المسلمين
هو فيما يجب للفقراء في اموال الاغنياء وكتاب في الوباء وضعه على
حديث اذا نزل الوباء الخ وعقيدة وشرح الاحكام وارجوزة في علم
الاصول مفيدة قريبة المرام اولها

الحمد لله العلي الاعلى	رب العوالي والعلا والسفلى
وملك الدنيا ويوم الدين	ومبدع الخلق بلا معين
احمده حمدا يوازي فضله	فليس شيء في الوجود مثله

ولد سنة 577 وتوفي سنة 655.

عبد السلام بن ميسرة

هو شمس العارفين، وقطب الصالحين، كهبة العلم المتيف، ونبعة النسب الشريف بيد انه لم يعتمد غير العمل الصالح، وسلوك المنهج الواضح، قائلاً في صلاته المشهورة الاتية اللهم الحقني بنسبه. وحققني بحسبه. وقد سأل رجل أن يوظف عليه وظائف وأوراداً يعمل بها فقاراً رسول أنا؛ الفرائض مشهورة والمحرمات معلومة فكن للفرائض حافظاً والمعاصي رافضاً، واحفظ نفسك من إرادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات واقنع من ذلك بما قسم الله لك، إذا خرج لك مخرج الرضى فكن لله شاكراً، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابراً، ورفض الدنيا قطب تدور عليه الخيرات، وأصل جامع لانوار الكرامات، وحصون ذلك كله أربعة، الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم، ولا تتم له هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح، أو شيء ناصح. وكلامه رضى الله عنه كله من هذا القبيل ويكفيك أنه بمثل هذا الدروس الجامعة تخرج عليه الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

توفي رحمه الله شهيداً حوالي 625 قتلته بجبل العلم قوم بعثه لقتله ابن أبي الطواجين الكتامي الساحر المتنبي. فدفن بقنة العجب المذكور ومشهده به معروف وهو من أكبر مزارات المغرب.

أبو العباس السبتي

أحمد بن جعفر الخزرجي أحد أقطاب المتصوفة ومشاهيرهم الأخذ

بمذهب غريب في الدين مولده في سبعة بلده سنة 524 واستوطن
مراكش وبها توفي سنة 601 وضرجه بها احد منارات سبعة رجال
كان مذهبه الا يترك لنفسه ناصاً من المال الا قدر ما يقوته وعياله
في يومه وباقيه يتصدق به. وكان يرى ان اهل الجمال من النساء
الفقيرات، تجب الصدقة عليهن مخافة فسادهن وان القبيحات لا يتصدق
عليهن حتى يستغنى الملاح وكان يرى ان الرجل اذا اعتل في جسده
عضو يتصدق بديته ويبرأ، فهو اول اشتراكه وضع للاشتراكية مباديء
وقوانين كما ترى. وحدث ابو القاسم عبد الرحمن بن ابراهيم الخزرجي
قال بعثني ابو الوليد ابن رشد من قرطبة وقال لي اذا رايت ابا العباس
السبتي بمراكش فانظر مذهبه واعلمني به قال فجلست مع السبتي كثيرا
الى ان حصلت مذهبه فاعلمته به فقال لي ابو الوليد هذا رجل مذهبه
ان الوجود ينفع بالوجود. وكان فصيح اللسان قادرا على الكلام لا
يُناظره احد الا افحمه حتى كأن مواقع الحجج من الكتاب والسنة
موضوعة على طرف لسانه. وكان مع ذلك حليما صبوراً عظوماً يحسن
الى من يؤذيه ويحلم عن يسفه عليه برا باليتامى والمساكين رحيماً بهم
يجلس حيث امكنه الجلوس من الاسواق والطرقات ويحض الناس على
الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنتال عليه من كل
جانب فيفرقها على المساكين وينصرف فهو (حبيب المساكين) كما قالوا في
مولانا عبد السلام قبله (حبيب الطلبة). وكان ناسكاً متعبداً ورده القراءان

يتلوه أثناء الليل واطراف النهار وقد اتخذته انيسا وسميرا واستخرج منه من دقائق العلوم واطائف الاشارات في المجاهدة ورياضة النفس شيئا عجيبا وبالجملة فهو رجل من اعاجيب الدنيا وترجمته اوسع من هذا.

ابو موسى الجزولي

عيسى بن عبد العزيز بن يلبخت بن عيسى بن يومار يلي البزدكتي المراكشي كان اماما في النحو كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه. وصنف فيه المقدمة التي سماها بالقانون فاتي فيها بالعجب العجيب. وهي في غاية الاجاز مع الاشتمال على شيء كثير من النحو ولم يسبق الى مثلها واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها ومنهم من وضع اها امثلة، ومع هذا كله فلا تفهم حقيقتها. واكثر النحاة ممن لم يكن اخذوها عن موفق يعترفون بقصور افهامهم عن ادراك مراده منها فانها كلها رموز واشارات، هذا ما يقوله ابن خلكان، ولسنا متحققين الآن من مقدار هذا الغموض الذي يحيط بهذه المقدمة لعدم وقوفنا عليها. قال ولقد سمعت من بعض ائمة العربية المشار اليه في وقته: «انما اعرف هذه المقدمة وما يلزم من كونها ما اعرفها ان لا اعرف النحو». فهي كانت معيار النحوي اذن، انما يحكم بتحصيله اذا عرفها. ويفهم من قول ابن خلكان انها اشارات ورموز ومن تسميتها بالقانون انها جداول ودوائر على مثل جداول المنطق ودوائر العروض ضبط فيها القوانين النحوية وحصر القواعد الاعرابية فلذلك كان البعض من النحاة يشرحونها وكان الآخرون

يضعون لها امثلة وشواهد وهكذا. ويقال انه شرحها في سفر ضخم مما
بدل على انها كانت جماعة لمهمات النحو واصوله. وبدل على قولنا انها
ربما كانت جداول ودوائر قول ابن خلكان ويقال انه كان يدري شيئا
من المناطق وقول بعضهم كما في بغية الوعاة ليس فيها نحو وانما هي منطق
لحدودها وصناعاتها العقلية. انما لا يخفى ان هذا القائل من الحزب
(السيوطي) المعادي للمنطق. وقول محمد الدين بن ظهير الارمني.

مقدمة في النحو ذات نتيجة تناهت فاغنت عن مقدمة اخرى
حباثنا بها بحر من العلم زاخر ولا عجب للبحر ان يقذف الدرا
سافر ابو موسى الى المشرق فحجج ولازم ابن برى بمصر ثم عاد فتصدر
للاقراء ببجاية والمرية واخذ عنه جماعة منهم الشاوبين وابن معط. وكان
قارئنا حافظا جيد التفهيم حسن العبارة. ولي خطابة مراکش وله امالي في
النحو ومختصر الفسر لابن جني في شرح ديوان المتنبي وشرح اصول
ابن السراج وغير ذلك. وتوفي سنة 610 بمراكش رحمه الله

ابن معط

هو الامام زين الدين ابو زكرياء يحيى بن معط بن عبد النذور
الجزولي. اشتغل بالعربية على ابي موسى المتقدم فتمهر فيها وكان مبرزاً
في علم الادب قادراً على النظم للعلوم. ورحل الى بلاد مصر فلقى المشايخ
وباحث العلماء وناظرهم ثم انتقل الى دمشق وسكن بها طويلاً وولاه
الملك المعظم النظر في مصالح المسجد وفي ذلك الوقت نظم الفيته. ولما توفي

المعظم نقله الملك الكامل الى مصر فتصدر بالجامع العتيق لاقراء الادب وقرر له جاز على ذلك. كانت ولادته سنة 564 وتوفي سنة 628 رحمه الله

المراكشي

هو عبد الواحد بن علي التميمي، مؤرخ دولة الموحدين ولد بمراكش سنة 581 واخذ بفلاس والاندلس عن جماعة من العلماء. وعنى بالادب واللغة فكان طوداً راسخاً في فذونهما. وله قلم بارع في الانشاء وطبع سائل في الشعر وكان حلو النادرة عذب الفكاهة لطيف المحضر رقيق الحاشية خدم الامير ابراهيم بن يعقوب المنصور ايام ولايته على اشبيلية فزال عنده حظوة كبيرة وامتدحه بقصائد فذة كان يجزل له عليها العطايا والهبات.

ثم سافر الى مصر سنة 613 وفيها ألف كتابه المعجب في تلخيص اخبار المغرب جمع فيه بين تاريخ الاندلس والمغرب السياسي والادبي من لدن فتح الاندلس الى سنة 621 اي الى مدة خلافة يوسف بن محمد الناصر الموحدي يستعرض اهم حوادث السياسة واحسن صور الحضارة في كل عصر ثم لا يلبث ان يسرفه طبعه فيستطرد بعض مواضع ادبية لها قيمتها في معرفة الحياة الفكرية في ذلك العصر وذلك كله بأسلوب رصين مترن لانشوبه ركاكة ولانشويش مع تحري الصدق وتوخى الانصاف كما قال: «ولم اثبت في هذه الاوراق المحتوية على دواة المصامدة وغيرها الا ما حققته نقلاً من كتاب او سماعاً من ثقة عدل او مشاهدة بنفسي هذا

بعد ان تحريرت الصدوق وتوخيت الانصاف في ذلك كله وجهدت الا
أقصر احد اذرة مما له ولا ازيدة خردلة مما لا يستحقه» ولذلك فان
هذا الكتاب يعد من اوثق المصادر في تاريخ هذا العصر.

اقام المراكشي بعد ارتحاله بمصر زمنا وجاور بمكة الى ان توفي
سنة 265 وله نبذ ولطائف ادبية تؤخرها الى ان توضع في محلها من
الجزء الثاني.

الادريسي

هو العلامة الجغرافي الشهير ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن
ادريس كان جده ادريس من ملوك الحموديين بالاندلس ومات سنة
444 قبل اخراج الحموديين من مملكة واسطاة مملكتهم الى غرناطة
بسنطين. اما هو فولد عام 494 بسببة بلده. ولعل سلفه كانو انتقلوا اليها
بعد سقوط دولتهم. خرج الادريسي سائحا في شمال افريقيا واسبانيا الصغرى
والاندلس ثم استدعاه روجرس الشاني ملك صقلية فقدم عنده ففرح به
واكرم نزله. وفي صقلية الف كتابه نزهة المشتاق في معرفة الافاق
وصنع كرة سماوية ودائرة ارضية كلامها من الفضة واستعمل في ذلك ثلث
الفضة التي اعطاها له الملك ولما اتم العمل فيهما زاده الملك مائة الف درهم
وشيئا كثيرا من التحف. والف ايضا روض الانس ونزهة النفس برسم
جيل هالم الاول ولدر وجرس وهو اطول من نزهة المشتاق وذكر ابو
الفداء هذا الكتاب وكتبه سماه كتاب الممالك. وله ايضا كتاب

الادوية المفردة ذكره ابن سعيد

وانتفع منه ابن البيطار وقد نقلت قطع من كتاب نزهة المشتاق الى لغات
اروبا وتوفى الادريسي حوالى 569 رحمه الله

ابن الهيثم

ابو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج، من اهل مدينة فاس
وأصله من بني حجاج اهل قلعة قندلاوة رياضي برع في عدة علوم
كالمنطق والهندسة والتنجيم والهيئة وخاصة الحساب والعدد فكان لا يدرك
شأوه فيهما ولا ينازع في الاختصاص بمعرفة دقائقهما وغوامض مسائلهما.
اخذ علم العدد عن ابي عبد الله بن قاسم وكان من خدام يعقوب المنصور
ثم ولده الناصر من بعده فحصلت له رياسة كبيرة وبلغ منزلة نفسها عليه
اعدائه، له ارجوزة في الجبر قرئت عليه وسمعت منه باشبيلية سنة 587
فكان هو الذي نشر ذلك العلم بها. توفى ذيحاجه امرا كش سنة 601 رحمه الله

يوسف بن سمعون

هذا كان طبيباً اسرائيلياً من اهل فاس وكان ابوه بها يعاني بعض الحرف
السوقية وقرأ هو الحكمة ببلده فساد فيها وعانى العلوم الرياضية واجادها
وكانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة. وقد ارتحل الى مصر واجتمع
بموسى بن ميمون القرطبي رئيس اليهود بمصر وقرأ عليه شيئاً واقام عنده
مدة قريبة واجتمع هو واياه على اصلاح هيئة ابن افلاح الاندلسي وتحريرها
فانها صحبته معه من المغرب، ثم خرج من مصر الى الشام ونزل حلب

واقام بها مدة وسافر منها تاجرا الى العراق ودخل الهند واثرى حاله
ثم ترك السفر واخذ في التجارة واشترى مملكا قريبا وقصده الناس
للاستفادة منه فاقرا جماعة من المقيمين والواردين وخدم في اطبائ الخاص
في الدولة الظاهرية بحلب وكان ذكيا حاد الخاطر وبينه وبين ابن
القفطي صاحب تاريخ الحكماء مودة توفي سنة 623

*
* *

وهذه جريدة باسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر مع نسبتها الى
مؤلفيها، والاشارة الى وفيات من لم نترجم لهم اختصارا:

كتب الحديث والتفسير وتوابعهما

اكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض، الشفا في التعريف
بحقوق المصطفى له، الاماع في ضبط الرواية وتهييد السماع له، بغية
الرائد لما تضمنه حديث ام زرع من الفوائد له، تفسير القرآن للمردغي،
شرح حديث اذا نزل الوباء له، تفسير القرآن لابن عبد الجليل القصري
المتوفي سنة 606 شعب الايمان له، تنبيه الانام في مشكل الحديث له،
لناسخ والمنسوخ للحصار المتوفي سنة 615، المدارك في وصل مقطوع
حديث مالك له. كتب الفقه والتصوف وتوابعهما

الاعلام بحدود قواعد الاسلام للقاضي عياض، نظم البرهان علي
سحة جزم الاذان له، مسألة الاهل المشروط بينهم التراور له، اجوبة
لقرطبيين له، الاجوبة المحيرة على الاسئلة المتخيرة له، المتماصد الحسان

فيما يلزم الانسان له، النوازل القضائية له، الحلال والحرام لراشد الفاسي
المتوفي سنة 675، التعاليق علي المدونة له، المقصد المحمود في تلخيص
العقود لابي القاسم الجزيري المتوفي سنة 585، الفرق بين الاغنيا
المعنيين والفقراء المضطرين للمزدغي، انوار الافهام شرح الاحكام له
المسائل والاجوبة لابن عبد الجليل القصري، اليقين له، البيان في تنقيح
البرهان للحصار، مختصر الفقه لابراهيم بن جعفر اللواتي المشاور المتوفى
سنة 513، الطرر لابي ابراهيم الاعرج المتوفى سنة 573، التقييد علي
الرسالة لابي محمد صالح المتوفى 653، الانابة الى طريق الى اهل الاستجابة
لمحمد بن قاسم المتميمي، الايضاح في طريق اهل الصلاح له، كشف احوال
المفتون عن الدنيا والدين له، بستان العابدين وريحان العارفين له.

كتب الكلام والمنطق والاصول

البرهانية للسلاجي، عقيدة المردغي، ارجوزة في الاصول له، اخرى فيها
للحصار، اخرى في اصول الدين له، شرحها له،

كتب التراجم والتاريخ والجغرافية

ترتيب المراد وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك للمقاضي
عياض، الغنية له في شيوخه، المعجم في شيوخ ابن سكرة له، الامعة في
ذكر ازواجه صلى الله عليه وسلم واولاده السبعة لمحمد بن قاسم التميمي،
المستفاد في مناقب العباد والزهاد بمدينة فاس وما والاها من البلاد له،
التشوف الى رجال التصوف لابن الزيات، المعجب في تخليص اخبار

المغرب للمراكشي، البيدق مذكرات تاريخية لابي بكر بن علي الصنهاجي،
نزهة المشتاق في معرفة الافاق للدريسي، روض الانس وبهجة النفس له،
كتب الادب والدواوين الشعرية

صفوة الادب وديوان العرب لابي العباس الجراوي، ديوان عتيق الفصيح
المتوفى سنة 595، غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والثرسل
للقاضي عياض، سر السراة في ادب القضاة له، ديوان خطب له، الشعر
والانساب لابن رفته المتوفى سنة 605، ديوان ابي عمران المرتسالي
المتوفى سنة 603، مختصر الاغانى للامير سليمان الموحدي، ديوانه، ادب
المريد لمحمد بن قاسم التميمي، الحنين الى الاحبة والاطوان له،

كتب النحو واللغة

المقدمة لابي موسي الجزولي، الامالي له، مختصر الفسر له، الالفية
لابن معط، مشارق الانوار في غريب الحديث للقاضي عياض، التنبيهات
المستنبطة على الكتب المدونة في ضبط الالفاظ وتحرير المسائل له،

كتب حكمة

الادوية المفردة للدريسي، شرح كليات القانون الطبي لابراهيم بن
علي السلمي المتوفى سنة 618، ارجوزه الجبر لابن الياسمين، اصلاح
هيئة بن افلح ليوسف بن سماعيل،

هذه قل من كثر مما لم نطلع عليه من المؤلفات الموضوعة في هذا
العصر للعلماء المغاربة فقط دع ما كان يؤلفه برسم الخزانة السلطانية غير

المغاربة من علماء الاندلس وافريقيا. وقد رايت ان كل ما ألفه ابن رشد
من الكتب الحكمية كان بطاب يوسف بن عبد المومن. فالمكتبة المغربية في
هذا العصر كانت من اغنى المكاتب بالمؤلفات النادرة وزادها غنى ما كان
يضعه المؤلفون كل يوم من الكتب المفيدة في مختلف العلوم فكانت
ثروتها لاتزيد على مر الايام الاكثر. وما يمنعها من ذلك والناس في
ذلك العصر لم يكونوا يبيعون كتب اسلافهم لاروبا بابخس ثمن بل كانوا
يستخلصونها منها باغلى قيمة وينافس عائلتهم في ذلك خاصتهم. وقد
سمعت ماعمله الملك الموحي في هذا الصدد فاسمع ماعمله احد افراد العلماء
وهو القاضي عيسى بن ابي حجاج ابن الملقوم، وبنو الملقوم من بيوتات
فاس القديمة، فانه ابتاع من ابي على الغساني اصله من سنن ابي داود
الذي سمع فيه على ابي عمر بن عبد البر وهو اصل ابي عمر وكان صار
الى ابي على، بخمسة آلاف دينار بعد ان نسخ منه بخطه وقابله واتقنه.
وكان الامام المجتهد فخريته ابو زيد عبد الرحمان بن محمد بن يوسف ابن
الملقوم المعروف بابن رفته، جماعة لمدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة
فاجتمع لديه ما لم يجتمع عند احد من اهل المغرب. وكانت خزانته وحيدة
في المغرب بيعت خرمها بعد وفاته بستة آلاف دينار
فحيا الله تلك الهمم ما كان اعلقها بالمعالي واطرقها لابواب الفخار!

الحياة الأدبية

كان الادب في عهد المرابطين اندلسيا محضاً، لانه كان لا يجد الا ادباء الاندلس يغزونه بنتاج افكارهم الخصبة ويروونه بخلاصة معارفهم المستطابه. نعم كان هناك افراد قليلون ممن يتعاطى الادب من المغاربة ولاكنهم لم يكونوا من القوة والظهور بحيث يستطيعون قيادة السفينة فيوجهونها انى شاءوا. فلذلك كان الريان الاندلسي يتصرف بالسكان كيف شاء ولا تجري السفينة الاحسب ماله من الالهواء. فلما قام الموحدون وقامت معهم تلك النهضة العلمية الادبية التي سبق توصيفها، تحول مجري السفينة الادبية الى المغرب وسيطر عليها الادباء المغاربة يترجونها بمعرفة وحذق وتعينهم على ذلك ربح رخاء من لطف تدبير الموحدين وحسن سياستهم. وقد سبق ذكر ما كان لهم من العطف على الادب والتشجيع لاهله حتى لقد كان واحدهم يشيب على البيت والبيتين يمدح بهما بالالف والالفين، بل كان الاخر يبلغه عن شاعره وقوعه فيه وتعريضه باصله فيقول اعاقبه بالحلم عنه، وهي نفس الهفوة التي اخذوها على الفيلسوف ابي الوليد بن رشد فلم يتسامحوا مع العلماء وتسامحوا مع الشعراء مما يدل على ان ضلعهم مع الادب كان كبيراً وقد رايت مقام الشعراء من عبد المومن في جبل الفتوح وكيف كان اول من انشده في ذلك المقام شاعر فاسي وكان هو يعقب على قصائد الشعراء بالنقد او التقريظ. ثم اعيد هذا الموقف باعظم من ذلك ولاكن مع حفيده يعقوب المنصور لما رجع من غزاة

الاراکة المشهورة بالاندلس (591) فورد عليه وفود المهنيين والشعراء من كل ناحية فكان كل واحد منهم ينشد من قصيدته بيتا او بيتين لكثرتهم ويترك رفعتها امامه فما استتموا الانشاد حتى حالت رقاع القصائد بينه وبين الناس. وهذا ان ثبت على حقيقته كان اعظم شاهد على ما بلغته الحياة الادبية في هذا العصر من النمو والازدهار.

ولاكن منشأ النبوغ لم يكن هذا الذي المعنا اليه من رعاية الموحدين للادب وتنشيطهم لاهله فقط وانما هو متولد من جملة اسباب اخرى منها النفس على الاندلسيين الذي كانوا قد طلموا في سماء الادب بدورا ساطعة ونجوم لامعة وكانوا يغلبون اهل البلاد من المغاربة عند المفاخرة ويطاولونهم حين المنافرة وقد مرت بك الاشارة الى الرسالة التي كتبها بعضهم في التفضيل بين بري العدو، فمنها تعلم ان الخصومة في ذلك بين وجهاء العدوتين كانت لا تنقطع والاندلسيون بالطبع كانوا يحجون جيرانهم بما يعدون من نبغائهم الكثيرين وهذا وحده كاف لهم حجوج في الاقتطاع الى الطلب والعكوف على التحصيل. ومنها الطامح الى الخدمة في دواوين الحكومة واشغال المناصب العالية التي كان اعلاها يومئذ منصب الوزير وهو في الحقيقة رئيس الكتاب ونرى من ابناء مراکش البررة من وضع هذه الغاية نصب عينيه وجهده في الوصول اليها فما لبث ان حصلها بحزمه وعزمه وذلك هو الوزير ابو جعفر بن عطية. على ان ما يرجح بهذه الاسباب كلها هو عموم الحاجة الى التثقيف

والتهديب وقد شعر الناس بهذه الحاجة منذ قيام عبد الله بن ياسين بحركته الإصلاحية ثم زاد شعورهم بها من حين الثورة الاجتماعية التي قام بها المهدي بن تومرت. فنتج من ذلك كله ان تقدمت الحركة العلمية الى الامام واتجهت النهضة الادبية اتجاها جديدا يرضى الجماعة الذين كانوا لا يفتشون يناظرون خصومهم من اهل الاندلس في موجبات الفخار. وعلى ذلك فلم تكن الاداب المغربية صورة طبق الاصل للاداب الاندلسية كما يظنه البعض بل كانت قائمة بنفسها تعبر عن شعور اهله ولا تتأثر بالاندلس الا كما تتأثر بالشام والعراق. فهذا ميمون الخطابي لا تجد بمن تقارنه في متانة اسلوبه وبلاغة معناه وعنايته بالحكم الفلسفية الا المتنبي، وهذا ابو العباس الجراوي لا تشبهه الا بابي تمام في اهتمامه باللفظ قبل المعنى ثم اغرابه في بعض الاحيان حتى تختلف فيه الظنون ولم يقصر وجه الشبه بينهما على هذا الحد فيظهر ان شاعرنا كان يتتبع آثار ابى تمام في كل شيء حتى الف حماسة على مثال حماسته فانتشرت بالمغرب واغنت عن حماسة ابى تمام. اما الادب الاندلسي فنجد اثره واضحا كما نبه عليه المراكشي في ابن جبوس الفاسي الذي كان يشبهه بابن هاني المتنبي المغرب في القصد الى الالفاظ الرائعة والقعاقع المهولة واشار التقدير كما نراه من جهة الرقة والانطباع ممثلا في الوزير ابن عطية الذي يشبه الوزير ابن عمار في كثير من احواله. والخلاصة ان الادب المغربي هو غير الاندلسي وانه لم يتأثر به.

إلا نسبيا لان الأدباء المغاربة من غير شك كانوا يتعمدون مخالفة طريقه
زملائهم الاندلسيين في الشعر والنثر قصد مقابلة التحدي بمثله فان
الاندلسيين كانوا يكثرون على المغاربة من تعداد محاسن ادبائهم وابتكارات
شعرائهم التي بذوا بها غيرهم كما ترى ذلك في رسالة المفاضلة بين بري
العدوة ولم يكن لدى من أخذوا انفسهم بالتأدب لكم الانواء الصاخبة
بتعجيزهم الا أن يقارعوا الحجة بالحجة ويعارضوا الدليل بالدليل وهذا
غير الرق والتقليد. زيادة على أن هؤلاء لم يكونوا قد استغرقوا في
الحضارة والمدنية وانغمسوا في الرفاهية والبلهنية كما كان ذلك حال
الاندلسيين فكانت تغلب عليهم رقة الطبع ودقة التصوير بل كانوا لا
يزالون أقوياء النفوس أقوياء الطباع كما كان الشأن في شعراء المشرق
الذين نظرنا بهم وهم عرب اقحاح تنقلوا في البادية واعتادوا على
خشونتها فغلبت عليهم متانة الاسلوب وجزالة اللفظ

ويلوح لنا أننا بلغنا الغاية في تصوير الحياة الادبية الموحدة على ما
وصل اليه علمنا منها فلنضع لهذه الصورة إطارا من تراجم الادباء المذكورين
فيها يريدها على حسنهما حسنا

يحيى بن الزياتوني

احد شعراء الدولة المرابطية، من اهل فاس كان ادبيا اريجيا
خفيف الروح رقيق الحاشية متظرفا حسن المذهب له شعر بديع مطبوع،
ذكره ابن بسام واثنى عليه واورد واقعة جرت بينه وبين ابن زيدون

بمجلس المعتمد سنوردها مع شعره في الجزء الثاني، كإخبار بقية الشعراء الآتين وأشعارهم

ابن هبوس

هو أبو عبد الله محمد بن حبوس الفاسي الشاعر النابه المجيد قال المراكشي في المعجب كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانسي الاندلسي في قصد الالفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيشار التقعير، وكان في دولة لمتونة مقدما في الشعراء حتى نقلت إليهم عنه حماقات فهرب إلى الاندلس وجرى له بها امرر غريبة، وكان حظيا عند عبد المومن وابنه يوسف ونال في أيامهما ثروة

أبو جعفر بن عطية

هو الكاتب الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي المراكشي من فتيانها العصاميين الذين تبوأوا ذرى المجد بمحض جدهم واجتهادهم. كتب أولا عن ملوك لمتونة ولما ادبرت أيامهم حضر في بعض الفتوحات الموحدية مع أحد قواد عبد المومن فكتب عنه إلى عبد المومن رسالة بديعة يخبره فيها بالفتح ويصف كيفية الواقعة فأعجب بها عبد المومن وسأل عن منشئها فأخبر أنه أبو جعفر فطلبه لكتابة عنده ثم ترقى به الحال فصار وزيرا. قال في نفح الطيب: «وكانت وزارته زينا للوقت وكمالا للدولة» واشتمل عليه عبد المومن فبلغ منه منزلة كثر حساده عليها فكادوا له حتى أوقع بسنة 552 كما في القرطاس أو 553 كما في المعجب.

ويعبد أبو جعفر من اكبر الادباء الذين لهم التصرف التام في الشعر والنثر وآثاره كلها تتكافأ بلاغة وانسجاما. واقد شهد له عبد المومن بعد وفاته بعلو كعبه في الادب فانه امتحن الشعراء بهجوه فلما اسمعوه ماقالو أعرض عنهم وقال ذهب ابن عطية وذهب الادب معه

سليم بن المومن

هو صاحب السيف والقلم الامير أبو الربيع سليمان بن عبد الله ابن عبد المومن الكومي الموحي، كان من الكتاب البلغاء والشعراء المجيدين وهو اديب بني عبد المومن ونابعتهم الفذ. درج في بيت الرياسة والملك ولم يمنعه ذلك من الاشتغال بالادب والاكباب على التحصيل فنشأ متأدبا اريحا يتعشق المجد ويصبو الى العلى وما لبث ان قدم الى ولاية بجاية من قبل ابن عمه الخليفة يعقوب المنصور. ولما تار به علي بن غانية نقل الى ولاية سجلماسة. وكان في كلتا ولايته كعبا القصاد من ادباء البلاد ياتونه عاقلين الآمال على الطافه وبره فيصدرور عنه وكلهم السنة مدح وثناء عليه. وممن تحدث الينا عنه من ادباء الشرق التاج ابن حمويه السرخسي قال اجتمعت بالسيد ابي الربيع حين قدم الى مراکش بعد وفاة الخليفة يعقوب المنصور لمبايعة ولده محمد الناصر وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة واعمالها فرأيت شيخ بهي المنظر حسن المخبر فصيح اللسان بالمغتين العربية والبربرية. وقال صاحب المغرب في حقه لم يكن في بني عبد المومن مثله في هذا الشأن

الذي نحن بصددده وكان قد تقدم على مملكتي سجلماسة وبجاية وكان
كاتباً شاعراً أديباً ماهراً وشعراً مدون وله الغاز، له ديوان شعر جمعه كتابه
محمد بن عبد ربه المالقي وله أيضاً مختصر الاغانى وتوفى حوالي سنة 600

ابو العباس الجراوي

هو أبو العباس احمد بن عبد السلام الجراوي. من أهل مدينة فاس،
الشاعر الخنديد الهجاء المقذع. من أبرز الشخصيات الادبية في دولة
الموحدين خدم بشعره الخليفة عبد المومن وابنه يوسف وحفيده يعقوب
المنصور وكان له مع يوسف بالخصوص شأن غير شأنه مع الآخرين
فكان يعد شاعر دولته الخاص وكان لا يبرح مجلسه ووقعت له معه
نواذر غريبة تدل على رفيع مكانته منه. قال ابن خلكان: «وكان هذا
الاديب نهاية في حفظ الاشعار القديمة والمحدثه وتقدم في هذا الشأن
وجالس به عبد المومن ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب... وكانت له
نواذر نادرة وملاح مستظرفة عند أهل الادب.» وكان بندي اللسان
فاحش الهجاء هجاً قومه وبلده وكثيراً من أهلها فهو حطيئة عصره غير
مدافع. ثم قال ابن خلكان: «وجمع كتاباً يحتوي على فنون الشعر على
وضع الحماسة لأبي تمام الطائي وسماه صفوة الادب وديوان العرب
وهو كثير الوجود بأيدي الناس وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند
أهل المشرق... وله كل شعر مليح وكان شيخنا مسناً جاوز الثمانين
سنة وتوفي في آخر أيام يعقوب المنصور.» توفي بأشبيلية سنة 609

الخطابي

هو ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي نسبة الى قبيلة من صنهاجة من اهل مدينة فاس ويعرف بابن خبازة نسبة الى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة قاله ابن القاضي. هذا كان شاعراً فحلاً نهاية في متانة الشعر وروعته وجماله كأنما ينحت الكلام من صخر ويفرغه في قالب الاجادة والاحسان ثم يخرجهم وقد تحول الى صور شعرية بليغة النظم والتركيب سامية المغازي والمقاصد وأعانه على ذلك فقهه باللغة وروايته الواسعة للشعر مع حسن تفننه في اساليب البلاغة ومعرفته بما أخذ الكلام فلا يقرأ القارئ بعض قصائده الطنانة الا وهو يحسب انه يقرأ المتنبي ونظرائه من كبار الشعراء وقال ابن القاضي في حقه: «كان سريع البديهة ناظماً ناثراً مع الاجادة والتفنن في أساليب الكلام معرفة واثقاً في هزله وجدده على اختلاف اللغات.» ولا يعرف له ديوان مجموع على كثرة شعره اما لانه لم يدون اشعاره واما لان يد التلاشي لعبت به كما لعبت بكثير من آثار غيره من الادباء والعلماء، وعلى كل فليس الشاعر بالديوان ولا بكثرة رواياته والناقيل عنه، والا فكم من دواوين مكدسة في زوايا الخرائن ليس لاصحابها عافهم الله في الشاعرية من حظ ولا نصيب. وهكذا يقال في كل من مضى ويأتي من الشعراء الكبار الذين لم نذكر أن لهم ديواناً مجموعاً.

ولي الخطابي حصة الطعام بالعاصمة المراكشية وتوفي بالرباط سنة 637

ابن عبدون المكناسي

ابو عبد الله محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجي المكناسي، شاعر مطبوع من اكبر ادباء المغرب في هذا العصر. كان رقيق الحاشية شديد التطرف غزلا رقيقا بديعا. يجيد الوصف وله فيه مذهب حسن وعلى أسلوبه رونق وفي معانيه عذوية ولطف وخفة بل ان جملة شعره وجدان تفيض به روحه وينفجر به قلبه فلذلك تجده شديد التأثير في النفس حسن الموقع منها. توفي سنة 358 على ما عند ابن القاضي وفي الذخيرة السنية ما نصه: «وفي سنة 659 توفي بمكناسة الفقيه الاستاذ المقرئ الكاتب البارع ابو عبد الله محمد بن عبدون ابن قاسم الخزرجي اديب وقته وشاعر عصره في العشر الاول لذي القعدة منها. وهو غير ابن عبدون الاندلسي فان ذلك اسمه عبد المجيد.



عصر المرينيين

الوجوه السياسية

دامت دولة الموحدين الى آخر أيام الناصر ولد المنصور وهي مثال القوة والعظمة وجلالة الشان ورفعة السلطان، ثم اخنى عليها الذي اخنى على لبد وجرت فيها سنة الكون فتداعت اركانها وتقوضت دعائمها وسرعان ما سقطت من حلق الغر إلى حضيض الهوان كان فاتحة ما أصابها من الكوارث، وقعة العقاب المشؤومة التي تألبت عليها فيها دول النصرانية بخنادقها ودحرتها اندحارا شائدا بسبب ضعف القيادة وعدم اجتماع كلمة الرؤساء والمحاربين من جراء غرور الناصر وخيانة الاندلسيين له، فهو قد اغتر بكثرة ما حشده من الاجناد وجمعه من الاعداد فلم يابه لمقاتلة الاندلس الذين كانوا أعرف من غيرهم بشغور العدو وأبصر بمواطن الضعف من بلاده، وهم حيث لم يستشعرو وجودهم ولا عرف فضلهم عزموا على عدم مناصحته وبذل المعونة له وهكذا وقعت الكرة على المسلمين وبقيت هذه الواقعة عبرة للمعتبرين.

ثم فشت بعد ذلك جملة أمراض في جسم الدولة، ومات الناصر مكبوتا مغموما فانتشر بموته عقد رجالات الموحدين وظهرت خيانة رؤسائهم في اقامة ولده المستنصر مقامه وكان دون بلوغ ليمكنوا من الاستبداد

به والضغط على ارادته، كذلك ظهرت طماعية الولاة الذين أطلقوا أيديهم في أموال الرعية وأمتعتها، ونبغ دعاة الفتنة في كل صقع وقبيل وسلك المفسدون إلى الشر كل سبيل، أما الاندلس فلا تسلم عمانزل بها من الويلات والمحن إذ انقسمت على نفسها وتغلب الاشقياء فيها على الاطراف وانبرى العدو اليها ثانيا يسوم اهلها الخسف والعذاب. وأما افريقية فقد ابتدأت تستعد للانفصال تحت رياسة أمراء الموحدين الذين كان عبد المومن اقطعهم فيها الاقطاعات وسوغ لهم بها الجبايات فشاءوا الآن أن يجازوه جزاء سذمار بجحد نعمته وتفريق وحدة مملكته.

وبالاختصار فقد كثرت الفتوق في جسم الدولة وتعددت الاضطرابات هنا وهناك فاعوز رجل حديد الارادة مثل عبد المومن وأين نحن من عبد المومن وأين عبد المومن منا! وأنت خبير بمصائر الدول حين تصل إلى هذا الحد من الاختلال وسوء الادارة ولا تجد من يأخذ بضربها ويضطلع بتدبير شؤونها فلا استرسل في الحديث عن ذلك التدهور الفظيع والسقوط السريع.

انما الذي يستوقف النظر ويسترعى الفكر هو سرعة انقراض هذه الدولة واستيلاء الضعف عليها اغر وا قوى ما كانت فما هي الا غدوة الى الاندلس او روحة حتى قضى كل شيء ودخلت دولة الموحدين فجأة في دور الاضمحلال والعدم فادبل منها بنو مرين الذين عاجلوا فاجهزوا عليها قبلما تتمكن من رأب ضدوعها وعلاج ادوائها.

وفي الواقع انها لفُرصة نادرة اهتبلها هؤلاء الاعراب النازحون الى المغرب من الصحراء قصد الامتياز والتريع بمراعيه الخصبة على عادتهم في كل سنة حينما تجذب اراضيهم وتصوح نباتاتهم فما ان دخلوا المغرب هذا العام حتى وجدوا المعالم قد تبدلت والمشاهد قد تغيرت وخلت الاوطان من السكان وبقيت الحقول والمسارح هملًا من غير راع ولا متعهد فذمت وربت وكانما كانت تعرف ما سيؤول اليه امر هؤلاء الغرباء فأوتهم الى ظلها وبسطت لهم اكفافها فنزلوها وتقروها وطاب لهم بها المقييل فسمع بهم بقية اخوانهم فنسلوا اليهم من كل حذب واقاموا معهم مغتربين بما يصادفونه من الخصب والرخاء والعيش الرغد. على هذه الصفة كان دخولهم اولا الى المغرب ولما استقر بهم المقام ولم يجدوا من يقف في وجههم ويصد عاديتهم عن البلاد شجعوا واقدموا على شن الغارات والاجلاب بخيلهم ورجلهم على الحواضر والبادي. ومن هذا الوقت نشأت عندهم فكرة الاستيلاء والتغلب على المغرب فأقبلوا يعملون على تنفيذها وتحقيقها، وكذا الحوادث التاريخية الكبرى تبدأ عادة بسيطة ثم لا تزال تنمو وتستفحل حتى يعظم قدرها ويجل خطرها.

ولم تكن هذه القبائل، بنو مرين وزناتة عموما، في بلادها فوضى لا نظام لها ولا قانون، بل كانت خاضعة لاحكام الشرع الشريف في معاملاتها كما في احوالها الشخصية وكانت تقيم على رأسها زعيما كسائر القبائل يسمى بالامير تحقيقا لاستقلالها الذاتي. وفي حين دخولها

للمغرب كان هذا الأمير هو عبد الحق المريني راس هذه الدولة وابو الاملاك منها وكان رجلا فاضلا دينيا متورعا له نفوذ وجاه في قبائل زناتة كلها، فضل يجاذب الموحدین حبل الملك زمنا ثم قضى وخلفه اولاده ابو سعيد عثمان وابو معرف محمد وابو بكر فاستمر التنافس بينهم وبين ملوك الموحدین الذين ما كان اكثر عددهم واقل مدتهم على العادة في هذه الفترة التي يعقبها السقوط. ثم لما اذنت شمسهم بالزوال وظلهم بالانقلاب اوقع بهم بنو مرين في يوم (المشعلة) رقعة فاصلة لم يرفعوا بعدها رأسا ولا ابدوا حراكا. وجاءت نوبة يعقوب بن عبد الحق رابع الاخوة المذكورين فلم يكن من الصعب عليه ان يستاصل شافتهم ويحجث جذورهم (674) وكذلك خلص له الملك بالمغرب فاعلن نفسه سلطانا وتلقب بالمنصور.

تقص ظل الموحدین من المغرب واستتب الامر لبني مرين فلم يبق من ينازعهم في شيء، لذلك نرى ان مجال العمل المفيد قد اصبح فسيحا امام السلطان الجديد، انه ما هو لم يترك بعد ميدان الحرب والسياسة فتقدم الى افريقية يريد استلحاقها كما كانت في ايام الموحدین وهيئات ذلك فقد فات الفوت ودخلت تلك البلاد في ملكية بني عبد الواد وبني حفص القائمين بها ولم يبق محل للعملية التي اجراها عبد المومن لتحقيق الوحدة المغربية وضم اطراف البلاد الافريقية فتلك قد اكتنفها من الظروف المواتية ما لم يكن منه هنا قليل ولا كثير، لذلك كان الاقدام

على الحرب في هذه الحال مجازفة قلما تأتي بنتيجة غير الشر المستطير
فالذي ينبغي عمله حينئذ هو الاتحاد والتعاون على تشييد صروح العدل
والنظام واصلاح داخلية البلاد وتبادل المصالح المشتركة. واما الحرب
وخصوصا بين شعبين اسلاميين متجاورين فانما تسبب من الضرر والبلاء
ما يعسر مع طول المدة تداركه وتلافيه.

غير ان اولئك القوم لم يكونوا يحسبون هذا الحساب ولا يقيمون
لهذه الاعتبارات وزنا فلذلك لانعجب من تسابقهم الى تحقيق هذه الغاية
وهي الاستيلاء على بلاد افريقية مهما كنهم ذلك من الجهد والعناء ومهما
كان فيه من ازهاق الارواح البريئة وتقاتل المسامين بعضهم مع بعض.
ثم منهم من كان مرابطا دائما على معاقل تلك البلاد لا يرفع عنها الحصار
ابدا ومنهم من كان عكوفه على الحرب فيها سببا في نبوغ الثوار عليه
واختلال شؤون مملكته ومع ذلك لم ينقطع طمعهم فيها ولم تنشن غزيمتهم
عنها حتى جاء ابو الحسن فخر هذه الدولة واحد عظماء سلاطين المغرب
فلم يلبث أن فتحت له ابوابها على المصاريع ودخل اليها حتى وصل الى
تونس وضم المغرب كله بعضه الى بعض واخذ في تنظيمه واصلاحه على
طريقة تكفل له النجاح والتقدم، لاكن العربان الهمج من بني هلال الذين
كانوا يعيشون في الارض فسادا وياخذون الاتاوات من الناس ظلما
وعدوانا لما راوا شدة شكيمة على اهل البغى والعناد وجده في سد
ابواب المطامع وحسم اصول الفساد ثاروا به وقطعوا عليه خط الرجعة

فوقع في الشرك وعمي خبره على شعبه.

وجاء الطاعون الحارف فاخلى البلاد وافنى العباد فارجف الناس بموت
السلطان واختلت الامور وكاد اليأس يستولي على النفوس فوثب ولده
ابو عنان وبايع نفسه وانتصب على عرش والده المحصور في تونس فلما
سمع والده بذلك ركب البحر وقفل راجعا في اسطوله الذي كان ينيف
على الخمسمائة قطعة ولاكن القضاء المحتوم والشقاء الغالب والحسين المتاح
والخط السيء كل هذه كسبت على اسطول المغرب العظيم ان يتحطم في البحر
فتضمحل حينذاك القوة البحرية لهذا القطر الذي طالما جال بها وصال،
فذهبت مع امواج الخضم جميع القواد والابطال والرجال لاكن الخسارة
كل الخسارة في العلماء الذين كان السلطان لا يستغنى عنهم ويستعجبهم
في حضره وسفره وقد كان معه منهم في هذه الوجهة جم غفير فذهبوا
ضحية سياسته الهوجاء وهو نفسه إنما نجا على لوح من الواح بعض السفن
المتكسرة بقى يتخبط فوقه حتى رماه الموج في احدى شواطئ مملكته وكانت
هذه الذكبة مما ينقطع لها نياط القلب ولا يرقأ لها دمع العين.

ولما رجع ابو الحسن كان ولده قد ثبت مركزه وامر امره فلم يشأ
ان يتنزل له عن العرش فتقاتلا، وانه لمن المؤسف ان يقع هذا بين الولد
والوالد، وثبت على عهد الوالد رجال ممن صحت نياتهم وخلصت ضمائرهم
لاكن الوالد المسكين كانت ايامه في انصراف فلم ينشب ان توفي رحمه
الله وقد كان بنى فاحسن البناء انما لم يتم الله مراده. وقام الولد الشاب

وتتبع خطوات ابيه فتمسك بفتوحاته في تلك البلاد ونظر في احوالها
بعين الحكمة والسداد لاكن مالبث الامر بعده ان رجع الى مبداه وعياده
لتونس استقلالها وللجزائر ساططتها وبقي المغرب قائما بنفسه في اخريات
ايام هذه الدولة.

هذه كانت سياسة المرينيين في افريقيا وهي كما رايتها لاتدل
على مهارة وحسن تدبير بل غاية مسا فيها وتسبب عنها فعلا تفريق كلمة
المسلمين الموحدة وبذر العداوة بين قلوبهم النقية زيادة على اضعاف قوتهم
المادية والمعنوية مما يسهل طريق استيلاء العدو عليهم وتمكنه منهم.
ونحن اذا وقفنا محقين بجانب يوسف بن تاشفين ودافعنا عن سياسة
الناجحة في ضم الاندلس الى المغرب ورمينا في وجود خصومه بكل ما
تقولوه عليه، لا يمكننا هنا ان نقف مبطلين بجانب المرينيين وندافع
عنهم ونعتذر لهم لانه شتان بين عمل يوسف وعمل المرينيين ولئن جني
المغرب وجنت الاندلس من حركة يوسف ما جنياه من الثمار الصالحة
والنتائج الحسنة فلم يجن المغرب ولا افريقيا من سياسة المرينيين فيها الا
الحسائر المتوالية في المال والرجال وبالتالي تضعضع المركز الدولي الذي
كان لهما في العالم، وهذا امر ليس من صالح كلا الطرفين في شيء بل
ليس من صالح الشرق ولا الاسلام ولا العرب. على ان العقل لا يجوز
بسرعة امكان تغلب الدولة المرينية على هؤلاء وهم مثلها دولة ناشئة شديدة
الشكيمة قوية المراس فلم يبق الا انهم اخطأوا سبيل المصاحبة وهو الاتحاد معهم

على رد عادية العدو بالبلاد الاندلسية حتى لا يزيد طغيانه على اهلها ويعلم
ان من وراء اتحاد ملوك النصرانية اتحاد ملوك الاسلام فيقتل من غلوائه
ولا يشتط في عدوانه. ولو كتب ذلك لكان المسلمون متوطنين بانداسهم
الى الان لا ينقص عيشهم فيها شيء

ثم بعد ان تبينا هذه الناحية من سياسة بني مرين نصر ف النظر الى
ناحية اخرى من سياستهم وهي موقفهم بازاء الاندلس فمنها يظهر لك
مزيد اعتنائهم بافريقيا بل ربما يلتبس عليك الامر في التوفيق بين سياستهم
الاولى في افريقيا وسياسة الفتح والغزو وسيرتهم الشانية في الاندلس
المباينة لتلك تمام المباينة وذلك انهم في الاندلس كانوا قد اتخذوا ربطاً
وجنود المناوشة الاسبان في القتال ودفاعهم عن بلاد المسلمين. وكان
اول جيش ذهب منهم اليها في ايام يعقوب المتقدم الذكر وهو نفسه جاز
الى الاندلس اربع مرات لاتصال عن اعماله فيها ومواقفه المشرفة. فكانوا
يستولون فيها على الحصون والمدن العديدة لاكنهم لم يكونوا يتمسكون
بها ابداً انما كانوا يزفونها هدية الى امراء بني نصر وبني اشقيلولة اصحاب
الاندلس. وانك لتعجب من هذه السماحة وهذا الاشارة مما لالة له
الاحسن نياتهم في الجهاد فقط كما كانوا يصرحون هم انفسهم بذلك.
ولا تقل ان ذلك نتيجة العجز وعدم القدرة على اقتحام الاندلس وضمتها
الى المغرب فان من يجزؤ على حرب دولتين فتينتين من دول البربر
الصميمة بافريقيا لا يتهيب حرب بني الاحمر خصوصاً وقد كانوا في حرب

دائمة مع بني اشقيلولة يمكنه ان يغتنم فرصتها فينقض عليهما معا او يحالف احد الطرفين فيتموى به على الاخر. ولا تقل ايضا ان البحر كان هو الحاجز بينهما والمانع من تنفيذ هذه الفكرة ولو طافت برؤوس السلاطين من بني مرين لانا نعلم ان اسطول المغرب في ذلك الحين كان من الاساطيل التي تضرب بها الامثال وقد ذكرنا ان جملة قطعه التي كانت مع ابي الحسن في وقعة افريقيا خمسمائة قطعة فلا يجوز ان يقال ان البحر هو الذي كان حائلا عن إقدامهم على شن الغارة على الجزيرة الاندلسية وانتراعاها من ايدي مالكيها والمتصرفين فيها. واذا لم يكن هذا ولا ذاك هو السبب الحقيقي في انصرافهم عنها الى افريقيا فليكن هذا السبب الذي تذكره وهو الذي تؤيده وقائع الاحوال وشواهد العيان، فالمرينيون خلف الموحدين كانوا يعرفون ما نزل بسلفهم من الضعف والانحلال بسبب ذلك القطر الاندلسي ومحافظتهم عليه ولئن قيل انه كان سبب عزهم ومجدهم فقد يقال ايضا انه كان سبب تعسهم ونحسهم فمن المحقق انه لولا واقعة العقاب لم يكن المرينيون ان يستولوا على المغرب ويقاصوا ظلال نفوذ الموحدين عنه، فهذه العبرة التاريخية هي التي كانت تنذيرهم عن المغامرة في اخذ الاندلس وانتراعاها من ايدي من كانت في ايديهم من بني نصر وبني اشقيلولة. ولو فعلوا لدبحوا في ذلك من اول وهلة لا كئيبهم كانوا ينظرون الى العاقبة فيخوفون منها ولنفرض انهم اخذوها أليس ما يلزمها من التحصين الدائم والدفاع المستمر منهكا لقواهم كاسراً

لشوكتهم يوماً ما كما سبق ففعل بالمرايطين وبني مرين؟ نعم فنظرهم
هنا سديد واسد منه نظرهم الى توحيد افريقيا لو كان ممكناً اذ ذاك
ولذلك فقد انصرفوا عن الاندلس انصراف المختار لا اليأس ثم اقبلوا
على افريقيا فلم يغن حذر من قدر وكانت هي السبب في ضعفهم وانحلال
قوتهم كما لو ذهبوا الى الاندلس فيما كانوا يقدرون وقولنا انهم انصرفوا
عن الاندلس ليس على اطلاقه فقد قدمنا انهم كانوا يقيمون فيها الرابطة
والمقاتلين بل لقد كان ملوكهم كثيراً ما يعبرون اليها فيقيمون فريضة الجهاد
خالصة نياتهم في ذلك تقية ضمائرهم ولقد قاموا باكثر مما يجب عليهم
من ذلك ولاقوا من العدو الذي كان يراوهم ويبعث بالعهود التي يعقدونها
معه اذى كثيراً وكان يتعرض لسخطهم فينزلون به اشر انواع النقرة
وأقسى الوان العذاب. وهم في ذلك محقون ومنصفون وكل من علم
بعد الشقة وتحقق صعوبة ركوب ثبج البحر في ذلك العصر لانقاذ
المستصرخين وحماية الضعفة من اهل الاندلس عذر هؤلاء المغيرين اذا
أتوا حنقين غصافي فاقصوا منه على قدر فعله وجاوزه بما يستحق فانه
كان يتركهم حتى يعودوا الى مواطنهم بعد ان يكونوا عقدوا معه الهدنة التي
يكون هو الطالب لها فينقض على جواره من المسلمين ويفعل فيهم الافاعيل
فمان يصل الصريخ الى فاس وتاتي النجدة حتى ينفذ الوعيد ويسبق
السيف العذل

وفي المدة الاخيرة التي وصل فيها النكت الى اقصى حد استطاع

لم يقدر السلطان ان يصبر على ذلك فاناخ بالقوم وبقى مرابطا على بلادهم
نحو من اربع سنوات حتى كاد يفنيهم وعادت ارضهم قاعا صفصفا
وخصرهم في نقطة ضيقة لم يستقم لهم فيها عيش ولا قر لهم بها قرار
فاعياهم التوسل وطلب الصلح حتى قاموا بكبارهم وصغارهم وانكروا
ملكهم السدي رج بهم في هذه المخالفات وتقدموا بشيهم وشبابهم
امامهم القساوسة والرهبان وكبار رجال الديانة فصاروا يتمرغون بين يدي
السلطان ويطلبون عفوه عنهم. وانه لموقف حازم حيث امرهم ان يرجعوا
من حيث جاءوا وان ارادوا شيئا مما يطلبون فليحقوه بعاصمة فاس
فهناك يمكن القول. وقد زادوا في الاستعداد واصطحبوا معهم رئيس
الرهبنة الاكبر وعبروا اليه على ظهر عمارة بحرية مغربية ولما وصلوا
الى فاس وجدوا البلاد في مهرجان فاخر فرحاً بالانتصار الباهر واذلال
العدو الماكر ومثلوا بين يدي السلطان وقدموا الهدايا والمطالب معافما
كان اسرعه في اجابتهم وانصفه في رعى حقوق جوارهم! وقد عمرت
الهدنة بينهم هذه المرة طويلا اذ شغلوا برأب صدوعهم وكان ملكهم
في هذه الفترة يتودد الى السلطان وعقد عنده قرضارهنه فيه تاجه
واستعدى به على ابنه الخارج عليه فامده السلطان بالجيش الاسلاميه
لتسرد ايه عرشه، وهكذا كانت معاملة المسلمين للاروبيين في القرون
الوسطى فهل اتاك نبأ معاملة الاروبيين للمسلمين في القرن العشرين ؟
ولاكن دعنا من هذا ولننظر في موقف ملوك بني نصر الاندلسيين

بازاء الدولة المرينية لتتعرف بعد ذلك على من تقع مسؤولية ضياع الاندلس
فقد راينا من قبل موقف الاندلسيين المرذول، موقف الفضيحة والعار والجبن
والخداع والخيانة والخذلان في وقعة العقاب المشؤومة حتى تسببوا في
تقوض اركان تلك الدولة الشاخصة وادخلوا الضعف على الامة المغربية التي
لم تكن تعرفه او تسمع به. وفي ايام المرينيين نجدان هؤلاء الذين سموا
انفسهم ملوكا بينما يستجدون باسود العرين من بني مرين فيخرب هؤلاء
لمساعدتهم واتقاذهم بدافع الرغبة في الجهاد والذب عن بيضة الاسلام، اذ
يتحالفون مع الاعداء عليهم فلا يكاد جنود الله يركبون البحر حتى يجدوا
العدو في اساطيل اولئك المستصرخين كما منا لهم معترضا كالشجى في حلق
الزقاق فتتشب الحرب ويشتد ضرامها فلما حين يكتب النصر للمسلمين
وهو الغالب فان الناكثين يعتذرون ويقدمون انفسهم للخدمة ولا يعدمون
من وسائل النفاق واساليب الخداع ما يسترضون به السلطان واما في
حال غلبة العدو فانهم يولونه ايضا الادبار خشية تقويه عليهم فيرجعون
لبني مرين ايضا لانهم ليس لهم عضد ولا ناصر غيرهم. ولقد حدث مرة
ان ارسل السلطان راس احد القواد الاسبان ممن اوقع بالمسلمين وقائع
فظيعة، ارسله الى ملك بني نصر ليظهره الى المسلمين فيحمدون الله الذي
امكن من عدوهم الالدود. لآكن ملك بني نصر طيبه وجعله في صندوق
مخلى وارسل به الى ملك الاسبان يتماقه فانظر الى التخاذل كيف يكون
والى السقوط من حالق الغر الى حضيض الهون!

ولا يظن القارىء انهم كانوا يخافون منهم على بلادهم فقد قدمنا ان فكرة الاستيلاء على الاندلس لم تدرك قط بخلد ملوك المرينيين والافهم لو ارادوها لم تعجزهم بحال وقد قدمنا انهم لما كانوا يستولون على حصن او بلد سرعان ما يسامونه اليهم قاصدين بذلك ازالة النفرة من انفسهم وتقوية الروابط معهم ولم يكونوا يبقون بايديهم الاجبل طارق والجزيرة الخضراء وجزيرة طريف وهذه إنما يبقونها لربط خيط المواصلات بين العدوتين وإنزال المقاتلة وادخار المؤن مما مصلحته عائدة على الاندلس، لا كمن اولئك القوم لم يكونوا يراعون هذا الجميل وانما ينظرونه بعين عوراء واخرى مغمضة

وماذا حدث بعد ذلك؟ حدث ان الدولة المغربية لم تبقى على شيء من القوة بسبب ما استنفذت من مجهودها شدة الحروب الطاحنة. ثم قامت قيامة بني مرين بالتهالك على السلطة وتنازع الامارة فانهى الامر بسقوطهم وانتصاب دولة بني وطاس، وهم فرع من بنى مرين الا انهم ليس فيهم غنائمهم فضعفت الامة ومرج امرها واشتعلت بمشاكلها الداخلية وحروبها الاهلية فكانما بدلت الارض غير الارض والناس غير الناس. وفي هذه الاثناء كانت النداءات على العادة تتوالى من اهل الاندلس على المغرب وهو لا يستجيب لنداء لانه كما علمت منتهجاً بضرع بالدماء نعم كان يتسرب اليهم ءاونة بعد اخرى فوج من متطوعة المقاتلين ومتحمسة المجاهدين ولاكن كان جهده ان يبلغ الاخبار ويبسط الاعذار

والعدو اذ ذاك لام شعثه ءأخذ أهفته قوي متحد مينخ بكلدكله على
المسلمين يذيقهم العذاب المهين حتى حصلت الكارثة ونفذ سهم القضاء
ولا حول ولا قوة الا بالله

قلنا انه لما سقطت دولة المرينيين خلفتها دولة الوطاسيين الا ان
هذه لم يصحبها توفيق فكانت ذنبا طويلا للدولة المرينية يجري عليها
ما يجري على اعقاب الدول من مصاحبة الفشل ومعاناة العثار وقد بقيت
كذلك حتى اخلت المكان للدولة السعدية التي سنتكلم عليها بعد هذه
في دائرة العروبة

يقول المؤرخون ان بني مرين فخذ من زناتة يمتون في عداد
قبيلتهم هذه الى قيس عيلان فهم عرب خالص لا شك في ذلك. وقال
شاعرهم عبد العزيز الملتروزي في نظم السلوك

فجاءت زناتة البرابرا	فصيروا كلامهم كما ترى
ما بدل الدهر سوى أقوالهم	ولم يبدل منتهى احوالهم
بل فعلهم أربى على فعل العرب	في الحال والا يثارتهم في الأدب
فانظر كلام العرب قد تبدا	وحالهم عن حاله تحولا
لا يعرفون اليوم ما الكلام	وما لهم نطق ولا افهام
وان تمادت بهم الاحوال	لم تبق في الدهر لهم أقوال
كذلك كانت قبلهم مرين	كلامهم كالدر اذ يبين
فاتخذوا سواهم خليلا	فبدوا كلامهم تبديلا

وهذا ظاهر على القول بعربية البربر، والخلاف في ذلك شهير
فلا نطيل به هنا. وله عندنا محل آخر غير هذا الكتاب الذي اهتمنا
فيه بالنتائج اكثر من المقدمات.

والواقع أن بني مرين كانوا يعملون للنهضة وانتجدد في دائرة العروبة
لا يخرجون عنها أصلاً، فخدموا العربية خدمة صادقة ورفعوا لها منارا
عاليا وكفى أنك لم تسمع بعد توليتهم الحكم بشيء من التمييز الذي
كان للبربر في دولة بني مؤمن، بل كان هذا آخر العهد بحياة الفرقة،
وضم شمل البربر والعرب جامعة العروبة والاسلام فلم يتفرقوا بعد
ذلك الى الان.

ولقد أعاد السلاطين من بني مرين الى اذهان الناس ما كان من
أبهة الخلافة الاموية بالاندلس في قصورهم ومبانيهم ورؤسائهم وجنودهم
فكان خروج السلطان لصلاة الجمعة والعديد من المناسبات الاخرى يقع
في مشهد عظيم وموكب فخيم وكانت هذه المظاهر الشائقة كثيرا ما
تغري كبار الذوات العلمية والادبية في الاندلس والمغربين الاذنى
الاوسط فيفسارقون بلادهم غير آسفين عليها ويؤمنون الحضرة الفاسية
حيث يتمتعون في كنف الدولة المرينية باسنى ما كان يتمتع به
رجال الدول السالفة كالعباسيين والامويين مما سمعوا به ولم يروه.
وكفى بابن خلدون وابن الخطيب وابن زمرك وابن رضوان وابن مرزوق
وابن جزري وكثيرين غيرهم من العظماء الذين تفيثوا ظل هذه الحضرة

المرينية وتقبلوا في نعمتها لما انها كانت في عصرها حامية بيضة الإسلام وموئل العروبة، دليلا على ما تقول

ولقد سار أولئك السلاطين في إقامة مراسم الخلافة على سبيل لاجب فكانوا يعقدون المجالس للمناظرة والمحاضرة ويطارحون الادباء ويحاورون الشعراء. أما العلماء فلا تسئل عن شدة تقربهم لهم واختصاصهم بهم حتى إن جمهورا منهم ذهب ضحية هذا التقريب والاختصاص في وجهة ابي الحسن الافريقية كما سبق القول. ولقد بدوا بآثارهم العلمية جميع من تقدم أو تأخر من ملوك المغرب، فمدارسهم الفنية العديدة لم يستطع احد أن يأتي بمثلها الى الآن. وخزائن الكتب كذلك لا تزال تنطق بفضلهم على الحركة العلمية في هذه البلاد منذ اسسوها. والمساجد والمشاهد والمنشآت التي خدموا بها الدين كثيرة ايضا. ناهيك بأن ابا عنان منهم هو أول من نصب صواري الصوامع ونشر فيها الاعلام⁽¹⁾ في اوقات الصلاة نهارا والشرح ليلا يستبدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء وجعل علم يوم الجمعة ازرق للاستذكار. وفي ذلك اعتناء بامور الاوقات وما يتعلق بها من وجوب الصلوات وما يترتب عليها من وجوه الحقوق في العادات والعبادات وفيه قيل

نور به علم الايمان مرتفع للمهتدين به للحق ارشاد
ياتون من كل صوب نحوه فلهم لديه للرشد إصدار وإيراد

(1) ولا نظير لذلك الا في بعض بلاد الشام خاصة بالظهر والنصر والمغرب التي يفيد فيها نشر العالم

وفي الحقيقة ان كل واحد منهم كان مثالا للملك العربي المسلم
العامل لعز قومه ودينه فلا يفتأ يجد ويجتهد في إشادة امجادهما
وتخليد مآثرها

وبقدر حرصهم على الوحدة المغربية الذي قدمنا الكلام عنه وقلنا
انهم أخطأوا الطريق اليه، كان حرصهم على الوحدة الاسلامية عموما
فانت قد رأيت مقدار تفانيهم في الدفاع عن معقل المدنية الاسلامية
والحضارة العربية في بلاد الاندلس ومبلغ نصحتهم لما وكها حتى انهم
كانوا معهم مثل الاجراء يعملون لهم لكن بسدون أجرة بل هم كانوا
يدفعون اليهم المبالغ الطائلة من الاموال والعدد والاعداد. كذلك كانوا
على اتصال دائم بملوك الاسلام في مصر والشرق فكم كاتبوهم وهادوهم
وعقدوا اواصر المودة والاتلاف معهم وأوفدوا اليهم الوفود والسفراء
من خيرة رجال المغرب الاداريين وذوي العلم والادب وأهل البيت
المالك، كل ذلك يداننا على ما كان لهم من صدق النية واخلاص الطوية في
خدمة الدين والوطن وتعزيز الراوابط الجنسية والملية بينهم وبين الدول
العربية والاسلامية المعاصرة. فلا جرم بعد هذا أن نقول ان كل اعمالهم
ومثاليهم للنهضة والتجدد كانت في دائرة العروبة لا تريغ عنها قيد فتر
وانهم خدموا العربية خدمة صادقة ورفعوا لها منارا عاليا وما بعد العيان بيان.



الحركة العلمية

إن تأثير الانقلاب المريني على الحالة الاجتماعية لم يكن ذلك التأثير القوي الذي تبدل معه معالم الامور وتغير مجاري الاحوال، لذلك فان الحركة العلمية قد بقيت في نشاطها وتقدمها كما كانت على عهد الموحيدين، وان كان قد اعترافها في فترة الانقلاب بطبيعة الحال شبه انقطاع او فتور فانها بعد ان انتصبت الدولة المرينية وتشدت اركانها قد عادت فاسترجعت ما كان لها قبل من القوة والظهور.

انما لا ننكر أنه قد وقع بعض انحراف عن الاتجاه الذي كانت متجهة اليه في العصر السابق، بما أن صبغة الدولة الجديدة عربية محضة وبما أن ذلك الاحتكاك بالانديلسيين وغيرهم ممن كانوا خاضعين للسلطة المغربية في عهد الموحيدين لم يستمر الى عهد المرينيين ولا اعتبارات اخرى لا مجال لاستقصائها هنا وسيظهر أثرها جليا بعد بسط الكلام على هذه الحركة العلمية العصرية.

نعم لقد استأنفت الحركة العلمية سيرها الى الامام في ظل الدولة المرينية التي ما فتئت ترعاها وتشجعها بمد يد الاعانة الى رجالها وتنشيطهم حتى ينصرفوا لخدمتها بل ان رجال الدولة أنفسهم كانوا يقدمون لها أجل الخدمات مما لا يقوم به الا أجل العلماء. اذ كان الواحد منهم يكب في نشأته على الدراسة والتحصيل ولا يمنعه ما هو مأخوذ به من قيود المال وأدوات الرئاسة ان يدأب على النظر في فنون العلم والمعرفة

حتى يصير من رجالهما المعدودين، فقد كان ابوسعيد عثمان وكذا والده أبو يوسف يعقوب ممن لهم اليد الطولى في الادب وعارضة قوية في قرض الشعر وكان أبو الحسن من كبار العلماء ففي حياة والده كان محسوبا في أطباء الخاص وفي مدة توليه الحكم أكثر من مجالسة العلماء والادباء ومذاكرتهم ومحدثتهم وكان شديد الإلف لهم لا يصبر على مفارقتهم وكل جنس لجنسه الف.

ولكن ما بالناس نذهب في غير مهيع، فلنرجع نفصل الكلام في كل باب باب كما فعلنا في عصر الموحدين. واهل القارىء لا ينال يذكر اننا قسمنا العلوم هناك إلى ثلاثة أقسام فالعلوم الشرعية، والعلوم الادبية، والعلوم الكونية :

أما العلوم الشرعية وهي الفقه والحديث والتفسير وتوابعها فقد نحى فيها منحى التبسط والتفريع، وان يكن شيء من ذلك قد وقع في العصر قبله، الا انه في هذا العصر قد زاد الامر زيادة ظاهرة وبلغ التوسع في ذلك منتهاه. يدلنا على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا العصر والتأليف العظيمة التي وضعت في فروع الشريعة. ونحسب أن ذلك كان نتيجة الضغط على رجال هذه العلوم في عصر الموحدين والتحرش بهم، وإن الضغط يعقبه الانفجار كما تعلم فكان هذا هو رد الفعل على تلك الحركة الهوجاء المنافية لاستقلال الناس في أذواقهم ومشاربهم وحريرتهم في أعمالهم ومآثرهم.

وإذا صح اعتبار هذا السبب هو الباعث على نشاط هذه العلوم من جديد وروجانها هذا الروجان كله، فلا يصح اعتباره سبب ما طرأ عليها من التضخم والذماء إلا من طريق غير مباشر، وهو مما أشرنا إليه من كثرة المشتغلين بهذه العلوم فكثير البحث والتعمق في البحث، فكثير الاستنباط والتفريع في الاستنباط، فكثرت مسائل هذه العلوم كثرة لا مزيد عليها. دع عنك أن الطلبة في هذا العصر كانوا لا يستنكفون من الطلب ولو بعد بلوغ المرتبة العليا في التحصيل فقد كانت هناك طبقة منهم لا يمكن أن يقاس بها أكابر علمائنا الآن، لا تفتر عن الطلب وهي بد من كبار العلماء. واعتبر بما حكى عن الكانوني، وكان من أئمة الفقه الذين لا يشق لهم غبار، أنه كان يدرس المدونة بالقرويين ويأتي عليها بأبحاث وتعليق وشروح مستجادة فكان يجلس إليه أكثر من مائة معمم. وهذا أيضاً حافز قوي لما ذكرنا كان من نتيجته أن اتسعت دائرة هذه العلوم اتساعاً عظيماً.

ونقول أن هذه النهضة المباركة التي نهضها علم الفروع بسبب الإقبال الشديد على طلبه. قد أفادت العلم من حيث هو وأفادت الأسلوب العلمي أكثر، حيث قد ادخلت عليه تحسيناً مشهوداً في آثار علماء هذا العصر الممتازة بكثرة الجمع والتحصيل وحسن التصرف والتعليل، وفي دروسهم التي كانت كأنها بحار ترخر بالفوائد وترمي بالفرائد فهذا أبو محمد الوريانلي أحد صدور الفقهاء وممن كانت إليه الرحلة في عصره

لأنه كاد يتفرد بمرتبة الاجتهاد وكان يعرف المذاهب الاربعة معرفة جيدة فكان يدرسها ويرجع مذهب مالك وكانوا يقيسونه في علمه بالمارزي ولا يعدون به طبقته. وأجوبته تدل على غزارة معرفته إذ لا يذكر فيها الا الخلاف العالي. قالوا وكان من عاداته أنه يشتغل بالتدريس في فصل الشتاء والربيع وفي المصيف والخريف يربط بالشغور فهل بقيت بعد هذا غاية في هذا الباب؟ وهذا ابن الصباغ أملى على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير اربعمائة فائدة كلها مما استخرجه بفكره الثاقب من هذا الحديث الشريف!

والغاية في هذا الباب ما روي عن ابي القاسم عبد العزيز بن ابي عمران موسى العبدوسي أحد افراد بيت العبدوسي الذين ظلوا رجالا ونساء حاملين راية الفقه والحديث بفاس والمغرب زمانا طويلا. وقد رحل أبو القاسم هذا إلى تونس ودرس بها ففضى التونسيون العجب من وعيه للعلوم وكثرة حفظه. وكثير من علمائهم أوقفوا دروسهم وحضروا عنده رغبة في الاخذ عنه واتصال السند به. وكان الناس يستبقون إلى المسجد ويأخذون مجالسهم فيه قبل صلاة الصبح وتنص بهم رحاب المسجد فيجلسون خارجه حتى يكون من بخارجه أكثر ممن بداخله وكان هو يسمع الكل بصوته الجهير. ولما رأوا تفرده باتقان علوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير قالوا انه لا يحسن غيرها فاقترحوا عليه أن يعتمد لهم درسا في العربية فدرسها أيضا وبهرهم ما شاهدوه منه مما هو

فوق الطاقة فأجمعوا حينئذ على إمامته وتفوقه في العلوم وأنه لا يضاهيه في جمعه وتحصيله أحد من المعاصرين سواء بأفريقيا والمغرب.

وبعد فاسمع ما يقوله علماءها عنه نقلا عن أحمد بابا: «قال القاضي أبو عبد الله بن الازرق كتب الي أبو عبد الله الزليدي المفتي بتونس يعرفني بحاله من الحفظ مما يقضي منه العجب انه ورد علينا في أخريات عام سبعة عشر وثمانمائة الفقيه العالم الحافظ أبو القاسم بن الشيخ الإمام أبي عمران موسى العبدوسي بكتاب في يده من قبل الامام أبي عبد الله ابن مرزوق يقول لنا فيه يرد عليكم حافظ المغرب الآن فقلنا هذا من قبيل مبالغات الاخوان في التوصية باخوانهم، فلما اجتمعنا به وأقام عندنا ازيد من عام رأينا منه العجب العجاب من حفظ لا نتوهمه يكون لاحد. ولقد كان عندنا بتونس الشيخ أبو القاسم البرزلي، سلم له معاصروه في حفظ الفقه وأشياخ المدونة والناس دونه في ذلك وببجاية الشيخ أبو القاسم المشدالي كذلك وحضرنا مجالسهم، فما رأينا ولا سمعنا بمثل العبدوسي في حفظه وعلمه وعلمنا صدق ابن مرزوق فيما وصفه به وكان كما قال الشاعر:

✽ فلما التقينا صدق الخبر الخبر

بل صغر الخبر الخبر». ثم قال في وصف درسه: «وكذلك فعلت انا تركت مجلس تدريسي وحضرت عنده لأخذ شيئا من طريقه، فرأيت شيئا لا يدرك الا بعناية ربانية، موقوف ذلك على من رزقه الله الحفظ ينفق منه كيف يشاء. لازمناه حضرا وسفرا وعلمنا طريقه تفكرا ونظرا ولا

يقدر على طريقته الا من رزق فطنة كاملة الاستواء ممددة من جميع القوى الروحية والبدنية.

أما اذا أقرأ المدونة فاستمع لما يوحى: يبتديء في المسألة من كبار اصحاب مالك ثم ينزل طبقة طبقة حتي يصل الى علماء الاقطار من المصريين والافريقيين والمغاربة والاندلسيين وأئمة الاسلام وأهل الوثائق والاحكام حتى بكل السامع وينقطع عن تحصيله الطامع، وكذا إذا انتقل الى الثانية وما بعدها. هذا بعض طريقته في المدنة.

وأما اذا ارتقى الكرسي، يعني كرسي التفسير، فتري أمرا معجزا ينتفع به من قدر له نفعه من الخاصة والعامة يبتديء بأذكار وأدعية مرتبة يكررها كل صباح ومساء يحفظها الناس ويأتونها من كل فج عميق. وبعد ذلك يقرأ القاريء عاية فلا يتكلم بشيء منها الا قليلا ثم يفتتح فيما يناسبها من الاحاديث النبوية واخبار السلف وحكايات الصوفية وسير النبي وأصحابه والتابعين. ثم بعدها يرجع الى الآية وربما اخذ في نقل الاحاديث فيقول الحديث الاول كذا والثاني كذا والثالث كذا الى المائة فزيد ثم كذلك في المائة الثانية والشك في الثالثة» ثم قال:

«وكذلك فعل في اقراءه للعربية فبدأ باصحاب سيبويه ثم نزل الى السيرافي وشراح الكتاب وطبقات النحويين حتى مل الحاضرون وكلوا وما زال كذلك حتى ذهبوا ولم يرجع في ذلك وقد كان قصدهم اختباره وامتحانه» هـ بتصرف يسير للايضاح.

ودون هذه العوامل المختلفة التي أدت الى نشاط علم الفروع ذلك النشاط العظيم، فان هناك عاملا آخر لا يقل عنها شأنًا في هذا الصدد، وهو ما كان لطلبة العلم المذكور في هذا العصر من سمو المنزلة عند الخاصة والعامة بسبب وقوفهم مع الحق وسيرهم على الجادة، فكان أن عظمت سلطتهم على النفوس وقوي نفوذهم في رجال الدولة، فالتوى والقضاء ومناصب الشرع كلها كانت مستقلة عن التدخل الحكومي أو التعرض لها من الرؤساء وكلمة القاضي كانت نافذة في أكبر كبير كاصغر صغير. وحسبك أنه لما وقع الشجار بين القاضي ابي الحسن الصغير والوزير ابن يعقوب الوطاسي، بسبب تعقب هذا الاخير لحكم القاضي، لم يكن من السلطان الا أن سخط على وزيره وعزله شر عزل.

وهذه المكانة التي كانت لرجال الدين عند الشعب، هي التي جعلت العلامة الورياغلي يشور بأخر سلاطين بني مرين، ويقلب الدولة المرينية رأسا على عقب، لما سول للسلطان أن يولي على فاس رجلا يهوديا يسوم أهلها سوء العذاب. أرايت الى أي حد بلغ نفوذ الفقهاء في الامة فلم لا ينصرفون لخدمة علمهم الذي به رقوا هذه الدرجة من المحبوبة؟؟ ثم فيما بقي من العلوم الشرعية مثل التصوف والكلام لا نرى انهما كانا منتشرين بكثرة، لما علم من أن السداجة التي نخيم مع الفقه حين تدول الدولة له، لا تجامع التصوف ولا الكلام. وأنت قد رأيت الحرب التي قامت بين التصوف والفقه في أوائل العصر الماضي، وبين الفقه والكلام

في أنثائه، إلا أن النتيجة هنا لم تكن كالنتيجة فيما سبق. فلم يقض الفقه على التصوف ولم ينتصر الكلام على الفقه بل كلا هذين العلمين خضعا لسلطان الفقه ولا سيما التصوف وما أحسن التصوف يسير في ظلال الفقه! إذ يكون هولب الشريعة المكنون وسرها المصون. وقد كان من أقطابه في هذا العصر ابن عباد وابن الحاج والشيخ زروق. وكتبهم فيه لا تزال من خير المراجع لرجاله الخيرين.

وإذ قد تبينت هذه الظاهرة التي كانت غالبية على علم الفروع في هذا العصر، نقول لك إنها طريقة إصلاحية اختص علماء المغرب دون غيرهم بالعمل عليها والدعوة إليها. إذ في هذا الوقت بدأ العمل بتلك المختصرات العقيمة وسرى هذا الداء الويل، داء الاختصار، إلى العلوم الإسلامية عامة فقلل فائدها فكان علماءنا يشددون التكبير على ذلك ويصدون الطلبة عن قراءة الكتب التي نحى بها أصحابها هذا المنحى. ويروى عن القباب أنه كان يقول إن ابن بشير وابن شاس وابن الحاجب أفسدوا الفقه. ولما حج اجتمع بابن عرفة في تونس فاطلعه ابن عرفة على مختصره الفقهي وقد شرع في تأليفه فقال له القباب ما صنعت شيئا، فقال ولم؟ فقال إنه لا يفهمه المبتدي ولا يحتاج إليه المنتهي. فتغير وجه ابن عرفة حينئذ. قالوا وكان هذا هو السبب الحامل له على بسط العبارة في أواخر مختصره:

ومثل القباب في ذلك الزيناسني الفقيه الكبير، فانه كان صاحب

ابن شاس واستشاره هذا في وضع مختصره الجواهر فاشار عليه الا يفعل فلم يعمل ابن شاس باشارته. وقد المعنا الى الاثر السيء الذي أثرته هذه المختصرات في العلوم الاسلامية بالخصوص، وراجع الفصل التاسع والعشرين من المقالة السادسة من مقدمة ابن خلدون لتعرف تأثيرها في العلوم مطلقا فلا ريب إذا عددنا ما اتبعه علماءنا المغاربة في هذا العصر طريقة إصلاحية. ومهما تجوزنا في الكلام وعممنا في الاحكام، لا يمكننا أن نهمل الإشارة إلى علم اصول الفقه وعلم القراءات وما نالهما في هذا العصر ايضا من العناية الخاصة، والاول من توابع الفقه والثاني من توابع التفسير فالاصول كثر دارسوه وظهرت طبقة ممن كادوا يختصون به فوضعت فيه التأليف المهمة وطبعته بطابع الفقه المالكي مما لم يتهيأ لغيرهم قبل. والقراءة ونعني بها ما يشمل التجويد والرسم والقراءات المأثورة والغريبة وتوجيهاتها، ما من أحد من صدور فقهاء هذا العصر إلا وكان له إلمام بها كلا أو بعضاً، وقد وضعت فيها التأليف أيضاً، إلا أنها على كل حال لم تبلغ في هذا العصر ما بلغت من الذيوع في العصر بعد هذا.



هذا ما يرجع إلى العلوم الشرعية والنشاط الذي طرأ عليها في هذا العصر والجهود العظيمة التي بذلت في خدمتها حتى بلغت في الجملة إلى المستوى اللائق بها. فلننتقل الآن إلى علوم الادب لننظر كيف كان سيرها في هذا العصر أيضاً. ونقول: انها قد جارت سنة النشوء والارتقاء

فبلغت الى قمة المجد والكمال وكان هذا عصرها الذهبي في المغرب،
والنابغون فيها في هذا العصر كانوا أساتذة من بعدهم بل طبقت شهرتهم
العالم العربي وما تزال ذكرهم فيه حية الى الآن.

فاما النحو واللغة فانهما لم ينالا قط من التقدم ما نالا في هذا العصر،
وذلك لان الدولة عربية تقدر مجهود العاملين على رفع شؤون العروبة.
ومن النوابغ فيهما ابن ااجروم والمكودي وابن ابي الربيع وابن هانيء
وابن المرحل وابو القاسم الشريف وسواهم. وانت يكفيك من هؤلاء
ابن ااجروم ذلك الرجل الذي استطاع ان يخلد اسمه ابد الدهر
بوريقات لا تتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة، لا تحتوي على تفكير
عميق ولا على فلسفة جديدة وانما هي قواعد من علم النحو مقررة لدى
الجميع فما السر في هذا الخلود الذي أتيح لهذا الرجل حتى لقد فتح
لنفسه مجالا بين جدران مدارس القرن العشرين، وحتى لقد اطلق
الناس اسمه على النحو ~~كان~~ ما هو واضعه فقالوا الاجرومية وارادوا
النحو مما لم ينله سيبويه نفسه؟ ذلك السر هو النبوغ النادر الذي اوحى
اليه بمقدمته على هذا الوضع العجيب. فبينما النحو قد خضع لقوانين
المنطق وأصبح دراسة عقلية عقيمة، اذ طلع ابن ااجروم بمقدمته التي
يعرض بها اصول هذا العلم في سذاجة تشبه عقل الطفل وترتيب يتوافق
وآخر ما قررته البيداغوجية الحديثة في اساليب التعليم. فلا جرم ان
علا اسمه على الاسماء وتمجدت ذكره بين الاحياء.

ولقد كان للتقدم الذي نالته هذه العلوم في هذا العصر تأثير كبير في تقويم السنة العامة وتذوقهم لاسرار اللغة العربية حتى البربر منهم. أما الخاصة فقد كان جل كلامهم ان لم تقل كلمة، مستقيما يجري على الضوابط اللغوية. وهذا الوزير عبدالمهيمن الحضرمي يقولون في ترجمته ان كلامه كان كله معربا. والف ابن هانئ كتابا فيما تلحن فيه العامة فجعل اللحن خاصا بالعامية واستطاع ان يعد هذا اللحن لما كان قليلا ومدح كثير من الشعراء كثيرا من زعماء البربر فكانوا يشيرونهم الشواب الجزيل بما كان من تذوقهم لجمال هذه الامداد وحسبك بامداد ابن الخطيب في ريس جبل درن أبي ثابت عامر الهنتاني. وربما يكون حديث «الظافة» الذي اثبتناه في قسم المنشور من الجزء الثاني ادل من كل ما تقدم على تغلغل انتشار العربية واداء ابها في الامة وشدة الاقبال عليها من سائر الطبقات. ومن دون العربية فان التاريخ قد نال عناية عظيمة من ابناء هذا العصر ومن نوابغه فيه، المؤرخ العظيم صاحب الفضل على مؤرخي المغرب بجملة، ابن ابي زرع. وما ادرائما ابن ابي زرع! صاحب القرطاس والبستان وغيرهما. وفيه كان ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب وابن الاحرار وغيرهم ممن أوى الى كنف المرينيين واستظل بظلمهم. والتاريخ الخلدوني نفسه مؤلف باسم ابي عنان وبرسم خزانته. كما ان فيه ايضا كان ابو الحسن الجزنائي صاحب زهرة الآس وفيه كان صاحب الحل الموشية وصاحب الخريدة السنية والتاورتي صاحب تاريخ. ابي سعيد عثمان الاصغر وابن

عبد الملك صاحب تكامة الصلة وغيرهم
وعلى ذكر المؤرخين لاننسى الرحالة وبينهم المؤرخين ارتباط
كبير. ففي هذا العصر كان ابن بطوطة ذلك الرجل العصامي الذي بقى
متجولا في اطراف الكرة الاضية اكثر من عشرين سنة، وعاد الى بلاده
متوجا باكيليل الغار. وفيه كان ابن رشيد الحافظ الكبير وصاحب رحلة
ملى العيبة وغيرهما.

وبالجملة فجميع الفنون الادبية قد ازدهرت في هذا العصر اياما
ازدهار، ولا خصوصية بذلك لما ذكرنا فان غيره مثله وما طويينا ما طويينا
الا لاندراجة تحت المذكور ولقصدنا الى الاختصار. وفي جدول الكتب
المؤلفة في هذا العصر بلاغ للمستريد.

*

* *

واما العلوم الكونية فقد تفهم ان نهضة الفقه قضت عليها وعاقبت
انتشارها لما علم من تخصص اهلها وتطاول من ادليل منهما على من دال
بحكم فاعدة من عز بز. ولاكن ذلك كان قبل نبوغ ابن رشد الذي حمل
راية الفقه باليمين وراية الفلسفة بالشمال فكان اماما فيهما معترفا بتقدمه
من الجانبين كليهما. نعم هي وان لم يقف انتشارها فلم يعم كما كان في العصر
السابق أو قل ان وجهة الناس لم تبق مصروفة الى كل مباحثها واحوالها
وفروعها كما كانت من قبل بل وقع الاقتصار على ما كانت حاجة الامة
ماسة اليه ومتعلقة به من فروع العلوم الرياضية كالطب والكيمياء والهندسة

والهيئة، فان هذه كانت تستفرغ مجهود الباحثين من علماء هذا العصر الذين ثوفروا على دراستها وتحقيقها حتى بلغوا في ذلك شأوا بعيدا. وكان على رأس هؤلاء ابن البناء العددي، ذلك الفلكي المشهور والحاسب المعروف الذي بذل اهل عصره ومن بعدهم بكثرة تحقيقه وطول باعه في العلوم الرياضية والاسلامية جمعا، فحسب الاتين بعده ان يقتصروا على كتبه وما خلفه من ثرات علمي طائفل فكان حاسبا عدديا لا ينافسه في هذا احد كما اقر له بذلك فطاحل اهل العلم من معاصريه وكان فلكيا بارعا اتى بتحقيقات عديدة خالف بها كثيرا مما تقار عليه اهل الفن قبله. ولا ريب فانه كان مفكرا جبارا لا يومن الا بما يهديه اليه فكره بعد البحث الدقيق والاستنتاج الصحيح. وقد خلف اكثر من مائة كتاب كلها مثال التحرير والاتقان وشهد ابن خلدون لكتبه الحسابية بالجودة وبها كانت الدراسة في عصر ابن خلدون.

وكان هناك ايضا الجاديري الفلكي البارع صاحب الروضة التي شرحت بشروح عديدة وكانت بها الدراسة في المعهد القروي. وهذا الفاضل له ايضا عدة ابحاث خالف بها المتقدمين من اهل هذا الفن. وحبذا لو ان اهل الاختصاص من ابناء جلدتنا تجرد والبحث واثار اسلافهم هذه والمقارنة بينها وبين اثار المحدثين من علماء الغرب، اذن لوجدوا كثيرا من النظريات التي يفخر هؤلاء بالاهتمام اليها اول. وهي من نتيجة جهود اولئك الاسلاف.

وكان هناك السطى صاحب جداول الحوفى في الفرائض التي دل بها على حسن نظره في الحساب والرياضيات. وابوزيد اللجائي، وكان له بلع طويل في الهندسة والحساب والهيئة وله آلة فلكية تذكر في ترجمته. وغير هؤلاء كثير ممن نبغ في هذه العلوم والف فيها التأليف المفيدة.

وفي خصوص الطب قد نبغ ابو الحسن المراكشي وله كتاب في الانكحة وصفاتها وما يطلب او يتجنب فيها والامراض السرية وعلاجها وطبائع النساء وما يحمد او يذم منهن الفه برسم خزانة السلطان ابي الحسن المريني. وفي الكيمياء القديمة نبغ ابو العباس الجزنائي الشاعر. وله كتاب في دار السكة ونظامها والعمل في الضرب وءالاته، زيادة على كتبه في صناعة هذا عدا فن العمارة والنقش والزخرفة وما اليها من الصناعات التي بلغت في هذا العصر اوج الكمال. وقد بقيت شواهد ذلك ماثلة للمعيان في مباني الملوك المرينيين من مثل مدرسة العطارين والصفارين والبوعنانية والاندلس بفاس ومدرسة فاس الجديد ومدارس مكناس وسلا ومراكش وغير المدارس في هذه المدن وغيرها. وان ننس لانسى هنا الساءة العجيبة المنصوبة على باب المدرسة البوعنانية فانها كانت تعدءاية في دقة الصنع وحسن الوضع، وءاثارها لاتزال ماثلة هناك وقد يكون من المفيد هنا ان ننقل اليك ما ذكره ابن بطوطة في معرض مدح أبي عنان وقد ذكر اعتناؤه بجبل الفتح ونص كلامه: «وبلغ من اهتمامه ايده الله بامر الجبل، ان امر ببناء شكل

يشبه شكل الجبل المذكور يمثل فيه شكل أسواره وإبراجه وحصونه وأبوابه ودار صنعته (التي أنشأها والده أبو الحسن) ومساجده ومخازن عدده وأهرية زروعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك بالمشور السعيد (بفاس) وكان شكلا عجبا اتقنه الصانع اتقاناً لا يعرف قدره إلا من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال. وما ذلك إلا لتشوقه إلى استطلاع أحواله واهتمامه بتحصيله وأعداده»

فهذا وحده كاف في الدلالة على الرقي الذي بلغته هذه الفنون في العصر المريني. ولاكن منزلة هذا العصر ليست في هذا الرقي بل في أن علماء كلهم مغاربة لا يمتون بسبب إلى بلاد غير المغرب، وقد كان علماء العصر السابق أعني فلاسفته جلهم أن لم تقل كلهم من الأندلسيين فنضجت في هذا العصر العقول وتفتحت الأفكار وظهر النبوغ المغربي باجلي م ظاهرة في جميع ميادين العلوم ولم يبق الشعب المغربي عائلة في نهضته العلمية على الأغيار، بل أن أبناءه أصبحوا قدوة غيرهم في الدراسات العلمية المختلفة وقبلة أنظار طلاب المعرفة من جميع الجهات.



الهيئة العلمية واثارها

من العسير جدا ان نحاول تقديم بعض الشخصيات البارزة من اعضاء الهيئة العلمية في هذا العصر الى القارىء كما فعلنا في العصر قبله، فلئن امكن ذلك هناك فلا نحصر التبرير في اشخاص معينين. اما هذا فالشخصيات كثيرة وكل مبرز في فنه، وخصوصا رجال الفقه والدين فان هؤلاء لا يكادون يحصون. وفضلا عن كثرتهم فانهم متكافئون في الرتبة. فماذا نفعل؟ هل نطوي ذكر هذا الصنف من العلماء ونضرب عنه صفحا ونأخذ بقاعدة منع الجميع ارضى للجميع ام نذكر بعضا ونترك بعضا وان غمطنا حق هذا البعض المتروك؟؟

لنظن ان ائقاريء يوافق على طي ذكر الجميع، ولعله يكون اكثر شوقا الى معرفة بعض المعلومات عن بعض علماء هذا العصر، كما في العصر السابق فلذا ذكر بعض افراد منهم على انهم نموذج وعينة فقط لا على انهم اللب والخيرة ممن لم نذكرهم. وفي ظننا اننا بذلك نخرج من الورطة ونخلص من المتعبة.

ابو الحسن الصغير

علي بن عبد الحق الزرويلي الشهير بابي الحسن الصغير، فقيه كبير من الصدور الحفاظ. كان مجلسه من اعظم المجالس بفاس يحضره الجُم الغفير من خيرة الطلبة وعلية الفقهاء ويقصده الناس من اقاصى البلاد ولى قضاء تازة على عهد السلطان ابي يعقوب يوسف ثم ولى قضاء

فأس في أيام حفيده أبي الربيع سليمان وعصده السلطان فانطلقت يده على أهل الجاه وأقام الحق على الكبير والصغير والقوى والضعيف من غير مداراة في ذلك ولا محاباة. وقامت بسببه فتنة بين السلطان المذكور ووزيره عبد الرحمان بن يعقوب الوطاسي حيث أن أبا الحسن كان قد أقام حدا الشرب على أحد سفراء ابن الأحمر فاهتاج هذا السفير وقصد الوزير المذكور وشكا إليه القاضي، وحجته أن هذا مما لا يعامل به سفراء الدول، فكاد الوزير أن يوقع بالقاضي لولا أن حال السلطان بينه وبينه وحمل ذلك الوزير على شق عصا الطاعة والائتمار على خلع السلطان غير أن كيده رجع في نجره.

أخذ أبو الحسن عن راشد الفاسي وعنه الجم الغفير ودخل الأندلس سفيرا فتهاقت الأكابر للأخذ عنه، وطلب منه التدريس في غرناطة ففعل، وبهت الناس من حفظه. وله كتب منها مجموعة الدر النثير في النوازل والأحكام وتقييد على المدونة في عدة مجلدات. وكان في أيام طلبه قيد على الرسالة تقييداً نبيلاً ثم قيدت عنه بمجلسه عليها وعلى التهذيب تقايد كثيرة متداولة بأيدي الفقهاء فلذلك ما اختلفت نسخها وكانت وفاته سنة 719هـ.

ابن ربيع

أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، رحالة شهير ومن الأئمة الحفاظ الوعاة والخطباء اللد المصاقع. مولده بسبته سنة 657

وبها نشأ وتوفى بفاس في محرم فاتح عام 721 ودفن بمطرح الجلمة من القباب.

كان محدثا مسندا متضلعا بالنحو واللغة والعروض ريان من الادب حافظا للاخبار والتواريخ والسير مشاركا في الاصلين عارفا بالقراءات السبع خطيبا مبدعا كثير الترحال والتجوال في البلاد.

دخل الاندلس في سنة 692 فقدم للمخطابة والامامة بمسجد غرناطة الاعظم واقام بها مدة ثم قفل راجعا الى فاس فنال بها ايضا مراتب عالية تليق بقدره. ورحل الى المشرق مرتين فتجول واكثر الاخذ عن المشائخ ثم عاد والف رحلته ملئ العبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة واستقر بفاس حتى توفى وله غير الرحلة كتب اخرى تاني تسميتها وله خطب ومقطعات واخبار ادبية ياتي بعضها في الجزء الثاني.

ابن الحاج

ابو عبد الله محمد بن محمد البسدري الفاسي المعروف بابن الحاج، احد جهابذة المتصوفين واعلام السنة الراشخين سمع ببلده من جلة الشيوخ وقدم مصر فصحب الشيخ أبا محمد بن أبي جمرة وسمع بها وحدث. وكان عارفا بمذهب الامام مالك ومن اهل الزهد والخير والصلاح. واثرت فيه صحبة اهل القلوب فصنف كتابه المدخل الى تنمية الاعمال بتحسين النيات والتنبية على كثير من البدع المحدثه والعوائد المنتحلة.

وهو كتاب حفيظ جمع فيه علما غزيرا والاهتمام بالوقوف عليه متعين
توفي رحمه الله سنة 737هـ.

السَّيِّحُ زُرُقُ

ابو العباس احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي شهر
بنزروق، الامام الاشهر والعارف الانور. ولد عام 846 وتوفي والسداد
قبل سبع ولادته فكفلته جدته الفقيهة ام البنين واشتغل بالصناعة فتعلم
السكافة ثم طلب العلم في السادس عشر من عمره فدرس على مشاهير
اهل بلده ورحل الى المشرق فاخذ به عن جماعة من الاعيان ثم رجع
وقد تضلع بعلوم الشريعة واتقنها غاية الاتقان ولا سيما التصوف فقد
انفرد بمعرفة وبجودة التاليف فيه لتحريره له على اصول الشريعة
تحرير الجوهر وتصفيته تصفية الكبريت الاحمر فلذلك ما دعى
(بمحتسب الاولياء والعلماء).

له كتب عديدة يميل فيها الى الاختصار والتحقيق منها وهو
اشهرها قواعد التصوف ومنها عدة المريد ومنها النصيحة الكافية وغيرها
وهي تزيد على العشرين سناني على ذكرها بعد. وتوفي بطرابلس
الغرب عام 899هـ.

ابن السَّاطِ

أبو القاسم قاسم بن عبد الله بن محمد بن الشاط الانصاري السبتي،
والشاط اسم لجدده وكان طوالا فجرى عليه. كان نسيج وحده في اصالة

النظر ونفوذ الفكر وجودة القريحة وتسديد الفهم الى حسن الشئام
وعلو الهمة والعكوف على العلم والاقتصرار على الآداب السنية والتحلي
بالوقار والسكينة. اقرأ بسببة الاصول والفرائض وكان مقدما فيهما
موصوفا بامامتهما. وكان موفور الحظ من الفقه حسن المشاركة في العربية
كاتباً مرسلان ريان من الادب وله نظر في العقليات

قرأ على الاستاذ ابن أبي الربيع وعلى الحافظ أبي يعقوب المحاسبي
وغيرهما واجاز له أبو القاسم بن البراء وأبو محمد بن أبي الدنيا وأبو
العباس بن الغماز وأبو جعفر الطباع وأبو بكر بن فارس وغيرهم وأخذ
عنه الجلة من أهل الاندلس كالاستاذ أبي زكرياء بن هذيل وأبي الحسن
بن الحباب والقاضي أبي بكر بن شبرين وغيرهم. وله تأليف منها انوار
البروق في تعقب مسائل القواعد والفروق وغنية الرائض في علم الفرائض
وغيرهما. وكان مجلسه مألفاً للصدور من الطلبة والنبلاء من الناس.
مولده في عام 643 بمدينة سبتة وتوفي بها عام 723 هـ.

ابن غازي

هو أبو عبد الله محمد بن احمد بن علي بن غازي المكناسي ثم الفاسي
شيخ الجماعة بها. نشأ بمكناس كما نشأ بها اسلافه ثم ارتحل الى فاس
في طلب العلم فاقام بها مدة واتقى من مشايخها عدة ضمنهم ثبته الذي
سماه بالتعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد ثم عاد الى
مكناس فاقام بها بين أهله وعشيرته زمناً ثم انتقل نهائياً الى فاس فاستوطنها

وبقى بها حتى توفي سنة 917 هـ.

كان رحمه الله استاذاً ماهراً في القراءات ووجوهها مبرزاً في علوم العربية والفقه والتفسير والحديث وعلم الرجال والسير والتاريخ والادب درس على القوري وغيره واخذ عنه الجماهير اذ قد تفرد برئاسة الهيئة العلمية في عصره ولم ينازعه احد في ذلك. له شفاء الغليل في حل مقفل خليل بين فيه هفوات بهرام والمواضع المشككة من مختصر الشيخ خليل المالكي اجاد فيه ما شاء وهو من احسن الموضوعات عليه وله تكميل التقييد وتحليل التعقيد كمل به تقييداً أبي الحسن الصغير على المدونة وحل مشكل كلام ابن عرفة في مختصره في ثلاثة اسفار وله غير ذلك مما يذكر في محله.

ابن بري

أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسن التازي الشهير بابن بري احد المهرة في علوم العربية والقراءات. وكان كاتباً بليغاً لغوياً عريضاً متفناً في كثير من العلوم وله خط بارع ونظم ماهر وهو صاحب الدرر اللوامع في قراءة نافع وغير ما من الكتب النحوية والعروضية وتوفي سنة 731 هـ

الخزاز

أبو عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم الاموي المعروف بالخزاز، كان إمام القراء بفارس وهو صاحب مورد الظمئان في الرسم وكان يعلم

الصبيان وذلك سر نجاح اسلافنا اذ كانوا يسندون الامور الى أهلها
فلا يظلمونها. وتوفي رحمه الله سنة 818 هـ.

ابن ءاجروم

أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي عرف بابن
ءاجروم، النحوي المقرئ الشهير، مولده عام 672 ووفاته عام 723 بفاس
وأخذ عن أبي حيان وعنه محمد بن علي الفساني وله من غير المقدمة شرح
حرز الاماني في القراءات

المكودي

أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي الفاسي، امام
النحاة في عصره، ونسبته الى بني مكود احدى قبائل هواراة الذين
مستقرهم فيما بين فاس وتازة. كان بيتهم من بيوتات فاس العريقة في العلم
والجاء وكان لهم زقاق يعرف بهم. وكان أبو زيد هذا من مفاخرهم،
أماما في النحو واللغة والعروض وسائر فنون الادب، درس كتاب
سيبويه بمدرسة العطارين وهو آخر من درسه بفاس وبعده صار العمل
على الفية بن مالك التي وضع هو عليها شرحه المشهور. ومن كتبه غير
شرح الالفية شرح الاجرومية وشرح المقصور والمدود لابن مالك والبسط
والتعريف في علم التصريف ونظم المعرب من الالفاظ والمقصورة في
مدح النبي صلى الله عليه وسلم نحو ثلاثمائة بيت وقد نكت فيها على

حازم وابن دريد وتأتي في قسم المنظوم من الجزء الثاني. توفي رحمه الله عام 807 هـ.

ابن هانيء

أبو عبد الله محمد بن هانيء اللخمي السبتي، من كبار علماء العربية ومؤلفي الأدب في هذا العصر. قال ابن الخطيب في حقه: «علم تشير إليه الأكف، ويعمل إلى لقائه الحافر والخف، رفع للعربية ببلده راية لا تتأخر، ومرج منها لجة تزخر، فأنفصح مجال درسه، واثمرت ادواح غرسه، فركض ما شاء وبرح، ودون وشرح، إلى شمائل يملك الظرف زمامها ودعابة راشت الخلاوة سهامها»

له كتب مهمة جدا منها شرح التسهيل لابن مالك تنافس الناس فيه وكتاب العرة الطالعة في شعراء المائة السابعة وكتاب انشاد الضوال وارشاد السؤل في لحن العامة وهو مفيد وكتاب قوت المقيم ودون ترسيل أبي المطرف بن عميرة وضمه في سفرين وله لطائف أدبية تأتي في محلها. وقد كان ممن حضر مع المتطوعة لما نازل المسلمون جبل الفتح وحاصروه لانتزاعه من يد العدو، فإبلى في تلك الواقعة بلاء حسنا واستشهد في قعدة عام 733 ورثى بقصائد منها قصيدة أبي بكر بن شبرين التي يقول فيها:

قد كان ما قال البريد	فأصبر فخرنك لا يفيد
أودى ابن هانيء الرضى	فأعتداني للشك كل عيد

أبو القاسم الشريف

أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني السبتي، القاضي الفاضل
نخبة الأدباء في وقته. كان متبحراً في العلوم الأدبية من تاريخ وأخبار
ونحو وبيان وعروض متقدماً في الفقه والأحكام مع توفد الذهن وإصالة
الادراك. ولي الكتابة والخطابة والقضاء عن ملوك بني الأحمر في الأندلس
وطار صيته ونبه ذكره. وقد أخذ عن أبيه وعن ابن هانيء وابن رشيد
وغيرهم وعنه ابن الخطيب وسواه. وله تصانيف بارعة منها رفع الحجب
المستورة عن محاسن المقصورة وهو شرح لمقصورة حازم ورياضة الأبى
وهو شرح على الخرجية في العروض، وكان أول من فك ختامها بعد
أن أعجزت نبهاء الوقف وشرح تسهيل ابن مالك وديوان شعر وسنشت
طرفاً من أدبه في الجزء الثاني.

مولد بسبته في ربيع الأول عام 697 وتوفي قاضياً بقرناطة في
شعبان عام 760 هـ. ولكثرة مقامه بقرناطة يطلق عليه بعضهم الشريف
القرناطي وليس بقرناطي كما علمت.

ابن بطوطة

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي،
الرحالة الشهير. ولد ونشأ ببلده طنجة ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره
أوحى إليه نفسه الكبيرة بالترحال والتجوال فامتطي صهوة الغترب
من وطنه وأخذ يذرع الأرض طولاً وعرضاً.

وكان خروجه من طنجة سنة 750 فجال في المغرب وافريقية وطرابلس وبرقة ومصر والشام والعراق واليمن وسواحل افريقيا الشرقية وجزائر بحر فارس. ودخل الاناضول وجال فيها وقدم بلاد القرم وساحل في جنوبي روسيا ودخل إلى بلاد البلغار والقسطنطينية. ثم جال في البلاد الواقعة شرقي بحر الخزر ودخل خوارزم وبخارى وخراسان وقندهار ووادي السند واقام بدهلي حاضرة الهند ونصب على القضاء فيها ثم ساح في الاقطار الصينية والتترية ودخل سيلان وسومطرة وجاوة وباكين قاعدة الصين وابتلى هناك بالاسر وتملص بعد خطب طويل فانقلب راجعا إلى المغرب، وكان قد بارح بلاده منذ 24 عاما. وما لبث أن وصل إلى طنجة حتى عاد إلى الرحلة فدخل أسبانيا وتطوف فيها. ثم عاد وقصد السلطان أبا عنان المريني بفاس فحظى عنده وافاض عليه من عطائه ما انساه تجسم الاسفار واقتحام الاخطار.

وذهب رسولا منه إلى بلاد السودان ثم عاد إلى فاس وبها التقى عصا التسيار وألف رحلته تحفة النظائر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار. ومات سنة 777 هـ.

ابن البناء العددي

أبو العباس احمد بن محمد بن عثمان الازدي المراكشي، العلامة الفلكي والحاسب المشهور. كان أبوه بناء وطلب هو العلم فبلغ فيه الغاية القصوى. ولد بمراكش سنة 654 وطلب العلم بها ثم بفاس فافتقن العربية

مقالة في المدبر له، رسالة في احصاء اسماء الله الحسنى له، الدر النشير
 لابي الحسن الصغير، تقييد المدونة له، تقييد الرسالة له، تقييد التهذيب
 له، نهاية السرائض في الفرائض للجديموي (من اهل القرن السابع)،
 كفاية المرتاض في تعاليل الفراض له، مفتاح الغوامض في أصول
 الفرائض له، نصح ملوك الاسلام في تعريفهم بحقوق اهل البيت لابن
 لابن السكاك، تعليق على تقييد أبي الحسن الصغير للتازع مدري المتوفى
 سنة 832، الوثائق للقاضي الفشتالي المتوفى سنة 779، الوثائق لابن
 عرضون المتوفى حوالي سنة 770 المفيد في الفقه لابراهيم الفجيجي
 المتوفى حوالي سنة 900، تقييد المدونة لابي عمران العبدوسي المتوفى
 سنة 776، تقييد الرسالة له، تقييد التهذيب له، شرح المدونة للزناتي،
 شرح الرسالة له، تقييد المدونة لابي موسى الجناتي المتوفى سنة 830،
 الفتاوى للرجراجي، تعليق على المدونة له، تعليق على مختصر ابن شاس
 له، شرح الحوفية له، اختصار احكام ابن القطان للقباب المتوفى سنة
 779، شرح قواعد القاضي عياض له، شرح بيوع ابن جماعة له، تحفة
 الحكم للزقاق المتوفى سنة 912، المنهج المنتخب على قواعد المذهب له،
 معتمر الناجب في ايضاح مهمات ابن الحاجب لأنقشاب (من اهل القرن
 الثامن)، شرح الرسالة له، المجالس في الفقه للقاضي المكناسي المتوفى
 سنة 917، التنبيه والاعلام فيما قضى به القضاة وافتى به المفتون
 من الاوهام له، تقييد الرسالة نسخ متعددة لعبد الرحمن الجزولي المتوفى
 سنة 741.

كتب الكلام والمنطق والاصول

شرح العقيدة القدسية للشيخ زروق، الاقتضاب والتبيين في علم أصول الدين لابن البناء العددي، رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة المعجزة والكرامة والسحر له، منتهى السؤل من علم الاصول له، تنبيه الفهوم على مدارك العلوم في الاصول له، شرح تنقيح القرافي له، شرح تنقيح القرافي للرجراجي.

كتب التراجم والتاريخ والجغرافية

الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة لابن هاني، شفاء الغرام باخبار بلد الله الحرام لتقي الدين الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الامير له، ذيل سير النبلاء له، الاخباريات له، القرطاس لابن ابي زرع، المغرب في صلحاء المشرق والمغرب للرعياني، نظم رجال الحلية لابن جابر، الروض الهتون في اخبار مكناسة الزيتون لابن غازي، زهرة الأس في بناء فاس لابي الحسن الجزنائي (من أهل القرن الثامن)، تاريخ أبي سعيد الاصغر للتاورتي (مات أول القرن التاسع)، الاشادة في المشتهرين من المتأخرين بالاجادة لابي القاسم العزفي المتوفى سنة 717، ملء العيبة لابن رشيد، تحفة النظار لابن بطوطة.

كتب الادب والدواوين الشعرية

ديوان ترسيل أبي المطرف ابن عميرة لابن هاني، رفيع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة لابي القاسم الشريف، رياضة الابي في

شرح قصيدة الخنزرجي له، جهد المقل وهو ديوان شعر له، احكام التاميس في احكام التجنيس لابن رشيد، ايراح المريع لرائد التشجيع والترصيع له، وصل القوادم بالخوافي في ذكر اسماء القوافي له، جزء في العروض له، المقصورة للمكودي، ارجوزة العروض لمالك ابن المرحل، نظم الثلث الاول من أدب الكاتب له، العشریات الزهدية له، الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والاخرى له، المنفرجة التازية لابن يحش التازي المتوفى سنة 820، الروض المريع في صناعة البديع لابن البناء العددي، عيوب الشعر له، قانون في معرفة الشعر له، قانون في الفرق بين الحكمة والشعر له، نزهة الناظر لابن جسابر، تسميط البردة لابراهيم الفجيجي، شرح المقامات الحريرية للزناتي.

كتب النحو واللغة

شرح التسهيل لابي القاسم الشريف، شرح كتاب سيمويه لابن رشيد، نظم فصيح تلعب لابن المرحل، شرحه له، نظم غريب القراءان له، نظم اختصار اصلاح المنطق له، الرمي بالخصى والضرب بالعصا رد به على ابن ابي الربيع النحوي له، الاجرومية لابن اجروم، الكليات النحوية لابن البناء العددي، شرح الالفية للمكودي، شرح الاجرومية له، البسط والتعريف في علم التصريف له، نظم المعرب من الالفاظ، شرح المقصور والممدود له، المذكر والمؤنث للمجاذبي، شرح الالفية لابن غازي، شرح الاجرومية لابي عبد الله الشريف (من أهل القرن الثامن)، شرح

شواهد الشريف شارح الاجرومية للدقون المتوفى سنة 921، نظم
الاجرومية لميمون الفخار، الجمل للمجراد المتوفى سنة 778.
كتب في مختلف العلوم الكونية

علم الجدول لابن البناء العددي، شرحه له، التلخيص في الحساب
له، ومع الحجاب في الحساب له، مقدمة على اقليدس له، المستطيل في
بيان احكام النجوم له، المدخل الى علوم النجوم له، جزء في العمل
بالرومي له، منهاج الطالب في تعديل الكواكب له، علم الاسطرلاب
له، العمل بالشكارية والدرقالية له، رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة
له، جزء في الانواء وصور الكواكب له، كتاب الفلاحة له، قانون
معرفة الاوقات بالحساب له، قانون في معرفة فصول السنة له، قانون
في ترحيل الشمس له، كتاب تسمية الحروف وخصايتها وجودها في
أوائل سور القرآن له، طبائع الحروف له، صناعة الاوفاق له، مقالة
في العزائم والرقى له، مقالة في عمل الطلسمات له، مقالة في الرجز
والقال والكهانة له، مقالة في خط الرمل له، اليسارة في تقديم السيارة
له، رسالة في كرية الارض له، رسالة في تحقيق رؤية الالهة له،
الرد على من قال ان وقت العصر يعلم بوقوع قرص الشمس على بصر
القائم مقابلا لها له، الاصداف المنفضة عن احكام علم صناعة دينار الذهب
والفضة لابي العباس الجزنائي، شرح تلخيص ابن البناء العددي لابن
هيدور المتوفى سنة 816، شرح رفع الحجاب له، روضة الازهار في

وآدابها وحصل علوم الشريعة وبرع في العلوم الفلسفية ولا سيما الرياضية فكان لا يدرك شأوه فيها ولا يبلغ مداه وعلى الاخص الهيئة والعدد منها فان اليه انتهى علمهما بالمغرب وعنده اجتمع ما تفرق منهما بأيدي قدماء الرياضيين من اسلاميين وغيرهم. ولا يعرف فيمن أتى بعده من تحقق تحققه بمعرفة أسرار الفلك وحركات النجوم وبالعدد والضم والتفريق فيه، وإنما غاية العلماء بعده في ذلك تفهم كتبه وتناولها بالشرح والتفسير، مثلما فعل ابن هيدور وغيره فإنه شرح تلخيص ابن البناء الحسابي ورفع الحجاب له أيضا.

وتلخيص ابن البناء هذا هو الذي قال عنه ابن خلدون اثناء الكلام على الحساب من العلوم العديدة: «أنه ضابط لقوانين اعماله مفيد» ورفع الحجاب قال عنه: «هو كتاب جليل القدر ادركننا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك». ولابن البناء كتب كثيرة ناتى على ذكرها بعد هذا وكانت وفاته ببلده سنة 721 هـ.

المجاءي

أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الربيع المجاءي الفاسي، العالم الرياضي الكبير. كان متحققا باجزاء من الهندسة والهيئة والحساب.

نشأ في حجر والده أبي الربيع وكان من فقهاء فاس وممن أخذ عن القرافي وهو الذي ادخل مختصر ابن الحاجب الفقهي الى فاس، فكان يأخذه بطريقته من قراءة الفقه. ولاكنه رأى ذات يوم في النوم

كانه صعد الى السماء واخذ يقلب واحدا بعد واحد ققص رأياه على أبيه
فقال له أقصد ان البناء وخذ عنه علومه. قال ابن قنفذ: «كان اللجائي
أية في فنونه، ومن بعض اعماله انه اخترع اسطر كبا ملصوقا في جدار
والماء يدير شبكته على الصفيحة فيأتي الناظر فينظر الى ارتفاع الشمس
كم هو وكم مضى من النهار وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالدليل وهو
من الاعمال الغربية وقد وقفت عليه زمان قراءتي بن يديه» وتوفي
سنة 773 هـ.

وهاك الآن جدولاً باسماء الكتب المؤلفة في هذا العصر مما
وقفنا عليه فقط، لأننا لاندعي احصاءها جميعاً كيف واصحاب
الكتب انفسهم لا يجوز أن يدعي احد الاحاطة بمعرفتهم فما بالك
بكتبهم؟ وقد سرنا في ذلك على الترتيب الذي توخيناه في العصر السابق:
كتب الحديث والتفسير وتوابعها

ترجمان التراجم في بيان وجه مناسبة تراجم البخاري لابن رشيد،
السنن الابين في السند الممنوع له، المحاكمة بين مسلم والبخاري له،
تعليق البخاري للشيخ زروق، جزء في علم الحديث له، التعليل برسوم
الاسناد بعد انتقال أهل المنزل واثناد لابن غازي، نظم الطرق العشر له،
مورد الظمئان في رسم القرآن للخراز، عمدة البيان في الرسم ايضاله، شرح
الخصرية في القراءات له، شرح ابن بري له، شرح القيلة في القراءات
هـ، الدرر اللوامع لابن بري، تحفة الناظر في غريب الحديث لابن سعيد

الرعيضي الفاسي المتوفى سنة 779، الجامع المفيد له، تخريج الاربعين
 المتباينات لتقي الدين الفاسي المتوفى سنة 842، الفهرست له، اختصار
 الكشف لابن العابد الفاسي المتوفى سنة 762، تفسير الباء في البسمة
 لابن البناء العددي، تفسير الاسم فيها له، تفسير سورة الكوثر له،
 تفسير سورة العصر له، حاشية على الكشف له، الدليل في مرسوم خط
 التنزيل له، المتشابه اللفظ في القرآن له، شرح الشفا للزموري من أهل
 القرن التاسع، شرح الشفا لابن السكك المتوفى سنة 818، تفسير
 القرآن لأبي القاسم السلوي من أهل القرن التاسع، شرح مسلم له،
 شرح الموطأ للزناتي المتوفى سنة 702 التحفة في القراءات لميمون الفخار
 المتوفى سنة 716، الدرة له، المورد له، شرح مورد الظمان للرجراجي
 المتوفى سنة 900، الفوائد الجميلة، على الآيات الجليلة له، الاجوبة في
 التفسير لابن البقال المتوفى سنة 725، النافع في اصل حرف نافع للمجاديري
 المتوفى سنة 818 على ما في الجذوة، شرح ضبط القيسي له، شرح ابن
 بري له، نظم غريب القرآن لمالك بن المرحل، نظم التيسير في القراءات
 له، اختصار فتح الباري لابن هلال المتوفى سنة 903، نظم نخبة السفكر
 للشمني المتوفى سنة 766، شرح الشفا له، شرح حرز الاماني في القراءات
 لابن أجروم.

كتب الفقه والتصوف وتوايهما

شرح مختصر خليل ثمان مجلدات للقوري المتوفى سنة 872،

المنهل المورد شرح المقصد المحمود للجنان من أهل القرن الثامن، شرح
 وثائق الغرناطي له، القواعد الخمس للرعياني، المقدمات له، شرحها له
 تنبيه الغافل وتعليم الجاهل له، اختصار مقدمة ابن رشد له، الروضة
 البهية في البسمة والتطلية له، الاسئلة والاجوبة له، اسماع الصم في
 ثبوت الشرف من جهة الام للضرير المراكشي المتوفى سنة 807،
 المذخل لابن الحاج، النصيحة الكافية للشيخ زروق، اعانة التوجه
 المسكين على طريق الفتح والتمكين له، النصح الانفع له، عدة المريد له،
 قواعد المتصوف له، الاصول في الفصول له، تحفة المريد له، الروضة له،
 منزيل اللبس عن اسرار القواعد الخمس له، شرح الرسالة الكبير له، شرح
 الرسالة الصغير له، شرح الارشاد له، شرح القرطبية له، شرح العاقبة
 له، شرح المباحث الاصلية له، شرح الحكم العطائية اربع عشرون نسخة
 له، شرح حزب البحر نسختان له، شرح الحزب الكبير له، شرح مشكلات
 الحزب الكبير له، شرح حقائق المقرئ له، شرح قطع الششتري له، شرح الاسماء
 الحسنی له، شرح مراد ابن عقبة له، تحرير المقالة في نظائر الرسالة لابن
 غازي، المسائل الحسان له، شفاء الغليل له، تكميل التقييد له، ارشاد اليبس الى
 مقاصد الجيب له، السكليات الفقهية له، رسالة الاخوان من اهل الفقه
 وحملة القرءان لابن ميمون الادريسي المتوفى سنة 917 مرأهم الطريقة
 في علم الحقيقة لابن البناء العددي، شرحه له، عواطف المعارف له، عمل
 الفرائض له، الفصول في الفرائض له، مقالة في الاقرار والانكار له،

علم الليل والنهار للجاديري، اقتطاف الانوار في اختصار روضة الازهار
له، كتاب في العمل بالاسطراب والصفحة الشكارية والربع بالحساب
والجدول له، تنبيه الانام على ما يحدث في ايسام العام له، شرح نظم
ابي مفرع له، منية الحساب في علم الحساب لابن غازي، شرحها له،
الجامع المستوفى بجداول الخوفي له، نظم المراقبة العليا في تمييز الرؤيا
لابن جابر، اختصار حياة الحيوان لتقي الدين الفاسي، رجز في علم
الافاق لعمر بن عبد العزيز الجزنائي، توفي في أوائل القرن التاسع.



الحركة الادبية

قدمنا ان هذا العصر كان هو العصر الذهبي للعلوم الادبية في المغرب، وعليه فيكون هو أزهى عصور الانتاج الادبي فيه، لان هذا الانتاج يتبع غالبا تلك العلوم رقيا وانحطاطا خصوصا عند ما يكون اعتماد الشعب على الدراسة والتلقين لا على السليقة والطبع.

وفوق ذلك فان الوسط الادبي في المغرب، لم يبلغ من الرقي في عصر من العصور ما بلغ في هذا العصر. فقد اشترك في تكوينه جميع الطبقات من الملوك فمن دونهم الى السوق. أما الملوك فقد علمت ان أكثر سلاطين بني مرين كانوا من أهل العلم والمعرفة والمشاركة في فنون الادب، وبالطبع فان وزراءهم وحجابههم وقوادهم فضلا عن كتابهم وقضائهم كانوا كذلك، اذ يستحيل ان يقرب بساط الملوك، اذا كانوا ملوكا بمعنى الكلمة، غير أهل الكفاءات النادرة من ارباب المعارف المتنوعة وكذلك كنت لا تجد في منصب من مناصب الدولة الا رجلا كفوا لا يوتى من قصور ولا يعاب من تقصير. حتى ذوو البيوتات الذين كانوا يتوارثون الرياسة في هذا العصر، كبنى المكودي والقبائلي، لم يكونوا على ما عهد في أمثالهم من الاعتماد بالاحساب والاتكال على الانساب وانما كانوا كما قيل

انا وان أحسابنا كرمنا	لسنا على الاحساب نتكل
بنينا كما كانت اوائلنا	تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وهؤلاء ممن دون الملوك ولكنهم فوق السوق، واما السوق فقد اشرنا فيما سبق الى ما اثرت فيهم نهضة علوم اللسان وما مكنت لهم من تذوق اسرار اللغة وتفهم اغراض الادب حتى ان كان منهم في طبقة صاحب حديث «الظافة» الاتي.

ولا يخفى ان في هذا العصر بدأ تكون ذلك الشعر العامي الذي يتحدث عنه ابن خلدون في المقدمة، وهو من نظم البربر فيكون من الدلائل القاطعة على تمام استعرايهم، وبالتالي على رقي الوسط الادبي عندهم، لانهم ما نقلوا الشعر من لغتهم الى العربية حتى كان قد تغفل الروح العربي فيهم الى حد بعيد جدا. ولا عبرة بما في ذلك الشعر من ألفاظ ركيكة وتراكيب ضعيفة، وانما العبرة بكونه نظما على الاسلوب العربي وبألفاظ عربية يصدر من عوام البربر الذين لم يتقفوا علما ولا ادبا. والعجب ممن خفى عليه هذا الامر، فراح ينعي على المغرب حظه من اللغة والادب ويستشهد بذلك الشعر الذي هو من قول عوام أهله من البربر، ولقد كان خليقا ان يستشهد به على قوة انتشار اللغة العربية وادابها في المجتمع المغربي الذي يقول عوام برابرتة مثل ذلك الشعر. ولكنه تقصوره لم يعرف ان للمغرب شعراء كأعظم شعراء بلاده ان لم يكونوا أعظم منهم. وابن خلدون لم يجمع هؤلاء العوام هم شعراء المغرب وانما اتى بهم دليلا على ضعف الملكية الشعرية عند أهل الامصار وخصوصا الاعجام منهم ولوزاولوا الصناعة بالتعليم، وهو يفرق على عادته في هذه

النظرية فيتناسى ما لاهل هذه الامصار من اليد الطولى على العربية وءادابها خصوصا في عصره. وقد كان محاطا بكثير من نبغائهم الذين لا يقصرون عن غيرهم في فن ولا أدب، فجاء مؤلفا كتاب المطرب في أدب الاندلس والمغرب ففهما عنه ان اولئك العوام من البربر هم شعراء المغرب، فانكرا العلم والادب على المغاربة، فظالما المغرب والتاريخ الادبي أشد الظلم وكانا كمن يسمع أزجال عوام المصريين فيحكم على مصر بالعمم الادبي ناسيا الشوقيات وغيرها من الايات البينات (1)

وبعد فما نريد ان نقوله هو ان هذا الوسط الادبي الطافح بعناصر الحياة، كان هو مهد هذه الحركة الادبية الذي فيه نشأت ومنه درجت فما ظنك بما تكون عليه من قوة المادة والروح ؟

نعم، وقد كان هذا الرسط يغري كثيرا من ذوي الشخصيات الادبية الكبيرة في افريقيا والاندلس فيؤمنون الحضرة الفاسية ويستوطنونها ناسين بما يلقونه فيها من التجلة والاكرام أوطانهم الاصلية ومعاهد شبابهم الاولى وعلى رأس هؤلاء ابن خلدون وابن الخطيب وابن جزى وغيرهم ممن سبقت الاشارة الى بعضهم، وقد كان انتقالهم الى المغرب في هذا العصر اختياريا من تلقاء انفسهم لا كما كان في العصر السابق نقلا بالقهر

(1) ان مثل هذا الغلط كثيرا ما يقع فيه كتاب الشرق، وما نهينا على هذا الكتاب بخصوصه الا لانه من احدث ما اطلعنا عليه في هذا الباب، وعلى كل حال فاللوم لا يتوجه عليهم بقدر ما يتوجه علينا نحن الذين اهلنا انفسنا حتى صرنا كما قال القائل
خرجنا مع الدنيا ونحن من اهلها
فنسنا من الاموات فيها ولا الاحياء

والسلطان. وكفى هذا دليلا على رقي المجتمع المغربي في سائر المعنويات التي بقي فيها خالفا الى هذا العصر.

والحاصل ان في هذا العصر بلغ الادب المغربي كماله، فتخلص من سائر التأثيرات الاجنبية عن النفس المغربية، وشق لنفسه طريقا نحو الغاية المقصودة وهي سد حاجة تلك النفس الظائمة الى حياة أدبية حرة تتمثل فيها عواطفها وميولها وسجاياها ومزاياها بصورة بصورة طبق الاصل لا رياء فيها ولا تصنع ولا ادعاء ولا تقليد، فبلغ تلك الغاية واوفى عليها بمزيد التفنن والابداع. ولا سيما في الشعر، الذي حمل الطابع المغربي منذ هذا العصر، فتجد الحقيقة فيه تسبق الخيال والطبع يغلب الصنع والقصد الى الوضوح أكثر من التعمق والرفقة والجزالة والسهولة في غير ضعف ولا غرابية ولا فسولة. ويكفي أن في هذا العصر نبغ ذلك الشاعر الذي يحق ان يقال عنه انه شاعر المغرب الاكبر، ونعني به مالك بن المرحل الذي طبقت شهرته العالم العربي رغم ما منى به ادباء المغرب من خمول الذكر، والذي لم يسمع ابن خلدون الا ان يعترف بشاعريته على ما علم من تحفظه الشديد. ولكن يا أسفى لضياح شعر هذا النابغة الفذ وغيره من شعراء هذا العهد، الذين نعتقد انه لو وصلت اليها جميع آثارهم لما بقي من ينفض رأسا عند ذكر أدب المغرب، لا من أمثال صاحب رسالة المفارقة بين العدوتين ولأمن أمثال صاحب كتاب المطرب ونذكر الآن مختصر تراجم النابهين من ادباء هذا العصر، لان الاتساع

في ذلك والاحاطة بجميعهم مما يضيق عنه صدر هذا الموضوع

مالك بن المرحل

هو ابو الحكم مالك بن المرحل السبتي، أعظم شعراء المغرب شهرة على الاطلاق. ولسد سنة 604 ونشأ بسبته ساقط الذكر خفي المنزلة فانهضه أدبه وشعره وعوضاه من الخمول الظهور، فكان في عصره شاعر المغرب غير مدافع، وأطبع شعرائه اسلوبا وارشقهم لفظا وبلغهم معنى. استعان على ذلك بالمقاصد اللسانية لغة وبيانا ونحوا وعروضا وقافية وحفظا للجيد من الشعر واضطلاعا بمعرفة معانيه وتراكيبه فإنه كان في ذلك نافذ الذهن شديد الادراك قوي العارضة سريع البديهة. وكان قد تلا بالسبع وذلك مما زاده بصرا باسرار العربية.

كان ابن المرحل يتعاطى صناعة التوثيق ببلدة سبته واستقضى مرة ببعض الجهات. وكان مداحا ليعقوب المنصور المريني ومختصا به. وعلى تعميره وتقدمه في السن لم يضعف في رواية العلم والشعر والملاح والفوائد، بل كان انما يزداد سعة درع وانقسام باع في ذلك. ومن شعره لما بلغ الثمانين سنة

يا أيها الشيخ الذي عمره قد زاد عشا بعد سبعينا

سكرت من اكواس خمر الصبا فحدك الدهر ثمانينا

وله تأليف سبق ذكرها واخباره واشعاره تأتي في الجزء الثاني. وتوفي

بفاس سنة 699 هـ

المطروزي

هو أبو فارس عبد العزيز الملتروزي، شاعر الدولة المرينية وبلبلها الصداح. يأتي بعد ابن المرحل في قوة العارضة وتدفق الطبع والتفنن والابداع في ضروب القول. وكان المنصور شديد التقريب له فرافقه في جميع حركاته، ما كان منها بالاندلس او غيرها. وصدر منه في وصف تلك الوقائع الحربية قصائد فخمة، منها تلك التي قالها بعد عودة المنصور من غزواته الكبرى بالاندلس (684) وهي ملحمة فريدة في اللغة العربية تناهز أبياتها المائتين والخمسين بيتاً، هنأ فيها بالنصر على العدو، وعدد أياديه على الرعية ونوه بالابطال من قبائل زناتة، فأجازته المنصور عليها بعشرة آلاف دينار واعطى لمنشدها بين يديه وهو الاستاذ ابو زيد الغرابي الف دينار. وسنشتها في محلها من هذا الكتاب. والمطروزي ارجوزة بارعة سماها نظم السلوك في اخبار من نزل المغرب من الملوك. وقد استشهدنا بأبيات منها فيما تقدم

ابو العباس العزفي

هو أبو العباس احمد بن الرئيس أبي طالب اللخمي من بيت العزفي الذي تداول رئاسة سبتة من لدن اواخر دولة الموحدين. كان شاعرا غزلا رقيق الحاشية شفاف الديباجة بديع التشبيه حسن المقابلة وهو فاضل أهل بيته في هذا الباب على أنه ما فيهم الا فاضل ابن فاضل. ذكره اخوه المحافظ ابو القاسم في كتابه الاشادة في المشتهرين من المتأخرين

بالاجادة فقال في حقه: «هو أخي، الذي باخائه أزهى وانتخى، وكبيرى،
المعتمد باجلالي وتوقيري، ولولا خوفاً من ان يلزمني ما لزم مادح
نفسه، لا طنبت في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها أبناء جنسه،
مع انها لم تنزل على منصة البيان مجلوة، وبالسنة الابداع متلوة». دخل
غرناطة سنة 705 فلقى بها كل تجلة واکرام وبقي بها الى ان توفي في
28 ذي الحجة عام 707 هـ

ابو العباس الجزنائي

هو أبو العباس احمد بن شعب الجزنائي الفاسي، شاعر كاتب متضلع
في فنون الادب حافظ للجيد من الشعر، ذكر أنه كان يحفظ عشرين
الف بيت للمحدثين، وكان له بصر نافذ في نقد الشعر. وشعره مما سبق
به الفحول. وكتابته حسنة وخطه جيد، وكان كاتباً في ديوان الانشاء
عند أبي الحسن المريني. وتسرى جارية رومية اسمها صبيح من أجمل
الجواري وأحسنهن ولقنها حظاً من العربية فنظمت الشعر وكان شديد
الغرام بها فهلك فلم يطق عليها صبراً وقال فيها اشعار رائعة هي مثال
البلاغة والانسجام

وكان من أهل المعرفة بصناعة الطب والنظر في التعاليم وتهتك في
علم السكياء وخلع فيها العذار وله فيها موضوعات كثيرة. توفي بتونس
في جملة مخدومه أبي الحسن يوم عيد الاضحى سنة 749 هـ

ابو عبد الله المكودي

هو ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المكودي الفاسي شاعر مبدع من أهل الظرف والادب والانطباع. بيته فيما علمت من بيوتات فاس العريقة في المجد والحسب. نبغ بالشعر فبرز فيه واشتغل بالكتابة في الديوان السلطاني زمانا الا انه شاعرا اكثر منه كاتباً. وهو من الشعراء الذين يعنون بتصوير العواطف النفسية الدقيقة والتعبير عن الاحساسات القلبية العميقة، فيكون لشعرهم اثر جميل في النفوس ووقع حسن في القلوب. وكان قد غلب عليه الشراب ومجالس اللهو والقصف والمجون فنرى به ذلك وخط من قدره فلم يلحظ بالعين التي كان يجب أن يلحظ بها ولم يرتفع ذكره ما بين الادباء والشعراء المعاصرين. ولقد دخل غرناطة فيما يحدثنا به ابن الخطيب فلم يوبه له ولم يحتفل به، وهكذا الاسترسال في مجاهل الهوى يخل بالشرف ويقدح في المروعة. وتوفي سنة 753هـ

ابن جابر

هو ابو عبد الله محمد بن جابر الغساني المكناسي، شاعر مجيد عالم بالقراءات وتوجيهها متصرف في فنون العربية والادب. اكثر شعره الوصف والنظم التعليمي. ويمتاز بالسلاسة والعدوبة وقوة التخيل. كان له شهرة مطبقة في ايام حياته، وكان في مكناس كعبة القصاد من الادباء والطلبة وغيرهم يجدون لديه ما تصبو اليه انفسهم من مذاكرة الادب

ومدارسة اللغة. وكان حلو النادرة بديع الحكاية فكه المحضر لا يكاد جليسه
يسلو عنه، له نزهة الناظر لابن جابر في وصف بلدة مكناس وله غيرها
وتوفي سنة 827 هـ

وهو غير ابن جابر صاحب البديعية فان ذاك اندلسي.



عصر السعديين

سياسة الدولة

هذه ثانية دولة عربية صريحة قامت في المغرب بعد الادارسة، بل ثانية دولة علوية بقطع النظر عما ارجف به خصومها من الطعن في نسبها وهي لم تستند في قيامها الى مهدوية ولا الى عصبية، وانما من اول الامر كان نهوضها لتحقيق امنية وطنية هي تنظيم القوات الجهادية وقيادتها لطرد الاجانب المحتلين بالشواطي، وذلك بطلب من المجاهدين انفسهم فأشبهت في هذا الامر الدولة الادريسية من حيث كونها مطلوبة لا طالبة وكون نهضتها سياسة دينية من اول الامر لم تموه بشيء من الدعاوي الكاذبة وكون القائمين بنصرتها والمنضوين تحت لوائها هم البرابر الذين قاموا بنصرة الادارسة من قبل وانضوا تحت لوائهم. والعجيب هو انهم نضروهم على دولة بني وطاس البربرية، فلم ينظروا الى ما تقتضيه عصبية النسب واللغة والقومية من الاحتماء لهم والدفاع عن سلطانهم ان يزول، وفي زواله فشل امرهم وذهاب ريحهم لكنها كانت زاغت عن الصراط المستقيم واشتغلت بالتهالك على طلب السلطة وظنت الملك هو هذه المواكب التي يظهرون فيها بمظاهر الفخفخة والاختيال من غير نظر في مصالح الرعية ولا اهتمام بتحصين البلاد من هجمات العدو، فسرعان ما اختلت الامور وتعرضت الامة لشقاء الاحتلال وتحكم الاجنبي فيها فكثرت إغارة البرتغاليين على الشواطي، واحتلوا منها ما احتلوا واخذوا

يعدون العدة لضم أطراف المغرب بعضها الى بعض وتمثيل مأساة عام 1912 في عام 1512 فكيف لا يتحد البربر والعرب على رفع هذا العار عنهم وتلافى الخطر المحيى بهم؟ وبعد فهل تريد دليلا أقوى من هذا على صحة إسلام البربر وصدق إيمانهم وتغلغل الروح الديني والتعاليم المحمدية في نفوسهم حيث غلبوا الرابطة الدينية على العصبية الجنسية والاخوة الإسلامية على النعرة القومية فدلوا بذلك على اتحادهم مع العرب وائتلافهم بهم اتحاد الروح مع الجسم وائتلاف اليمين بالشمال؟ اللهم ان من ينزعم غير ذلك ويكابر في هذه الحقيقة المموسة فانما غرضه السعاية وبث سموم البغضاء بين ذوي القرابات الوشيعة والارحام المشتبكة؛

دبت عوامل الانحلال في جسم الدولة الوطاسية وأخذ الضعف منها مأخذا عظيما فقصرت سلطتها على حواضر المغرب ولم يبق لها نفوذ فيما عداها من البلاد الذائبة والقبائل العاتية. وقد استنفذ مجهودها واستفرغ قوتها ما كان قائما بين أفرادها من التنازع على نيل السلطة والاستبداد بصولجان الملك، ثم ما كانت تعانيه من قتال العدو المحتل بالشغور وخصوصا القربية من عاصمة الدولة فاس. فلم يكن لديها قوة كافية تمكنها من القيام بدور حاسم في السواحل السوسية، البعيدة حيث طغى سيل المستعمرين البرتغاليين. لما عرفوا أنهم بمنأى من طلب رجال الدولة وتعقب آثارهم. ولذلك أخذوا في بناء المعاقل والحصون والتهيؤ والاستعداد لليوم الذي له ما بعده. فضاق المسلمون بهم ذرعا وغصوا بمكانهم من

تلك البلاد التي هي حلق السوس وفم عاصمة الجنوب.
ورأت قبائل المصامدة المباركة، ذلك فساءها أن يكون عبيدها
بالامس اسيادها اليوم وأن تبلغ القحمة بأولائك البله الاغرار الى أن
يتحدوها في بلادها ويجرءوا على خصي اسود الشرى في عرينها
فتقدموا اليهم بنفوس ابية وانوف حمية، لكنهم لما كانوا يعرفون أن يد
الله مع الجماعة وأن القوة في الاتحاد أخذوا يبحثون عن ذلك الشخص
الذي يولونه قيادهم فسرعان ما ارشدوا اليه فكان هو الشريف أبو
عبد الله محمد القائم بأمر الله وكان مقيما بدرعة فبعثوا اليه فقدم عليهم
 واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه فكان هو واضع الحجر
الاساسي في بناء هذه الدولة الشامخ. ولقد ساعده الحظ وكتب له الظفر
فاجلى الاعداء عن ارض الوطن وزحزح قدمهم التي كانت قد رسخت
فيها، فتيمن المسلمون بطلعته وتفاءلوا بطائره.

وكان له ولدان أرضعا افوايق النجابة والبراعة واقتعدا أسنمة
النجدة والشجاعة فدعى الناس الى بيعة اكبرهما وهو ابو العباس احمد
الاعرج الذي دخل مراکش سنة 930 وحارب الوطاسيين وجاذبهم حبل
السلطة في المغرب زمانا حتى تدخل الناس في الصلح بينهما فانبرم عتده
على ان يكون للاشراف السعديين من تادلة الى السوس وللوطاسيين من
تادلة الى المغرب الاوسط. وكان الساعي في عقد هذا الصلح جماعة من
العلماء والشرفاء والاعيان.

ثم شالت نعمة السلطان أبي العباس الاعرج ونهض اخوه أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي، وكان شهما ذكيا عالي الهمة رفع القدر عالما متفندا أدبيا اريحيا سياسيا محنكا فذلل الصعاب وسنى العقاب وتغلب بطول امله وحسن صابرته للامور على جميع المشاق، وكان يقول «ينبغي للملك ان يكون طويل الامل فان طول الامل لا يحسن الا منه لان الرعاية تصلح به» ويقال أنه من طول امله اخذ سبئة وتلمسان، فمهد البلاد واخضع العباد ودخل فاس سنة 950 واجلى منهاء اخر ملوك بني وطاس ثم قضى عليه بعد ذلك وعلى دولته فصفاله ملك المغرب من اقصاه الى اقصاه فقعده قواعد وشاد مبانيه واحيى مراسم السلطنة الدارسة ومعالها الطامسة وكانت سيرته وسياسته كلها مثال الخزم والضبط ودليل الحكمة والاقتدار

ثم تلاه ابنه عبد الله الغالب فاقتفى اثره في حسن السيرة وكان محبوبا من الشعب بجميع طبقاته ونشطت الحركة الاقتصادية في زمانه وكثر البنيان واستبحر العمران وكانت ايامه كلها أيام دعة وأمن ورخاء وعافية. ولما توفى قام على العرش ولده محمد. وكان للغالب اخوان تقربا بالجزائر مدة توليته الملك خوفا على انفسهما منه وهما الغازي أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله وابو العباس احمد المنصور الذهبي. فحين سمعا بوفاة اخيهما واستيلاء ابنه على الملك وانتراعه ثرات ابيهما من ايديهما، لم يرضيا بالدينية ووثبا وثبة الاسد الهصور فلم يهدأ لهما بال حتى دبرا

بينها خطة الدفاع عن حقهما المغتصب فسافر الغازي أبو مروان إلى القسطنطينية العظمى ومثل بين يدي السلطان سليم الثاني وطاب إليه أن يمدد بجيش يدخل معه المغرب فينتزع الملك من ابن أخيه فلم يجبه إلى طلبه لاشتغاله بأمر تونس التي كان الاسبان يهاجمونها في ذلك الحين. فبقى هناك حتى جهز السلطان حملة سنان باشا التي انتزعت تونس من ايدي الاسبان فصحبها أبو مروان وأبلى فيها بلاء حسنا ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان فجازاه على ذلك بأن أمر كتيبة من الجيش التركي الجزائري يبلغ عددها أربعة آلاف رجل فدخلت معه إلى المغرب بعد أن اشترطت عليه أن يعطيها عشرة آلاف عن كل مرحلة

وما أن شارف فاس حتى خرج إليه ابن أخيه لكن جيش هذا انضم إلى عمه وكان الغازي يكتب القواد والوزراء أيام مقامه بالجزائر ويعدهم ويمنيهم فلما جاء كانوا كلهم على هواه فانقادوا إليه وهم كذا رجع الملك إلى نصابه فاستقل به أبو مروان ناهضا بأعبائه مضطعا بشؤونهم. وكانت تلك المدة التي قضها مشردا عن بلاده ووطنه، قد عملت عملها في تنشئته وتدريبه على السعي المحمود والعمل النافع كما أن تجولاته ومشاهداته قد اكتسبته خبرة واسعة بجميع الشؤون ودربة سياسية نادرة، فادخل عدة إصلاحات مهمة على الإدارة والسياسة أهمها ما كان مختصا بتنظيم الحربية، حيث اقتبس سائر نظم الجندية العثمانية

وسار بالجند المغربي في سبيلها حتى بلغ النهاية فلم تحل واقعة وادي المخازن حتى كان لديه جيش منظم مدرب على أصول الحربية الفنية يندر وجود مثله في ذلك الحين عند الممالك المعادية كالاسبان والبرتغال وهما إذ ذاك من أعظم شعوب أوربا قوة وامضاهم شوكة.

وقد شاهدنا نتيجة هذا الإصلاح العملي للجيش في قهره أكثر من مائة ألف جندي أراد ملك البرتغال أن يستذل بهم المغرب ويخضعه لحكمه فساء فاله وخاب أمله وكان كالباحث عن حتفه بظلفه والجاذع مارن انفه بكفه إذ وقع متردياً في هاوية البوار وبساء هو وجيوشه الكشيفة بالدمار وذلك في واقعة وادي المخازن الشهيرة التي كانت هي القاضية على مملكة البرتغال فلم ترفع بعدها رأساً إلى الآن.

نعم شاهدنا هذه النتيجة السارة وإن لم يكتب لبطلها العظيم أن يشاهدها مع الأسف حيث أنه قد توفي أثناء المعركة محموماً، لاكننا نؤمن أنه ما أغمض عينيه حتى أغمضهما عن يقين ثابت واعتقاد راسخ بالنصر والغلبة حيث عرف أنه قد بنى واحسن البناء فاطمأن قلبه وهدأ روعه وصعدت روحه إلى الملأ الاعلى تشرف من برزخها على ميدان القتال وتبارك المجاهدين وتستقبل أرواح الشهداء في عليين.

ولما انكشفت الموقعة عن اندحار العدو وانكساره نظر الناس فوجدوا سلطانهم قد توفي فما كان بأسرع منهم إلى بيعة أخيه وخليفته ورفيقه في غربته السلطان أبي العباس احمد المنصور الذهبي وانه ليوم عظيم

وعيد فخيم حيث خرج الناس من الموقعة وهم سكارى بنشوة النصر
وزاد فرحهم إنتصاب هذا الملك الهمام على عرش آبائه الكرام لما كانوا
يعرفونه من نجده وشجاعته وجوده وحلمه وإخلاقه العلية التي لا يمكن
تعدادها هنا ، فناهيك به من يوم اجتمعت فيه اسباب الفرح وغابت
عنه موجبات الترح!

وماذا احدثك بعد عن سيرة هذا السلطان وما بلغه المغرب في أيامه
السعيدة من القوة والعظمة والحضارة والرقى والرفاهية والعمران؟ لقد
كان المنصور بحق واسطة عقد الملوك السعديين وقد رأيت انه
لم يكن فيهم الا فاضل ابن فاضل ومن ينشد مع القائل

إذا سيد منا خلا قسام سيد قول لما قال الكرام فعول

فلمنصور كان عالما إلى درجة الاجتهاد وإلى أن جزم علماء عصره بانه
المجدد في القرن العاشر وكان اديبا شاعرا كاتبا سابق فحول الصناعتين
من ادباء دولته وكان سياسيا مجنكا وقائدا شجاعا وإداريا منظما ومصاحبا
اجتماعيا كبيرا، وبالجملة فلقد اجتمعت فيه اوصاف الزعامة واشراط
الامامة حتى لقد كان دماغ الامة المفكر وقلبها النابض ويدها العاملة.

يكفيك ان تنظر إلى مشاريعه المظام ومآتيه الفخام فمن فتح
السودان وتوات وتيكرارين حتى اصبحت الصحراء الافريقية كلها في
قبضة يده وتحت تصرفه فاستعت دائرة نفوذه إلى ما لم يبلغه قبله في
هذه الجهة سلطان واكتسب المغرب بذلك جلالة قدر ورفعة شأن

وجعل يتقلب في النعماء كيف شاء إذ لا يخفى ان هذه المستعمرة الشاسعة كانت تحتوي على منابغ الثروة الطائلة وكنوز الغنى الوافر فقد كان الذهب يحمل اليه منها بالاحمال. وكان في دار سكة المنصور اربع عشرة مائة مطرقة كل يوم تضرب الدينار الوهاج وهذا غير المصوغات والحلي، ولذلك سمي المنصور الذهبي - إلى احيائه سنة المشورة وجعله الحكومة شرعية اشبه شيء بالحكومات الدستورية النيابية، وذلك بفتحه للديوان الشوري الذي كان يعقد مجالسه كل يوم اربعة من من الاسبوع ويحضره وجوه الامة وسراتها فيتفاوضون في شؤون المملكة وتدير سياستها فلا يقطع في امر بدون ان يعرف رأي الامة فيه - إلى بنائه القصور التاريخية العظيمة كالبديع وغير القصور من الحصون والجسور - إلى اعادته تنظيم الجند من جديد موقفا بين النظام المستعجم، الذي جنح له اخوه المعتصم وكرهه الناس وقوفا مع العوائد، والنظام العربي الذي كان قبله فجاء في غاية ما يكون من النظام والترتيب. وسياتي وصفه في قصائد شعرائه في قسم المنظوم من الجزء الثاني - إلى تنشيطه للصنائع الوطنية بانواعها وادخال ما لم يكن معروفا منها قبل وتعضيده للفلاحة الذي اتى باحسن النتائج حتى في انواع المزروعات التي لم يسبق للبلاذ بها عهد كقص السكر الذي نجحت زراعته نجاحا كبيرا مما ادى إلى انشائه لمعاصر السكر العديدة في بلاد سوس ومراكش والغرب حتى كثرت هذه المادة الضرورية بالمغرب ولم يبق لها ثمن

فكانت من أكثر صادراته الى اوربا وغيرها وكان يبادل الايطاليين بها الرخام - الى غير ذلك.

لا يمكننا ان ناتي في هذه النبذة على وصف ضخامة ملك أبي العباس المنصور وحسن سيرته، وانما حسبنا اننا اشرنا الى لمع من ذلك. ويقال بالجملة ان ايامه كانت غرة في جبين التاريخ المغربي وان الدولة السعدية لو لم تنجب الا اياه لكفاهها فخرا. على ان الدهر الخؤون لم يلبث ان اعلن حربه عليها بعد وفاة المنصور فتردت من ذلك العلو الشاهق الى الحضيض الاسفل.

ومن السخف ان يحاول الانسان الكلام على حياة هذه الدولة بعد وفاة المنصور وان امتدت الى حين. وكذلك نحن ننتهي هذا وفي اعتقادنا اننا اعطينا القاريء صورة مضجرة من سياسة هذه الدولة وسيرتها في رعيته التي اولتها قيادها وسلمت لها امرها عن رضى وطيب خاطر منها فلم تخيب فيها ظنها واثت بما يتناسب مع طيب عنصرها وشرف اصلها، الا ما كان من افراد قليلين لا يمكن ان يوخذ الابرياء بذنبهم وهم فوق ذلك شبان اغرار لم يصدروا في شيء من اعمالهم عن خبت نية او سوء قصد.



الحركة العلمية

لو صح ناموس النشوء والارتقاء وكان كل شيء في هذا الوجود مطرداً مستمراً يتصل اوله بئاخره وترتبط أطرافه بعضها ببعض لكان للمعارف اليوم في بلاد المغرب شأن غير هذا الشأن. اذ قد رأيت ما كانت عليه من التقدم والانتشار في عصر المرينيين فما ظنك لو بقيت سائرة نحو غايتها القصوى من التكمل والنماء منذ ذاك العهد الى الان؟ ولا نقصد انها في هذا العصر تقصر عما كانت عليه في العصر السابق او تقل عنه شأنًا، وانما نتأسف للموقف الذي اعتراها في تلك الفترة التي كانت الدولة الوطاسية مهيمنة فيها على المغرب والتي لم تذق البلاد فيها طعم السلم والراحة حتى كاد اليأس يستولى على النفوس لولا ان تدارك الله هذه الامة بضم شملها واجتماع كلمتها على يد زعيم هذه الاسرة السعدية المباركة كما سبق القول.

وحينئذ بعد استقرار الاحوال ورجوع الامن الى نصابه، عاد لكل شيء رونقه وبهجته واقبل كل على شأنه ورجال العلم ايضا اخذوا في احياء ما اندثر وجمع ما تبعثر من سالف ذلك ذلك المجد العلمي والتاريخ الادبي، فلم تنشب حركة العلوم والآداب ان عاودها النشاط والانتعاش وخصوصا بعد ما أنست من الملوك السعديين وعلى رأسهم المنصور الذهبي ذلك التعظيم الذي سبقت الإشارة اليه.

بيد أنها ان كانت نهضت من جديد فانها لم تقدم ما يقعد بها عن

استئناف السير الى الامام، وذلك ما مني به رجال هذا العصر من حب الاختصار والتعمق فيه حتى افضى الامر الى ان أصبحت العلوم في حالة من الغموض والابهام تصد عنها كثيرا من الطلاب. وهذا الامر ان لم يكن اخرها كثيرا فقد عاقها عن التقدم والانتشار طيلة المدة التي بقيت فيها قيد الانشاء والاعادة.

ويقال بالجملة ان العلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير قد كانت منتشرة بكثرة على نسبة ترتيبها هذا، الذي ذكرناه، وانما الذي ظهرت عليه اثار التحول هو الفقه، فالغالب ان كتبه التي كانت مستعملة في العصر المريني قد اطرحت الآن ولم يبق منها الا القليل واخذت كتب اخرى مختصرة عوضا عنها وظهر نشاط كثير وتنافس في شرح هذه المختصرات والتعليق عليها.

وان ننس لانس ما جد في هذا العصر من كثرة الاقبال على علوم القراءة وشدة العناية بها حتى لقد تخصص بها علماء كثيرون لا يزاوون غيرها من العلوم كما شارك فيها سائر العلماء بل كان وصف العالمية لا يكمل الا بها، ويمكننا ان نقول ان هذا كان عصرها الذهبي في افريقيا كلها، الذي بلغت فيه الى أوج الكمال. وحسبك دليلا ان وقف القراء ان الذي وقع الاجماع عليه وجرى العمل به في المغرب منذ ذلك الوقت الى الآن، انما وضع في هذا العصر وكان واضعه هو الاستاذ الصماني.

أما الكلام، فقد قامت له ايضا دولته، اذ وجد ما حفز الهمم للاشتغال

به وهو تلك المناظرة العنيفة التي قامت بين الامامين الخروبي واليسيثني
أولا وبين هذا الثاني والامام الهبطي ثانيا في مسألة الهيمنة هل
الحق سبحانه وتعالى مما يدخل في المنفى بسلا وهل تنتفي بها الوهية
الصنم وغيره مما عبد من دونه باطلا ام لا. وقد استمرت هذه المناظرة
زمانا طويلا وثار بسببها شر كبير بين العلماء حتى تدخل السلطان نفسه
فيها ولم يجد ذلك شيئا وبقيت المسألة على جالها الى ان تأدت الى العصر
العلوي فلم تعد من يروجها من الطلبة ثم تصدى لها ابو علي اليوسي فلم
يترك مقالا لقائل على عادته وقطعت جهيزة قول كل حطيب

ولم تكن هذه المناظرة هي الوحيدة من نوعها فقد قامت بين اليسيثني
ايضا والامام عبد الوهاب الرقاق مناظرة أخرى في مسألة خلف الوعد
من الله تعالى فقال الرقاق ان ذلك يصح منه وخالفه اليسيثني والف كل
منهما في المسألة منتصرا لرأيه مما يدل على زيادة اعتنائهم بهذا العلم
وكثرة اشتغالهم به.

وأما التصوف فقد كان طغى عليه سيل التدليس والتلبيس فقيض الله
له مثل ابن خجو والهبطي فهذباه وتقحاه.



هذا ما يرجع الى علوم الشريعة. وأما علوم الادب فالنحو بالخصوص
مما ظهر عليه اثر التحول جلبا واضحا فاقصر طلابه على اثنين أو ثلاثة
من الكتب المختصرة او المنظومة لا يجاوزونها او تجاوز ارواحهم الخناجر

وقد نشط العلماء في شرح هذه الكتب والتعليق عليها نشاطا لا مزيد فوّه.
وأما علوم البلاغة فإنها كانت نافقة جدا، إلا أن أثرها في الالفاظ
كان أقوى منه في المعاني وعلى الأخص عند بعض الأدباء الذين شغفوا
بالبديع فاكثروا منه إلى حد الإغراب. وقد كان على رأسهم المنصور
الذي هو في ملوك المغرب كأبن المعتز في ملوك المشرق الآن هذا لم
تدركه حرفة الأدب كما أدركت سلفه.

وأما علم التاريخ فهو الوحيد من علوم الأدب الذي ازدهر في هذا
العصر ازدهارا كبيرا إذ قد رزق رجالا أكفاء انصرفوا لخدمته ووجهوا
اهتمامهم إليه وبالأخص تاريخ السعديين الذي لولا هذه العناية لظل
محبوبا عن الباحثين، كتاريخ الوطاسيين قبله، محاطا بالغموض الذي
يحوج المؤرخ إلى الرجم بالظنون وافتراض الفروض ولعل هذا الاهتمام
كان منشأ تعزيد الإشراف السعديين للمؤرخين وعلى الأخص المنصور
الذي اجتمع في بلاطه عدد كبير منهم كالعلامة المقري صاحب نفح
الطيب وأزهار الرياض وغيرهما وابن القاضي وعبد العزيز الفشتالي
ومحمد بن علي النسب وغيرهم، ناهيك بفدائه لابن القاضي المذكور لما
وقع في أسر الأفرنج بالوف الدنانير الذهب.



وهذا في العلوم الأدبية. وأما العلوم الكونية فما كان مما تقتضيه في
الجملة، طبيعة العمران البشري وخلة الاجتماع الإسلامي فإنه قد كان

منتشرا بكثرة، وذلك الهندسة والهيئة والطب وما إليها. وما عدا ذلك فلم تقف له على خبر.

أما الطب فقد كان للدولة مزيد اعتناء باهله واهتمام بشأنه وناهيك بما أسداه المنصور لطبيبه الخاص أبي عبد الله محمد الطبيب وما خلع عليه هو ورجال دولته لما استقل من مرضه المخوف وتذاركه الله على يد الطبيب المذكور عام 987 وكان هناك أطباء كثيرون منهم أبو القاسم الوزير صاحب كتاب المفردات المشهور وأحمد المريد وابن سعيد المرغيشي وغيرهم. ومما يدل على ارتقاء شأن الطب في هذا العصر ما وصفه المنصور من أنواع الوقاية والعلاج في كتابه الذي بعثه إلى ولده بمرakash عند ظهور الوباء ونص المراد منه: «والى هذا أسعدكم الله أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد، ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله فالزموه وإذا استشعرتهم، بسلامة، بحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه ولا تهملوا استعماله. وأما ولدنا حفظه الله لمكان الشبيهة فحيث يمنعها الحال من المداومة على الترياق فهذه هي الشربة المعروفة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هنالك عند التونسي فيكون يستعملها هو والابناء الصغار المحفوظون بالله حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق المرة والمرتين على قدر الحاجة فيعود إليها. والبراءة التي ترد عليكم من سوس أو من عند الحاكم أو من عند ولد خالكم أو من عند

غيرهما لا تقرأ ولا تدخل دارا بل تعطي لكتابكم هو الذي يتولى قراءتها
ويعرفكم مضمونها ولاجل ان الكاتب يدخل عليكم ويلبس مقامكم فلا
يفتحها الا بعد ادخالها في خيل ثقيف وتنشر فتيسر وحينئذ يقرأها
ويعرفكم بمضمونها اذ ليس ياتيكم من سوس ما يستوجب الكتمان.

ومما في هذه الرسالة مما يتعلق بالبيطرة وهي طب الحيوان قوله:
«واوصيكم اعزكم الله ان تتفقدوا فرسنا الاحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه
القصيل ليلا يكثر لحمه وينزاد ألمه بل انظر من يركبه كل يوم بل لا ينزع
السرج بالكلية عن ظهره بياض النهار كله واعطوه لصاحب روض المسرة
يركبه في ذهابه وايباه للمسرة اولداره واوصوه ان لا يركبه غيره».

وأما الهيئة فقد كان لها فضل انتشار ايضا، لمكان الحاجة اليها في
معرفة اوقات الصلاة والامساك والافطار في الصوم وغير ذلك وقد الفت
فيها وحدها ومع الحساب كتب عديدة ومن علمائها المشهورين البوعقيلي
والمرغشي وغيرهما،

وفي غير ما ذكر نقول انهم ذكروا في ترجمة المنصور كدليل على
نبوغه وعبقريته انه قرأ كتاب اقليدس الهندسي وذلك جداوله بنفسه من
غير استعانة على ذلك باحد لفقده «من يحسن ذلك الشأن في عصره».
وهذا لا يتوافق مع ما عرف عن هذا العصر من استبحار العمران وكثرة البنيان
وشيوع فنون الخزرفة من النقش والنزويق وغير ذلك مما اولاه اما
امكن بذلك قصر البديع العديم النظير وغيره من الحصون المنيعة والقناطر

الرفيعة التي تحتاج في وضع تصميماتها وبنائها الى جهود الجبابرة وعقول
الجهابذة من رجال الفن والهندسة المعمارية.

وفعلا فاننا نرى انه كان هناك رجال ممن يحسنون «ذلك الشأن»
او على الاقل ممن شارك فيه نظريا مثل ابن القاضي الذي الف كتاب
المدخل الى الهندسة وابي القاسم الغول الذي الف كتاب كيفية قسم
المياه على قواديس الديار. ولا بد ان يكون هناك آخرون لم نعرفهم
وعنهم اخذ هذان وغيرهما فباضافة هؤلاء الى الرجال العاملين الذين
كانوا موجودين بكثرة يتضح ما في قولهم لفقد من يحسن ذلك الشأن
في عصره، من المبالغة. انما الواقع ان الاشتغال بهذه العلوم كان نسبيا
وبمقدار مع طغيان الاقبال على العمل دون النظر، والاول وان كان هو
الاجدى والانفع الا ان الثاني له خطره ومنزبته في حفظ الذمساء العاليي
وصون الشرات الفني.



الرهبة العلمية واثارها

نذكر هنا على جاري العادة، ملخص تراجم المشاهير من علماء هذا العصر، ونتبعها ببيان أسماء الكتب التي ألقت فيه في مختلف ضروب المعرفة، تكميلاً للفائدة واحاطة بالموضوع من جميع جوانبه.

سقين

هو أبو محمد سقين العاصمي السفياني، أحد مشاهير رجال الحديث بالمغرب. روى عن الشيخ زروق وابن غازي وأبي الفرج الطنجي وأبي مهدي الموساوي وغيرهم. ورحل إلى المشرق سنة 909 فحج وسمع بهصر من أصحاب ابن حجر كالقشندبي وغيره فحصلت له رواية واسعة لم يحصلها غيره ممن كان في وقته. ثم عاب إلى السودان ودخل كنو وغيرها فعظمه أهلها واكبوا على الاخذ عنه وبقي يتحول مدة ثم رجع لفاس سنة 924 فتولى الخطابة بجامعة الاندلس والفتوى واقبل على قراءة الحديث حتى توفي سنة 956 وكان قد خرج لضريح مولاي بو سلهم فجلس ذات يوم على شاطئ البحر يقرأ دلائل الخيرات فخرجت فيه إحدى سفن الافرنج فقاتل حتى قتل شهيداً مبروراً رحمه الله.

وقد قيد بخطه كثيراً من فوائد الحديث وجمع كثيراً من الكتب وكان مشاركاً في الطب اقرأ الفية ابن سينا وعنه اخذها الناس.

القصار

هو أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار، (شيخ الأعصار والامصار)

الامام المحدث النسابة. ولد بفاس سنة 938 واخذ بها عن مشايخ عدة وبرز في الحديث فصار أماما فيه مقدما على غيره تضرب اكباد الابل للاخذ عنه والسماع منه. وكان نسابة واعية عارفا بتشعب الانساب ومحل افتراقها واجتماعها حافظا ثقة عدلا ضابطا شديد الاتباع للسنة ظاهر الخشية والورع على قدم السلف الصالح ولي الفتوى على عهد أبي العباس المنصور والخطابة والامامة بمسجد القرويين وسعى الحسدة في تأخيره عن هذه الوظائف عند خليفة السلطان على فاس فكتب السلطان من مراكش بتجديد عهد الولاية له قائلا اننا لا نبدله بمن هو مثله فضلا عن هو دونه.

وولي ايضا نظارة احباس الضعفاء والمساكين وكان لا يولاها الا ذوو الدين المتين من العلماء العارفين بقسمة الارزاق العادلين فيها مثل يحيى السراج الذي كان ناظرها قبل القصار.

وبقى القصار حاملا راية العلم بفاس والمغرب ناهضا باعباء ما كلف به من الوظائف حتى اخترمته المنية في رمضان 1012 فانتقل الى الدار الآخرة بعد ان جدد معالم الدين الدارسة واحيي مراسم العلم الطامسة وطار له صيت عظيم في بلاد المشرق والمغرب. فحدث الشيخ عبد الواحد ابن عاشر انه لقي بمصر في وجهته الحجازية الشيخ عبد الله الدنوشي فسأله عن اشياخه فذكر منهم القصار فقال الدنوشي يمدحه:

قد حاك شقائق العلوم ايمه وكسوا بها بالفضل من هو عار

رقت حواشيها وراق طرازها لا كنهها تحتاج للقصار
وقد ضاع بفقده علم كثير لانه لم يؤلف كتابا قط ولم يخلف بعده اثرا
يذكر ما عدا فهرسته وانظامه الكثيرة ومسوداته التي يبعث وزنا
بالارطال.

السراج

هو ابو زكرياء يحيى بن محمد السراج، حفيد يحيى السراج
المحدث الكبير المتوفى في العصر السابق سنة 508. كان هذا فقيها
مقدما فيه ولي الفتوى بفاس والامامة والخطابة بمسجد القرويين وولى
ايضا نظارة احباس الضعفاء والمساكين فقام بها خير قيام. وكان يدرس
المدونة بمدرسة العطارين ويستحضر ما قيد عليها وله حاشية على
مختصر خليل وفتاوي تشهد بمزيد فضله. ولد بفاس سنة 921 وتوفى
سنة 1008 هـ.

ابن عاشر

هو ابو مالك عبد الواحد بن احمد بن علي بن عاشر الانصاري
الفاسي، احد القراء والفقهاء المشاهير. ولد بفاس سنة 990 وقرأ على
الجلّة من علماء عصره. وكان استاذ عارفا بالقراءات وتوجيهها وبالضبط
والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرئ، فقيها مشاركا في الاصلين
والحديث والتفسير والتصوف والنحو والعروض والبيان والمنطق والطب
والهيئة والجماب. على قدم السلف في الزهد والورع والقيام بوظائف

الدين حتى الغزو والرباط في سبيل الله. نزيها متواضعا شديد الانصاف
ياخذ العلم عن هو دونه ويتولى جميع اموره بنفسه.

له النظم المعروف بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين جمع
فيه بين العقائد والفقهيات والتصوف وهو من الكتب التعليمية النافعة.
قال ابن الطيب القادري: «سمعنا انه ابتداء نظمه حين احرم بالحج فنظم
افعال الحج مرتبة بقوله:

وان ترد ترتيب حجك اسمعا بياضه والذهن منك استجمعا
ثم لما انفصل عن حجة كمل ما يتعلق بالقواعد الخمس من الضروري
الذي لا يسع المكلف جهله.» وله شرح مورد الطمئان للخرازي الرسم
ونظم في العمل بالربع المجيب وغير ذلك وتوفي رحمه الله عام 1040 هـ

الصماتاني

هو أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الصماتي الهبطي، الاستاذ المقرئ
صاحب تقييد وقف القراءان الذي جرى عليه عمل اهل المغرب عموما
من لدن زمن واضعه الى الآن. توفي بفاس سنة 930 هـ.

البيضاوي

هو ابو عبد الله محمد بن احمد بن عبد الرحمن اليسيثني الفاسي،
الفقيه المتكلم النظار. ولد سنة 897 ونشأ حريصا على طلب العلم، اجتهدا
فيه. اخذ بفاس عن مشاهير اعلامها ورحل الى المشرق سنة 930 فاخذ
عن اهل تلمسان وقسنطينة وتونس ومصر ومكة فاستمت دائرة معارفه

وكثر تحصيله ثم رجع إلى فاس فتولى بها الفتوى ودرس الفقه والاصول والنحو والبيان والحديث والتفسير. وكان زاهدا ورعا متفانيا في النصح والارشاد وألف تأليف محررة منها رسالة في تصحيح قبلة فاس واخرى في طهارة بول المريض غير المتغير واخرى في مسألة خلف الوعيد من الله تعالى واخرى في مسألة الهيئلة واخرى في حقوق الملك والرعية وغير ذلك وتوفي سنة 959 هـ.

الامام الربيعي

هو أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي، العالم العامل الناضح المخلص. قال في الدوحة: «كان رضي الله عنه آية من آيات الله تعالى في ارضه وعباده قائما على قدم الجدى في الزهد واتباع السنة والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يترك احدا من اهله وبنيه واصحابه يخرج عن التقشف ويقتطع في الدنيا ولم يسر أحد من الرجال والنساء بزاويته الا ان يكون تاليا لكتاب الله أو ذاكرا لاسمائته او متعلما لمعرفته الى ان لقي الله تعالى على ذلك.»

قال: «وكتبت من خط الشيخ أبي الحسن الاغزاوي المعروف بالحاج قال أبو زيد عبد الرحمن بن شريح أن الله تبارك وتعالى يبعث لهذه الامة عند رأس كل مائة من يجدد لها دينها الحديث ولا يبعد ان يكون منهم الشيخ سيدي أبو محمد الهبطي رضي الله عنه.» قال: «وقد قال هذا القول كثير من الاعلام وكان الشيخ أبو القاسم بن علي بن خجوة

يقول هو غزالي هذا الزمان. ولقد من الله به علينا وعلى المسلمين. «
وناهيك بها شهادة من مثل ابن خجوة. ثم قال :

«وكان أحرص الناس على تعليم عباد الله ويامر من يلقى بتعليم
الاهل والاولاد والعبيد والخدام والاماء عملا بقوله صلى الله عليه وسلم
لأن يهدي الله على يدك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم. وكان
كثيرا ما يحض على فهم مدلول الشهادة بل اتخذ ذلك هجيرا، لما رأى
من استيلاء الجهل على الخلق وألف في علم الهيلة اجزاء كثيرة اكبرها
جرما واكبرها فائدة كتاب الاشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة. وكانت
سيرته الذكر والذكرى وبذل النصيحة لكافة الورى.»

وله ايضا ألفية عامرة بالايات بالنصح والارشاد وذم البدع الشائعة
في الوقت وما عليه متصوفة الزمان من المنكرات والمحظورات ونظم في
العدة معروف وغير ذلك. وبالجمله فهو من مفاخر هذا البلد الامين
وياليت الاخلاف يقتدون بهدى الاسلاف كيف وقد اصبح الشباب
الطنجي من ازهد شبان المغرب في العلوم الاسلاميه والعربية اصالح الله
أحوالنا جميعا بمنه وكرمه. وتوفى الهبطي عام 963 هـ.

ابن خجوة

هو أبو القاسم بن علي بن محمد بن خجوة الخلوفا الحساني، الفقيه
شيخ السنة واحد المجدين. درس بفاس على مشاهير العصر كالعلامة ابن
غازي والشيخ زروق واضرا بهما. وكان صوفيا فاضلا متورعا مالكا لتهج

الحق شديد الشكيمة على أهل البدع ءامرا بالمعروف ناهيا عن المنكر
باذلا في نصرة السنة غاية مجهوده لا يبالي من خالفه منضا عديم المثال
في جده واجتهاده وعلمه وعمله.

له كتب غاية في التحرير والاتقان وكلها تدور على محور الاصلاح
الديني والارشاد التعليمي والنصح المحروض منها كتاب الغنيمة وكتاب
ضياء النهار وكتاب النصائح وشرح نظم الهبطي في العدة وشرح نظم
بيوع ابن جماعة السنوسي وغير ذلك. وفي شرحه لنظم البيوع ذكر
جملة من البدع الشائعة في عصره فاستغرق ما ينيف عن الاربعين صفحة
في عددها واستنكارها.

وكان السلطان محمد الشيخ السعدي، لما صفا له ملك المغرب ودخل
فاس بعث الى سائر اهل البقه والعلم أن يحضروا عنده فكان من جملة من
حضر أبو القاسم فاعجب به السلطان كثيرا واجله واكرمه ورغب إليه
في الإقامة بفاس فاجاب طلبه وقال فيه: «ما رأيت افضل منه علما
وصلاحا». وتوفى سنة 956 هـ.

المنجور

هو أبو العباس احمد بن علي بن عبد الله المنجور الفاسي، علامة
داهية متفنن انفرد في عصره برياسة الفقه والاصول والكلام والمنطق
والنحو والبيان والمروض والتاريخ. وكان موسيقيا بارعا فيها وكان احد
الابطال في امب الشطرنج والذرد.

خدم العلم مدة حياته فبرز في صداقة التدريس والتأليف وبذل
اقرانه بسلامة الذوق وصفاء الذهن وصحة الفهم حتى كان يقال عنه أن
فهمه لا يقبل الخطأ وصار في الاخير رئيس الهيئة العلمية بالمغرب غير
مدافع. وكان أبو العباس المنصور يحله ويكرمه ويحضه على التأليف كثيرا
ويعطيه العطايا السنوية، فحدثنا الافراني عنه انه كان يقول ما عهدنا
بذل المثمن إلا في أيام الاشراف السعديين، وما عهدنا بذل الالوف إلا
في أيام المنصور.

له في الكلام شرح مقاصد ابن زكري وفي الفقه شرح المنهج
المنتخب للزقاق وفي النحو شرح الالفية وضعه بامر المنصور وغير ذلك. ولد
سنة 926 وتوفى سنة 995 هـ.

ابن القاضي

هو أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي، نسبة إلى قبيلة مكناسة
لا إلى مدينة مكناس، الفاسي. ولد عام 960 وناول قراءة العلوم ببلده
ثم رحل إلى المشرق فدرس به على المشاهير ثم اقلب راجعا إلى فاس
فاسره بعض قرصان الافرنج وفداه ابو العباس المنصور بمال جزيل
وكان متضلعا من علوم الفقه والحديث والعربية والتاريخ. وهو
الغالب عليه. بله الحساب والفرائض. واستقضى بسلا ردحا من الزمان
ثم عاب إلى فاس فاكب على التدريس وكان مشغوفاً بنشر العلم وبثه
فلم ينزل كذلك حتى توفى عام 1025 وخلف عدة كتب نفيسة خدم بها

التاريخ المغربي خدمه تذكر ابد الدهر فتشكر وهي المنقذ المقصور على محاسن ابي العباس المنصور وجذوة الاقتباس فيمن كان من الاعلام بفاس ودرة الحجال في اسماء الرجال ذيل به تاريخ ابن خلكان وغير هذه مما ياتي ذكره.

القُدومي

هو ابو العباس احمد بن قاسم الغساني الشهير بالقُدومي، امام العربية وشيخ الاقراء في عصره كان عازفا بالذخو معرفة تامة وعليه المدار فيه، متحققا بالقراءات وتوجيهها وبالضبط والرسم وجميع ما هو من وظيفة المقرئ. والف حاشية على شرح الالفية للمرادي وهي نفيسة للغاية. وكانت وفاته سنة 992 هـ.

النرياني

هو ابو علي الحسن بن يوسف النرياني النحوي المقرئ. ولد عام 964 وطلب العلم بفاس فذبغ في علوم العربية والقراءات من نحو وتصريف ورسم القراءان ووضبطه. اخذ عن القُدومي وغيره والف شرح الجمل للمجراد وحاشية شرح الضبط للتنسي وغير ذلك وتوفي سنة 1023 هـ.

البعقلي

هو ابو زيد عبد الرحمن البعقي الجزولي، العالم الفلكي البارع له تعقبات على المنجمين تدل على تضلعه بالفن وهو الذي احدث الساعة الرخامية بالجامع الاعظم بتارودانت. وله شرح روضه الازهار وشرح

السيارة وغير ذلك. وتوفي سنة 1006 قال ابو عبد الله ابن المبارك
الافاوى: «لم أتأسف على موت فقيد تأسفي عليه لا تقراض علوم الهيئة
بموته ولهم يخلف مثله فيها»

ابو القاسم الوزير

هو ابو القاسم بن محمد بن ابراهيم الغساني المعروف بالوزير، احد
مهرة الاطباء في هذا العصر. خدم في الخاص عند ابي العباس المنصور
وألف كتباً منها شرح نظم ابن عزران في الحميات وحديقة الازهار
في شرح ماهية العشب والازهار المعروف بمفردات الوزير وغير ذلك
ولد عام 960 وكان حياً عام 994 هـ.

الغول الفشتالي

هو أبو القاسم المعروف بالغول الفشتالي، الفقيه القاضي المتطبب
المشارك في كثير من التعاليم. له رسالة في الطوائع ونظم جيد في
الطب ورسالة في كيفية قسب المياه لقواديس الديار وغير ذلك وتوفي
عام 1059.



وإليك الآن بيان الكتب المؤلفة في هذا العصر، مضافاً إليها ما
ذكرناه في هذه التراجم لتتألف من الجميع قائمة المجموعة النفيسة التي
ضمت من جديد إلى المكتبة المغربية:

كتب الحديث والتفسير وتوابعهما

الفتح النبيل في أسماء العدد في التنزيل لابن القاضي، الدر الازهر في مناسبات الآيات والسور لعبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة 1045، نظم اصطلاح الحديث له، حاشية على تفسير الجلالين لعبد الرحمن العارف المتوفى سنة 1046، تفسير الفاتحة له، حاشية على البخاري له، نظم نخبة الفكر لابن حجر في الاصطلاح للعربي الفاسي المتوفى سنة 1052، تفسير القرءان لعلي بن عبد الواحد الانصاري السجلماسي المتوفى سنة 1054، نظم اصطلاح الحديث له، شرح ابن بري له، إتيان الصنعة في قراءة السبعة لاحمد بن شعيب المتوفى سنة 1015، حاشية على شرح الضبط للزياتى، شرح الخراز لابن عاشر.

كتب الفقه والتصوف وتوابعهما

المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر، حاشية على شرح التتائي الصغير على المختصر له، زبدة الاوطاب في اختصار الخطاب للشيوخ ميارة المتوفى سنة 1072، شرح تحفة ابن عاصم في الاحكام له، شرح تحفة الزقاق فيها له، شرح المرشد المعين نسختان كبير وصغير له، تنبيه المقترين على حرمة التفرقة بين المسلمين له، حاشية على مختصر خليل للابار المتوفى سنة 1071، الفتاوي له، شرح تحفة ابن عاصم لعلي بن عبد الواحد، نظم اصول الفقه له، حاشية على المختصر لعبد الرحمن العارف، حاشية على المحلى في الاصول له، حاشية على المختصر للسراج، الفتاوي

له، حاشية على خليل للجنان المتوفى سنة 1050، حاشية على خليل لابي محمد التمجروتي المتوفى 980، الروض اليانع في فوائد النكاح وءاداب المجامع له، نيل الامل فيما به جرى العمل لابن القاضي، تنبيه الصغير من الولدان في الرد على زاعم الفتوى ءاجليان للكلالي المتوفى سنة 1047، المسألة الامليسية في الانكحة الاغريسية له، نظم احكام العدة للامام الهبطي، الفية في النصائح الدينية له، شرح نظم العدة لابن خجو، شرح نظم بيوع ابن جماعة له، كتاب الغنيمة له، كتاب ضياء النهار له، كتاب النصائح له، كشف قناع الالتباس عن البدع الشائعة بفاس للعقيلي المتوفى سنة 1076، سلاح اهل الايمان في محاربة الشيطان للعثماني المتوفى سنة 1027، بداية السلوك الى بساط ملك الملوك له، شرحه له، تنبيه الغافل على مرتبة العامل له، الانتباه في صدق عبودية العبد لمولاه له، نظم الشهداء له، وصلة الزاقي في التقرب بال المصطفى للشيخ احمد وعلى المتوفى سنة 1047، بذل المناصحة في فعل المصافحة له، فاك السعادة في فضل الجهاد والشهادة للهادي السجلماسي المتوفى سنة 1056، تصحيح البداية وتحقيق النهاية للزمراني المتوفى سنة 1013، الدرر في فضائل الادعية له، لباب الباب في معاملة الملك الوهاب ثلاث نسخ له، بداية المريد نسختان له، مصباح السالكين له، مفتاح السعادة له، نور الصباح له، نتائج الافكار له، نصيحة المراعب له، وسيلة الصديق له، الزهرة العالية له، شمس المواسم له، حزب الوسيلة له، حزب الفتح له، شرح منازل

السائرين له، شرح الحكم العطائية ثلاث نسخ له، شرح حذب البحر له،
شرح الشريشية له، شرح المشيشية للتجيبى المتوفى سنة 1030، شرح
المباحث الاصلية له، شرح الشريشية له. شرح المشيشية للزياتي.

كتب المنطق والكلام

الاشادة بعرفة مدلول الشهادة للهبطي، مراصد المعتمد في مقاصد
المعتقد للعربي الفاسي، الطالع المشرق من افق المنطق له، تلقيح الازهان
بتنقيح البرهان له، العقيدة الكبرى لعبد الله بن طاهر الشريف، العقيدة
الصغرى له، شرح مقاصد ابن زكري في التوحيد لمانجور، حاشية على
شرح كبرى السنوسي في التوحيد له، شرح المقاصد لعبد الواحد الفلالي
المتوفى سنة 1003، شرح الكبرى للحفصي المتوفى سنة 1037، شرح
صغرى السنوسي في التوحيد له، نظم المنطق له، حاشية على الصغرى
لاحمد بن علي الشريف العامي المتوفى سنة 1027، حاشية على الصغرى
للزياتي، شرح صغرى السنوسي في التوحيد للسكتاني المتوفى
سنة 1062، حاشية على شرح الصغرى له، حاشية على شرح الصغرى
لعبد الرحمن العارف، حاشية على مختصر السنوسي في المنطق لعلي
الياصلوتي المتوفى سنة 1039

كتب النحو والتصريف والبيان وما إليها

حاشية على مطول السعد في علوم البلاغة لعلي الياصلوتي، مراقبي
المجد في آيات السعد لمانجور، شرح ألفية ابن مالك له، حاشية على

شرح المرادي للالفية لعبد الواحد الفلاحي، حاشية على شرح المرادي
 للقندومي، حاشية على شرح المكودي للالفية لمجبر المتوفى سنة 985،
 شرح لامية ابن مالك للمكلائي المتوفى سنة 1041، شرح جمل المجراد
 للزياتي، حاشية على شرح المكلائي له، حاشية على شرح الالفية للمكودي
 له، حاشية على شرح الشريف على الاجرومية له، شرح النصف الاول
 من توضيح ابن هشام له، شرح الجمل للرسموكي المتوفى سنة 1049،
 حاشية على المكودي له، شرح الاجرومية لعلي بن عبد الواحد، نظم
 التصريف له، شرح الالفية لقاسم ابن القاضي المتوفى سنة 1022، شرح
 تصريف المكودي له، حاشية على شرح الشريف له، نظم الاجرومية
 للعربي الفاسي.

كتب التراجم والتاريخ والرحلات

مناهل الصفا في تاريخ دولة الشرفا لعبد العزيز الفشتالي، الممدود
 والمقصود من سنا ابي العباس المنصور لمحمد بن علي الفشتالي، نظم وفيات
 ابن قنفذ له، ذيل نظم الوفيات للمكلائي، المنتقى المقصور على مآثر أبي
 العباس المنصور لابن القاضي، درة الحجال في اسماء الرجال له، جذوة
 الاقتباس فيمن حل من الاعلام بفاس له، غنية الرائض في طبقات أهل
 الحساب والفرائض له، درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك له، لقط
 الفرائد من حقائق الفوائد له، الامام ببعض من لقيته من علماء الاسلام
 لعبد الواحد الفلاحي، الفوائد الجمّة في اسناد علوم الامة لآتمنارتي المتوفى

سنة 1070، التعريف برجال البخاري لعلي بن عبد الواحد، نظم السيرة له، المعزي في أخبار أبي يعزى الزمراني، أنوار الزمان بقدوم مولانا زيدان لقاسم ابن القاضي، الذفحة المسكية في الرحلة التركية لابي الحسن التمجروتي المتوفى سنة 1003.

كتب الادب والشعر

شرح لامية العجم للماغوسي (من اهل القرن العاشر)، مدد جيش التوشيح لعبد العزيز الفشتالي، مقدمة لديوان المتنبي له، شرح مقصورة المكودي له، شرح مقصورة المكودي لعبد الواحد الفلالي، ديوان خطب لعلي بن عبد الواحد، ديوان شعر للتمنارتي، ديوان شعر لعبد الله بن طاهر الشريف.

كتب الطب والهيئة والحساب

حديقة الازهار في شرح ماهية العشب والازهار لابي القاسم الوزير، نظم ابن عزراي في الحميات له، أرجوزة الطب للغول الفشتالي، رسالة الطواغين له، رسالة كيفية قسم المياه لقواديس الديار له، نظم في الطب لعلي بن عبد الواحد، نظم العمل بالربع الحبيب لابن عاشر، تصحيح قبلة فاس لليسيثني، شرح روضة الازهار للبعقلي، شرح السيارة له، البرق الوامض في الحساب والفرائض لقاسم ابن القاضي، شرح سلك النائي في الخمس الخالي له، محاذي على قصيدة ابن ليون في التكيس له، محاذي على الروضة له، شرح جداول الحوفي لابن القاضي، شرح الروضة لاحمد معيوب، المقنع لابن سعيد المرغيشي

المتوفى سنة 1089، شرحان عليه كبير وصغير له، اليواقيت في الحساب
والفرائض والواقيت للعقيلي، شرح المنية له، شرح الروضة له، المقرب
في الربع المجيب لاحمد بن حميدة المطرفي المتوفى سنة 1001، شرح
الروضة له.



الحياة الادبية

كانت الحركة الادبية في عهد بني وطاس قد وقفت وقوفا كليا اذ لم تجد مضطربا في ذلك الجو المضطرب بأعاصير الفتن والحروب. فلما قامت الدولة السعدية واستتب الامن والراحة بدأ الامل يتجدد في نهضة الادب وانتعاش روحه من جديد لا سيما وقد ظهر من تنشيط الملوك السعديين له واخذهم بضبعه ما قوى ذلك الامل. وبالفعل فما جاءت ايام المنصور الذهبي حتى عاد لدولة الادب سالف مجدها وسابق عثرها فصرنا نرى افواج الشعراء تموج في بلاط ذلك السلطان وبلغاء الكتاب يغص بهم ديوانه. وعدنا نشهد .. لآخر مرة .. مساجلة السلطان لاهل مجلسه ومطارحته اياهم اللطائف الادبية.

وانك لتعد من نوابغ أدباء هذا العصر الذين زانوا طلعتهم وطرزوا حلته ولا تعدهم لانهم كثير. لكن قيدومهم على الاطلاق وزعيمهم باتفاق هو فخر الدولة السعدية وذخرها امام النظم والنثر عبد العزيز الفشتالي الذي كان المنصور يقول في شأنه : « نفتخر به على ملوك الارض ونباري لسان الدين بن الخطيب » وفي الحقيقة انه من حسنات هذا العصر ومن افضل ادباء المغرب الذين برزوا في الصناعتين. وكان متوليا في دولة المنصور رياسة ديوان الانشاء فكان الكل يعترف برياسته ويقر بفضله. وهناك اديب فشتالي آخر هو الوزير ابن علي وكان كاتباً شاعراً

ايضا. ومن الادباء ايضا الذابغة الهوزالي الذي كان يعتبر بحق شاعر الدولة. وهو متنبى النزعة فخم الالفاظ جنل المعاني الا ان اثاره خاعت كلها مع الاسف الشديد ولم يصل الينا منها إلا النزر اليسير.

أما غير هؤلاء فهم ممن يمثلون المدرسة الاندلسية فسي رقة الشعر وسلاسته وانطباعه وناهيك بابي الحسن الشامي والقاضي الشاطبي والوزير الشيطمي من تالوث شعري يزري بثالوث بولس القديس !

وهناك طائفة من الشعراء كانت تبرز الجدد بالهنزل وتنفع في الفن روح الفكاهة مستقلة بهذا المذهب تجيء فيه وتذهب وكان المنصور يعجبه ذلك منها ويشيها عليه كثيرا وقد انفرد عصره بهذا اللون من الادب الا انه لم يتمكن من القوة والظهور لان وفاة المنصور قضت عليه في مهده. ومن أفراد هذه الطائفة ابن عمرو الشاوي ورابع ابن عبد الصمد وابو اسحق الزرويلي. ولسنا في حاجة الى ذكر العلماء والقضاة والرؤساء الذين كانوا يتعاطون الادب ويطلعون بين ءاونة واخرى على الجمهور بنتائج افكارهم خصوصا في الاعياد والمواسم والحفلات العديدة التي كان المنصور يقيمها لغير مناسبة ولها، فان هؤلاء اكثر من ان يحصوا. بله الادباء غير المغاربة ممن أووا الى حرم المنصور وتفيئوا ظله من شاسع البلدان ونازح الاقطار اذ كان يرفع اقدارهم وينزلهم منازلهم. وفي مقدمة هؤلاء ابو العباس المقرئ صاحب نفح الطب.

ولقد انتظم في مجلسه يوما وفد عمدته ثلاثة اشخاص مكبي ومدني

ومقدسسي، فقام المكي وقال يا امير المؤمنين: ان المساجد الثلاثة التي تشهد
اليها الرحال قد شد اهلها اليك الرحلة وانشد:

ان امير المؤمنين احمد بحر الندى وفضله لا يجحد
فطية ومكة اهلها . والمسجد الاقصى بذالك تشهد

ثم قال: نصرك الله انه لم يتفق مثل هذا لماك قصدت اياته قال المقرئ
وهو راوي الحكاية فتبسم لذلك أيد الله واجزل لهم في العطاء واجراء
النفقة عليهم كما هو دأبه بكل وافد عليه من أي بلد كان. الى غير ذلك.
واذ قد أعطيناك هذه الصورة المصغرة عن الحياة الادبية في هذا
العصر فلعلك تتشوف بعد الى تراجم الادباء سالف في الذكر فدونك بعض
المعلومات المفيدة من ذلك على حسب ما يقتضيه المقام:

عبد العزيز الفشتالي

هو الوزير صاحب القلم الاعلى ابو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي
الفاصي ولد سنة 957 ودرس بفاس على العلامة المنجور وأبي العباس
الزموري والقاضي الحميدي وعبد الواحد الشريف وغيرهم. وبرع في
فنون الادب والتاريخ والسياسة فعلمت رتبته عند المنصور وزهت به دولته،
حتى قال المنصور عنه كرامته السابقة. وقال صاحب سلافة العصر في حقه:
«كاتب المنصور، وريب تلك الدولة المشيدة القصور، وخادم سناها
الممدود والمقصور. المعترف لسان البراعة عن حصر مناقبه بالقصور. فاضل
زهت به الاقلام والاعلام، وأقرت بفضلها العلماء الاعلام وخضعت لادبه

سماسرة الكلام. واضاءت بانوار بيلاغته حنادس الظلام، فهو اذا نثر
أفحهم الورقاء ذات السجع. واذا نظم أخجلت أفكاره دراري السماء ذات
الرجع، فجاء بما شاء وكيفما شاء، من محاسن الاشعار والانشاء. ملح اما
منزلته في الكتابة فانه طبقة عصره غير مدافع. وأما في الشعر فانه متين
السبك محكم الرصف ناصع الالفاظ حسن التصرف في جميع فنون الشعر
لا سيما الوصف الذي اجاده وتقدم فيه بشاهد قصائده العديدة التي
قالها قي قصر البديع الذي بناه المنصور بمراكش فنقشت على جدرانها
وسقوفه وطرزت بها فرشته وأروقته مما ياتي طرف منه في الجزء الثاني
وله تصانيف منها مناهل الصفا في تاريخ دولة الشرفاء أي السعديين
مشمول على تاريخ هذه الدولة منذ نشأتها الى وقته وعلى نبذة من محاسن
المنصور في عدة مجلدات. ومنها مدد الجيش، ذيل به جيش التوشيح
لابن الخطيب قال في النسخ: استهله بقوله «الحمد لله الذي أمد جيش
محمد بعشرته» واتى فيه بكثير من موشحات اهل العصر من المغاربة
وضمنه من كلام امير المؤمنين المنصور ما زاده حسنا وروقا، ومنها مقدمة
في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم ومنها شرح مقصورة المكودي
وبالجملة فهو من مفاخر هذه الدولة كما قال المنصور عنه، وكانت وفاته
سنة 1032.

النبغة الهوزالي

ابو عبد الله محمد بن علي الهوزالي شاعر الدولة الرسمي. كان شديد الانصال بالمنصور والقرب منه يقوم عنده في الاحتفالات الرسمية والمواسم والاعياد ينشده ويعجب هو بشعره كثيرا ويصله ويخلع عليه. وكان قوي المراس على المعاني الشعرية فخم الالفاظ نابه المعاني جيد النظم رائع الاسلوب متضلعا من اللغة والادب بصيرا بمواقع الكلم متصرفا في ضروب المدح احسن النصرف، ووصفه الشيخ عبد الواحد الشريف فقال: «الفيقير المتفنن ذو الفهم القويم والادراك المستقيم قائد العويصات بنواصيها ومستنزل عصم القوافي من صياصيها، شعلة الذكاء الذي ينزري سناء بنور ذكاء» وقد علمت انه كان يلقب بالنبغة ولا ندرى ما اذا كان مرادهم بذلك الوصف او التشبيه وعلى كل حال فالحكم الصحيح في هذه القضية موقوف على النظر في كمية كبيره من شعره وقد قلنا انه ليس بايدنا منه الا النثر اليسير، فلنرجى البت في ذلك الى ان يتم الدليل.

ابن عيسى

هو ابو عبد الله محمد بن احمد بن عيسى الصنهاجي. كاتب سر المنصور واحد اعيان ادباء دولته له تضلع بعلوم العربية ومعرفة كبيرة بالتواريخ وايام الناس وسير الملوك وقلمه في الكتابة بارع وعارضته في الترسل قوية وله شعر قليل والف كتاب المهدود والمقصود من سنا ابي العباس المنصور قال المقرئ وهذه التسمية وحدها مطربة. توفي في سجن

مخدومه بفاس سنة 990.

ابن علي الفسّالي

ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم الفسّالي، احد وزراء المنصور ومن صدور الادباء في عصره. كان كاتباً مجوداً ماهراً في الصنعة شاعراً بارعاً متفناً في ضروب النظم قال صاحب الريحانة في حقه: «وزير مولاي احمد اديب فاس، وريحانة فضلائها الاكياس، تقدم فيها متقلداً قلادة انشائها، فائقاً برسائله على سائر ادبائها، وله ماء شعر تشربه افواه الاسماع ورياض منشور تغرد حمائم قوافيه بمطرب الاسجاع»

من مآثره الادبية اللامية التي نظم فيها ما تضمنه تاليف ابن قنفذ في وفيات الاعيان من زمن البعثة الى تمام المائة الثامنة وزاد عليه الى تمام الف سنة رامزاً الى التواريخ بنقط الحروف الابجدية على ما شاع عند ادباء العصور المتأخرة وقد ذيل على هذه القصيدة الاديبة المكلّاتية و اشار الي وفاة المترجم بقوله

«شكى» الدر فقد ناظم وبكى له بكاء محب بسان عن مرتحل وذلك في سنة 1021.

ابو الحسن الشامي

هو ابو الحسن علي بن احمد الخرجي الشامي، به شهر قومه لان من الشام كان قدوم سلفهم، وهم من بيوتات فاس وكان لهم مع ابي العباس المنصور ماهرة، وكان ابو الحسن هذا احد شعراء دولته والمقرين

منه، وهو شاعر فنان كلف بادخال البديع والمحسنات اللفظية في شعره لكن حيث لا يظهر عليها اثر التكلف والصنعة، يحكم الوصف ويجيده وابدع من وصفه غزله الذي يستثير عاطفة الحب من مكانها في القلوب. له لطائف أدبية نظما ونثرا سناتي على ذكرها في محلها، ومن وصفه عند ابن معصوم: «أديب له في الادب مذهب، طرازه بحسن البلاغة مذهب، وشعره الطف من دل الحبيب، واسحر من مقلة الشادن الربيب يتصور فيه ولا يتكلف، ويتقدم ولا يتخلف، فهو اذا تغزل اهدى نفحات نجد، واذا تذكر اورى لفحات شوق ووجد، على ان عليه من الجزالة ديباجة، تفوق عبقرى الوشى وديباجة، لا يشينه من الكلام حوشيه، ولا يلم بساحة انسه وحشيه» توفي سنة 1032.

ابن عمرو الشاوي

ابو عبد الله محمد بن عمرو بن ابي القاسم الشاوي. قال الشيخ عبد الواحد الشريف في وصفه: «الفقيه الاديب الكاتب الذي ارتفع صيته في مقامات الاخلاق وسما وغدا بين النظراء في عذوبة الشمائل علما. وحصل من الادب البائع على حظ وافر ونصيب، ورمى الى غرض الاجادة في منازعه بالسهم المصيب، وتدرع من حسن الخلق جبة لا تلقيها رياح الانزعاج والغضب، فاسلت القلوب الى محبته من كل حدب، فلان، أبقاء الله تضرب به في لين العريكة الامثال، وتتهاداه لفضائله وفواضله الملوك والاقيان، واناله من الخير الجزيل كل منال»

ويظهر من هذا ومن بعض نوادره مع المنصور انه كان ظريفا خفيف
الروح حاو الحديث فلم نعد به طوره حين عددناه في شعراء الفكاهة بل
ان منزعه هذا في شعره شديد الوضوح بحيث لا يحتاج الى من ينبه
عليه، وهو مع ذلك فصيح العبارة لطيف الاشارة لا يتكلف ولا يتعمق
فيكاد يكون كلامه مرءاة تتمثل فيها سهولة خلقه التي يتحدث عنها الشيخ
عبد الواحد الشريف، وقد أثبتنا في الجزء الثاني نبذة من آثاره كغيره
من ادباء هذا العصر.



عصر العلويين

الدولة السُريفة

انتشر عقد الدولة السعدية وتقلص ظلها من المغرب. أثر اشتداد النزاع وشبوب الحرب بين اولاد أبي العباس المنصور في طاب العرش والفوز بصولجان الملك، وكان قد أمر أمر الدلائيين أهل الزاوية التي اسسها الشيخ ابو بكر الدلاي، فاشتهرت بايواء الطلبة ونشر العلم واحياء رسوم الدين زيادة عن بذل الطعام للمصادر والوارد واعانة المحتاجين واغاثة المهوفين، فاعتنم رئيسها في هذه الاثناء الشيخ محمد الحاج الدلاي حفيد الشيخ ابي بكر المذكور، فرصة ضعف نفوذ الدولة وشغلها عن حكم البلاد فلف لفه وزحف الى مكناس وفاس فتملكهما ولم يلبث ان اسس الدولة الدلائية التي قاومها المولى محمد بن الشريف رأس الملوك العلويين، وليكنه لم ينل منها منالا اذ حصل الصاح بينه وبين الرئيس الدلاي على ان ما حاذى الصحراء الى جبل بني عياش فهو لدولى محمد ابن الشريف وما دون ذلك الى ناحية الغرب فهو لاهل الدلاء.

ثم لما توفي المولى محمد بن الشريف وتولى اخوه مولاي رشيد لم يرض بهذه القسمة الجائرة فتقدم واستولى على جل بلاد المغرب ثم حارب الدلائيين فظهر عليهم وتبعهم حتى كاد يفنيهم وقصد زاويتهم فاوقع بها الواقعة المشهورة وشرد باهلها فصفا له ملك المغرب ولم يبق

له منازع فيه وذلك سنة 1079.

ولما توفي تولى اخوه السلطان المظفر ابو النصر اسماعيل بن الشريف ثالث سلاطين هذه الدولة واعظمهم شهرة واجلهم قدرا. كان عاملا لآخيه على بلاد الغرب ومتوطنا بمدينة مكناس التي صارت عاصمته من بعد. فلما تمت مبايعة الناس له نهض لتمهيد البلاد واخضاع من كان خارجا عن الطاعة من اهل السوس وقبائل البربر فاستنزلهم جميعا من صياصيههم وفتك بهم حتى طلبوا منه الامان فاجابهم الى ذلك وعفا عنهم ليتفرغ الى منازلة الاجانب المحتلين بشواطئ المغرب والمستولين على اهم نفوره منذ اضطراب احوال الدولة السعدية.

فسار الى المهدي واستخلصها من يد الاسبان ثم ارسل جيشا ككثيفا لحصار العرائش واصيلا وكانتا بيدهم ايضا فطردهم عنهما وفي ذلك الوقت ورد الخبر باخراج الانجليز من طنجة فتم بذلك سرور المسلمين وازداد حبورهم واقاموا الاحتفالات وعملوا المفرحات وقد كانوا من فرط البث والحزن على اخذ العرائش في ايام الفتنة قد لبسوا الاحذية السوداء فبقيت في ارجلهم حتى افنتحها مولاي اسماعيل فانتزعوها حينئذ ولبسوا هذه النعال الصفرة.

ثم وجه مولاي اسماعيل عزمه الى فتح ثغرى سبتة ومليلية وشدد عليهما الحصار مدة طويلة وانصرف الى الصحراء فدخل بلاد السودان واستولى عليها فامتدت حكومته اليها جنوبا وشرقا الى بسكرة من بلاد المغرب

الوسط، وبذلك اتسعت مملكته وعظم صيته وهابه ملوك أوربا فمن دونهم.
وكان مولاي اسمعيل قد عني بجمع عبيد المغرب واتخذ العصية منهم
فاعد عسكر اقويا شديدا من جنس السواد بلغ في حياته الى مائة وخمسين
الفا مفرقة في القلاع التي بناها بجميع انحاء المغرب للحراسة وتأمين
السبل وبنى بازاء كل قلعة منها فندقا لايواء التجار وعابري السبيل، فجاء
هذا العمل دليلا على مزيد حزمه وحسن تدبيره اذ آمن بذلك انتقاض
قبائل البربر على حكومته ووطد دعائم السلم الذي هو اساس الحضارة
واصل التمدين.

وهكذا ساد الامن وعم العدل ففاضت الخيرات وكثرت النعم مع
الرخاء المفرط فلا قيمة للمصح ولا للماشية والعمال تجبي الاموال والرعية
تدفع بلا كلفة، واقام السلطان مولاي اسمعيل مشغلا بتجديد عاصمته
مكناسة الزيتون وكان لا ينبغي بها بديلا فلا تسل عما شيده فيها من
الآثار الهائلة والمصانع الضخمة مما يكل لسان البليغ عن وصفه ولا يتصوره
على حقيقته الا من وقف عليه.

هذا قل من كثر مما عمله مولاي اسمعيل لصالح المغرب الى ان رفع
رأسه عاليا ما بين البلاد، وما ان انتقل الى رحمة الله حتى قام خلفاؤه
ففسدوا بتنازعهم ذلك البنيان الشامخ نسفا وهدلوا أمن البلاد خوفا
وقوتها ضعفا فكادت تصير الى ما كانت عليه قبل من الفوضى والاختلال
لولا ان تداركها الله بولاية المولى محمد بن عبد الله فخر هذه الدولة

وأفضل رجاها بلا نزاع، وقد اجتمع الناس عليه بعد وفاة أبيه مولاي عبد الله بن اسمعيل فبايعوه لما كان ظهر منه أيام ولايته على مراكش في عهد أبيه من حسن السياسة وكمال النجدة وجودة الرأي فلم يلبث ان ضرب على ايدي اهل الفساد وساح في انحاء البلاد متفقداً لامورها مستصالحا لاحوالها فاجتمعت على محبته القلوب وأخلصت له الضمائر.

ثم أخذ يجدد ما درس او كاد من عثار عظمة المغرب فحصن العواصم والشعور وشيد بها الابراج والمعازل المنيعة وشحنها بالمدافع والعساكر القوية واستكثر من انشاء السفن الحربية وتدريب البحارة على العمل فيها بتلك المناورات التي كان يقيمها من حين لآخر في مثل بحر انزقاق وسواحل المحيط.

وبنى مدينة السويرة واعتنى بها غاية الاعتناء فكان بناؤها من حسن سياسته اذ ابطال بها حصن اكدير ومرساه الذي كان الثوار يتداولونه ويسرحون منه شحن السلع افتياتا على الدولة فانقطع بالسويرة امهم في ذلك لاسيما وقد جاء مرساها غاية في حسن البناء.

ونظر المولى محمد بن عبد الله في علاقاته مع الدول نظرة توفيق وسداد فعقد عدة معاهدات مع ملوك اوربا وغيرها كلها في صالح بلاد المغرب أما الدولة العثمانية فقد كان من أعظم أنصارها وأصدق محبيها، تقدم فخطب ودها في ايسام السلطان مصطفى الثالث إذ أرسل اليه رسولين ومعهما هدية فاخرة فيها خيل عتاق وسروج مخلات بلانديب وسيوف

مرصعة فقبولت هديته بالسروز وأرسل اليه السلطان المذكور مركبا مثقلا بالمدافع والقنابل والبارود وكثير من مرافق الحرب.

ثم لما وقعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية مدة السلطان عبد الحميد الاول الذي تولى بعد السلطان مصطفى الثالث بادر المولى محمد ابن عبد الله فإرسل الى والي الجزائر اربع سفن حربية مثقلة بالهدايا وعلات الحرب ورغب اليه ان يرسلها الى القسطنطينية فإساء ذلك الوالي الوساطة ورد عليه ردا قبيحا فلم يمنعه ذلك من المضي في سبيل التقرب من الدولة العثمانية ونصرتها فبعث الى السلطان سفيرا ببهدايا نفيسة وعرض عليه استعداداه لكل ما يطلب منه من المعونة وبين له اسفه من تقاطع ملوك المسلمين لاسيما في ذلك الحين، وأعجب من ذلك انه طرد سفير روسيا الذي كان بطنجة وقتئذ لما بلغه خبر الحرب المذكورة فكان حادثا ديبلوماسيا خطيرا.

والغاية في هذا الباب انه كان مرة في سفر فوافق يوم عيد الاضحى في الطريق قال الكونسوس: «فخطب السلطان بنفسه ودعا للمعتماني» وهذا من انصاف الملوك الذي هو ملك الانصاف ومن دلائل حرصه على تمتين الرابطة الدينية بينه وبين ملوك الاسلام انه زوج ابنته للشريف سرور أمير مكة فجهزها بمائة الف دينار وزفها اليه في موكب عظيم وأرسل برفقتها من الهدايا والتحف الى أمير طرابلس ومصر والشام شيئا كثيرا فهذا الاهتمام من المولى محمد بن عبد الله بتمكين أواصر المحبة

بينه وبين ملوك الاسلام هو من أعظم فضائله في نظرنا ولو لم يكن له منقبة الا هو الكفى. فان من المعلوم ان ملوك الاسلام لو جروا على هذه السنة المحموده وراعوا هذا الواجب الاكيد لما وجد العدو أبدا الدهر سبيلا الى استعبادهم والتحكم فيهم.

ولما توفي المولى محمد بن عبد الله اضطربت الامور ايضا ولم يل بعده خير من مولاي سليمان الذي كان مثالا مجسما للعدل والديموقراطية الاسلامية الا انه كغيره لم يكن موفقا في سياسة الدولة وتثبيت السلم.

أما مسك الختام ولبنة التمام فهو السلطان المرحوم مولاي الحسن الذي تولى بعد وفاة أبيه المولى محمد بن عبد الرحمن سنة 1290، وقد كان الغتو والفساد ضارين أظنا بهما في قبائل المغرب جميعا فتمكن بحكمته وحسن سياسته من تأليف تلك القبائل واعادتها الى حظيرة الطاعة، واجتهد في اصلاح البلاد والسير بها في طريق الرقي المادي والادبي خصوصا فيما تشدد اليه حاجة الدواية لحفظ استقلالها وضمان سلامتها، فإرسال فوجا من الطلبة الى اوربا بقصد التخرج في فنونها الصناعية، وأسس معملا كبيرا للسلاح بفاس، واقتنى مراكب بخارية كان يصح جعلها نواة لعمارة بحرية مهمة، وكان في علاقته مع دول الغرب دائمة التيقظ والحذر لم يسلس قياده لواحدة منهن على ما كن يبدينه من الوداد الزائد.

وكان لا يفتر من الجوب خلال المملكة وفي هذه الفكرة السديدة من توطيد الامن وغيره ما لا يخفى، وكان لعامة الشعب تعلق كبير به

وحب زائد على حبهم لانفسهم وذلك دليل على شفقتة وغيرةه على الدين والوطن. وكان عازما على ربط أنحاء مملكته بخطوط السكة الحديدية وانشاء التلغراف وغير ذلك الا ان المنية عاجلته قبل ان يحقق أمل رعيته فيه فتوفى مأسوفا عليه سنة 1311 و كان رحمه الله قد بنى فأحسن البناء ولكن لسان الحال ينشد :

أرى الف بان لا يقوم بهادم فكيف بيان خلفه الف هادم

الحركة العلمية

فترت الحركة العلمية في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي فتورا كبيرا لا سيما عندما اراد السلطان الشيخ بن المنصور من العلماء ان يوافقوا على احتلال العدو لمدينة العرائش فلم يرتضوا ذلك وخرج الكثير منهم فارين بدينهم الى البوادي، فكان لذلك من التأثير السيء على الاوساط العلمية في المدن المغربية وخصوصا فاس ما لا يخفى.

ولكن كان من الالطاف الخفية ان ظهرت الزاوية الدلائية في ذلك الحين فكأنما بعثها الله لحفظ ترات العلوم والاداب الذي كاد أن يضيع فقامت عليه خير قيام، وما هي الا مسدة قليلة حتى صارت مركزا مهما لنشر الثقافة العربية بين قبائل البربر ومأرزا حصينا للعلوم الاسلامية بالمغرب، وقد تخرج فيها عدد لا يحصى من العلماء الفطاحل، والادباء الامثال، يكفي ان نذكر منهم علامة المغرب في هذا العصر ابا علي اليوسي. والواقع انه لو لم يقض عليها مولاي رشيد ذلك القضاء المبرم لكان للمعارف اليوم بالمغرب

وخصوصا القبائل شأننا غير هذا الشأن، ولكن ما يشفع لمولاي رشيد هو
انه بعد تخريب الزاوية نقل أهل العلم من رجالها مكرمين الى فاس
حيث عكفوا على التعليم والتذكير من غير خوف ولا نكير، وكان كثيرا
ما يتعهدهم ببره وإطافه بل ان منهم من كان من جلسائه وخواص اهل
حضرتة وهو العلامة ابو عبد الله المرباط من افاضل اهل بيته في النحو واللغة.
ولا مفهوم لهؤلاء فان ذلك كان شأنه مع أهل العلم قاطبة وفيما
يحدثنا المؤرخون ان مجلسه كان لا يخلوا منهم ومن رجال الدين واهل
الخير والصلاح وهو لا يزال يسنى لهم العطايا ويغدق عليهم الصلات.
وعلى سننه جرى المولى محمد بن عبد الله الذي كان دائم الاستصلاح
للحالة العلمية والاستنهاض لهم العلماء كي يجاروا الزمن في تطوره
ويلبسوا لحالة العصر لبوسها، بل كان قد مضى الى ابعد من هذه الغاية
فاراد ان يمثل دور يعقوب المنصور الموحي في القضاء على علم الفروع
وعلم الكلام معا والعناية بنشر كتب السنة وتعويضها من كتب الفقه.
وبالفعل فقد بعث باوامره في هذا الصدد الى كافة علماء المغرب
وألزمهم باتباعها والتدقيق في تنفيذها، الا انه لم يشتط في ذلك اشتطاط
يعقوب المنصور فلم يحرق الكتب التي أمر بنبذها ولم يحرم النظر في
كتب الخلاف عموما وانما امر بالرجوع الى الامهات التي منها الاستمداد
وعليها الاعتماد مع عدم الإقتصار عليها والاعراض عن كتاب الله وسنة
رسوله اللذين هما المرجع الاول والاخير لاحكام الشريعة.

ولنثبت هنا نص المنشور الذي أصدره بهذا المعنى لتمثل في ذهن القارئ صورة جلية عن حالة التعليم في اوائل هذا العصر التي لا تختلف عما وجدناها عليه في زماننا هذا، وما كانت تتطلبه من الاصلاح الذي أدخل عليها المولى محمد بن عبد الله كثيرا منه قبل ان يلتفت طلبتنا الى شيء من ذلك بنحو المائة والخمسين سنة :

« الحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم
قال عبد الله امير المؤمنين محمد بن عبد الله :

ليعلم الواقف على هذه الفصول اننا أمرنا باتباعها والاقتصار عليها ولا يتعداها الى ما سواها :

الفصل الاول - في احكام القضاة، فان القاضي الذي ظهر في احكامه جور وزور وما يقرب من ذلك من الفتاوي الواهية مثل كونها من كتب الاجهورية ولم يبلغ سندها الى كتب الاقدمين فان الفقهاء يجتمعون عليه ويعزلونه عن خطة القضاء ولا يحكم على أحد بدا.

الفصل الثاني - في ائمة المساجد، فكل امام لم يرضه اهل الفضل والدين من أهل حومته يعزلونه في الحين ويأتون بغيره ممن يرضون امامته.

الفصل الثالث - في المدرسين في مساجد فاس، فانا نأمرهم ان لا يدرسوا الا كتاب الله تعالى بتفسيره وكتاب دلائل الخيرات والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلما وغيرها من الكتب الصحاح، ومن

كتب الفقه المدونة والبيان والتحصيل ومقدمة ابن رشد والجواهر لابن شاس والنوادر والرسالة لابن أبي زيد وغير ذلك من كتب الاقدمين ومن اراد تدريس مختصر خليل فانما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق والخطاب والشيخ علي الاجهوري والخرشي الكبير لا غير فهذه الشروح الخمسة بها يدرس خليل مقصورا عليها وفيها له كفاية وما عداها من الشراح كلها ينبذ ولا يدرس به، ومن ترك الشراح المذكورين واشتغل بالزرقاني وامثاله من شراح خليل يكون كمن اهرق الماء واتبع السراب. وكذلك قراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كالكلاعي وابن سيد الناس اليعمري وكذا كتب النحو كالتسهيل والالفية وغيرهما من كتب هذا الفن، والبيان بالايضاح والمطول، وكتب التصريف، وديوان الشعراء الستة، ومقامات الحريري، والقاموس، ولسان العرب وأمثالهما مما يعين على فهم كلام العرب لانها وسيلة الى فهم كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهيك بها نتيجة. ومن اراد علم الكلام فعقيدة ابن أبي زيد رضي الله عنه كافية شافية يستغنى بها جميع المسلمين وكذلك الفقهاء الذين يقرأون الاسطرلاب وعلم الحساب فيأخذون حظهم من الاحباس لما في ذلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لاوقات الصلاة والميراث وعلى هذا يكون العمل ان شاء الله.

ومن اراد ان يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص فليتعاط ذلك في داره مع اصحابه الذين لا يدرون بانهم لا يدرون. ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فلا يلومن الا نفسه وهؤلاء الطلبة الذين يتعاطون العلوم التي نهينا عن قراءتها ما مرادهم بتعاطيها الا الظهور والرياء والسمعة وان يضلوا طلبة البادية فانهم ياتون من بلدهم بنية خالصة في التفقه في الدين وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحين يسمعونهم يدرسون هذه العلوم التي نهينا عنها يظنون انهم يحصلون على فائدة بها فيتركون مجالس التفقه في الدين واستماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح سنتهم بالعربية فيكون ذلك سببا في ضلالهم. اه من تاريخ مكناس باختصار وتصرف يسير.

وبالتأمل في فصول هذا المنشور يظهر ما كان للمولى محمد بن عبد الله من النية الحسنة في اصلاح حالة التعليم مما لو استمر العمل به الى الان لكان له نتائج طيبة، لكن ابطله من بعده ولده مولاي سليمان لاختلاف وجهة نظره عما كان يراه والده فرجع ما كان الى ما كان. وعلى كل حال فقد كان لهذا المنشور تأثير ظاهر في احياء علوم التفسير والحديث واذكاء الرغبة فيهما لا سيما وقد كان للمولى سليمان غبطة كبيرة في التفسير مما كان باعنا على مزيد الاعتناء به. وفي ايامه

نبغ المفسر الكبير الشيخ الطيب ابن كيران. كما نبغ في الحديث الحافظ
ابو العلاء العراقي. وتأثر الفقه ايضا بروح المنشور فانتش بعد الانتكاس
وسرت فيه نسمة الحياة فلم يبق قاصرا على نصوص الفقهاء المجردة
واقوال الخلافين غير المسندة وذلك بفضل إنتشار كتب السلف والاطلاع
على آثار الاقدمين مع حسن النظر في الكتاب والسنة. والفقهاء النابغون
في هذا العصر لا يأخذهم الحصر، انما نحن نشير لمن كانت لهم يد
ظاهرة في تجديد رسوم الفقه ولا يزال تأثيرهم على العقول قويا ظاهرا
حتى وقتنا هذا كأبي علي بن رجال والبناني والرهوني.

وهؤلاء هم ممن ثبتت لهم المشاركة في باقي علوم الشريعة ايضا
فلا يفهم من كلامنا انهم كانوا قاصرين على الفقه. ولا حاجة الى القول
انهم كانوا متضلعين في العلوم الآلية ايضا، انما لا بد من القول ان هناك
آخرين كانوا في هذه العلوم مقطوعي القرن وممن تلقى رايتهما
باليمن وهؤلاء كاحمد بن مبارك وابي العباس الهلالي وابي حفص
الفاشي. وفي اللغة والنحو بالخصوص نبغ افسراد كثيرين لا يقصرون
عن نبغاء العصور المتقدمة في هذين العلمين ناهيك بابن الطيب اللغوي
والوجاري وابن زكري.

اما فيما عدا ما ذكر من العلوم الادبية فان التاريخ والجغرافيا لم
يكن حظهما من الانتشار باقل من اي علم آخر فالكتب التي الفت في

تاريخ الدولة الشريفة وتراجم علماء هذا العصر تعد بالعشرات وكذا الرحلات وكتب الانساب. واذا ذهبنا نعد من كتب في هذا الموضوع طال بنا المجال فلنتقصر على تسمية بعض الافراد كالافراني وابن الطيب القادري والرياني والكنسوس.

بقى الكلام في العلوم العقلية ونقول انها كالسابق كانت منتشرة بمقدار وبعض الرياضيات كالحساب والهيئة كان الاعتناء بها اكثر والفت فيها كتب عديدة. والطب ايضا لم يعدم من كان معنيا به ومن الف فيه من رجال هذا العصر. وقد كان من المبرزين في العلوم الفلسفية على العموم ابو زيد الفاسي وابن سليمان الروداني وبرع في الطب بالخصوص عبد الوهاب ادراق وعبد القادر ابن شقرون.

هذه خلاصة الكلام عن الحركة العلمية في هذا العصر وتري ان ليس بينها وبين ما كانت عليه في العصر السابق كبير فرق ولذلك اختصرنا الكلام فيها على ان هذه النبذة مع اختصارها حاوية لاهم ما تجب معرفته من ذلك.

وهنا لا يسعنا الا ان نلفت نظر جلالة سلطان العصر الى حالة قطره السعيد وماءالت اليه المعارف فيه من التاخر والاضمحلال حتى لم يعد بينه وبين ماضيه المجيد نسبة ما، مع أن الواجب ان يكون هذا العصر هو ازهى عصور المغرب من حيث التقدم العلمي، للنهضة الحديثة

التي رفعت من شأن الفكر البشري في عموم الانظار. كيف وبلادنا
العزيرة على سعتها وكثرة دخلها لا توجد بها جامعة عصرية واحدة.
تغنى الطالب الوطني عن تكبد مشاق السفر والغربة في بلاد اوربا لتتميم
دروسه؟ فاللهم اصلح احوالنا وانجح اامالنا بملك وكرمك.



الريضة العلمية وادبارها

لا يتسع لنا المجال للاتيان على تراجم اعيان علماء هذا العصر كلهم، لان عددهم كثير. فنكتفي باكثر عدد يمكن ذكره في هذا المختصر متعلمين بان بين يدينا مجالا فسيحا في «ذكريات مشاهير رجال المغرب» حيث نوفيهم جميعا حقهم ونكفر عن ذنب اغفال من لم نذكره ها هنا والله سبحانه الموفق. وقد سرنا في ترتيبهم على حسب سني وفياتهم لا على ترتيب العلوم لان ذلك ادعى لعدم ظن التحيز وما اليه فليغفر لنا القاري المنصف ذلك.

ابن ناصر

أبو عبد الله محمد بن ناصر الجعفري النربني دفين درعة، الامام جبل السنة وشيخ اهل العلم والعمل في عصره. كان له مشاركة في علوم الشريعة وعلوم العربية وله قدم راسخ في التصوف، شديد الاتباع للسنة في سائر احواله حتى في لباسه وطعامه سالكا في ذلك سبيل المرجاني وابن ابي جمرة وابن الحاج صاحب المدخل. وقام بهمة الارشاد والتعليم فهدى الله به خلقا لا يحصون. وكان لا خلاصه ونصحه اذا وعظ اثر وعظه في النفوس واذا تكلم انتقش ما تكلم به في قلوب سامعيه.

وقد سافر للحج مرتين فكثر الآخذون عنه شرقا وغربا وهو ممدوح ابي علي اليوسي بقصيدته الدالية المشهورة. وله رسائل جامعة لوصايا ونصائح غالية من غير تكلف ولا تعمل وغير ذلك وتوفى عام 1089 رحمه الله

عبد القادر الفاسي

أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفهري القصري ثم الفاسي به شهر هو واهل بيته، الامام العالم بركة فاس وحجة المغرب في عصره، ولد بالقصر سنة 1007 وبه نشأ ثم رحل الى فاس في طلب العلم واستقر بها وتصدر للتدريس فعظم النفع به وكثر الاخذ عنه وقد وقع الاطباق من مشائخ عصره على تحققة بسائر العلوم ولا تجد عالما او متعلما الا وهو من تلامذته او تلامذتهم.

وكان متمسكا بالسنة ورعا زاهدا له قدم راسخ في العبادة وقيام تام على نوافل الخير. ومع سعة علمه وطول باعه في الفنون لم يؤلف كثيرا وانما ترك بعض اثار هي بالنسبة لعلمه الغزير كفيض من فيض وتقطعة من بحر وهي العقيدة والفقهية المشهورتان واجوبة مسائله ونحو ذلك. وتوفى سنة 1091 هـ.

الروداني

أبو عبد الله محمد بن سليمان الروداني السوسي، العلامة الجامع الفيلسوف الفلكي البارع ولد بتارودانت سنة 1037 وبها نشأ وحين بلغ سن الرشد تافقت نفسه للتعليم فخرج فقراً بدرعة ثم رحل الى سجلماسة ومراكش فاتقن طرفا من علم الحكمة والهيئة والمنطق الا انه لم يقض وطره من ذلك فرحل لفاس بقصد تتميم الدراسة ثم سار الى الجزائر فاخذ بها عن شيوخها وحج وجاور بالمدينة المنورة مدة واخذ عن علماء

مصر والشام فامتلاً وطابه من المعارف واصبح كما يقول المحبى في الخلاصة
فرد الدنيا في العلوم المالك للمجهول منها والمعلوم وكانت له يد صناع
فى كثير من الحرف والصنائع كالطرز العجيب والتفسير والخرازة والصبغة
وجبر قوارير الزجاج المكسرة وعمل الاسطرلاب وابتدع آلة نافعة
فى علم التوقيت والهيئة لم يسبق اليها وهي كرة مستديرة الشكل منعمة
الصقل مدهونة بالبياض الموده بدهن الكتان يحسبها الناظر بيضة من
عسجد لاشراقها مسطرة كلها دوائر ورسوم قد ركبت عليها اخرى
مجوفة منقسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها
مستديرة كالتي تحتها مصقولة مصبوغة بلون اخضر فيكون لها ولما
يبدوا من التي تحتها منظر رائع وهي تغني عن كل آلة فى فن التوقيت
والهيئة مع سهولتها لتكون الاشياء فيها محسوسة والدوائر المتوهمة
مشاهدة وتخدم لسائر البلاد على اختلاف اعراضها واطوالها. وقد الف
هو رسالة بين فيها كيفية استعمالها وكيفية صنعها فراجعها ان شئت فى
الرحلة العياشية.

وبالجملة فهو احد حكماء الاسلام وجهابذة الاعلام وبقدر ما كان
متضلعا فى العلوم الحكيمية كان متمكنا فى علوم الادب والشريعة وألف
كتبا مفيدة منها منظومة فى علم الميقات خالف فيها كثيرا من مذاهب
أهل هذا العلم وشرحها ومنها صلة السلف بموصول الخلف وهو فهرس
جامع قل ان يكون له نظير وتوفى بالشام عام 1095.

أبو علي اليوسي

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي نسبة الى آيت يوسي قبيلة في
عداد برابر ملوية، نابغة علماء هذا العصر ومن افضل المتحققين بالعلوم
العقلية والنقلية على سبيل العموم. تخرج باهل الدلاء وجال في المغرب
فدخل سجلماسة ودرعة وسوس ومراكش ودكالة واخذ بها عن مشايخ
عدة ذكرهم في فهرسته ثم القى عصا التسيار بالزاوية الدلائية فعكف
فيها على نشر العلم حتى اوقع مولاي رشيد باهلها فنقله الى فاس وهناك
اقبل اليه طلبة العلم وتراحموا على بابهِ فتصدر للتدريس بالقرويين فلم
يتخلف عن مجلسه الا القليل من منافسيه

ثم خرج الى البادية فاستوطن قبيلته ودرس بها العلوم الدينية والادبية
فانتشرت عنه فنون المعارف في قبائل البربر ولم يسال جهدا في التعليم
والارشاد والاصلاح والتذكير اذ كان على قدم السلف الصالح في حسن
الهدى واقامة شعائر الدين حتى قال فيه عصره الامام ابو سالم العياشي
من فاته الحسن البصري يدركه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

وكان أبو علي ادبيا عبقريا راوية للشعر يستحضر ديوان المتنبي وابى تمام
والمعري وقصائد كثيرة لغيرهم كل ذلك على طرف لسانه وهو نفسه
شاعر مجيد مكثر الشعر عنده اسهل من النفس بل كان يقول لو شئت
ان لا اتكلم الا بالشعر لفعلت وديوان شعره معروف وقد عملنا منتخبا
منه، وله كتاب المحاضرات وزهر الاكم في الامثال والحكم والقانون

في ابتداء العلوم وكلها كتب نفيسة مفيدة وغيرها. وتوفي سنة 1102هـ

ابو علي بن رمال

ابو علي الحسن بن رحال المدائني المكناسي، حافظ المذهب المرجوع إليه في الفتوى والقضاء. كان له اتساع عظيم في النوازل وعارضة قوية في الفقه. تولى تدريس المدرسة المتوكلية من طاعة فاس فكان يجلس عند طلوع الشمس ويتمادى إلى الزوال لا يضجر ولا يمل مع كثرة ما يلقي إليه من الاسئلة والابحاث فيجيب لا يعجزه شيء من ذلك، حتى دعى صاعقة العلوم. وقد ولي قضاء فاس الجديد وقضاء مكناس وبها توفي في رجب سنة 1140هـ

له شرح عظيم على المختصر في ستة عشر مجلدا وحاشية على شرح الخرشني عليه وحاشية على شرح ميسارة على التحفة وكتب اخرى في مسائل مختلفة وهي كلها في غاية التحرير والاتقان والجمع والتحصيل. ويحدثنا ابن الطيب القادري عن اخلاقه فيقول انه كان كثير الانصاف شديد التواضع سليم الصدر كريم النفس بعيدا عن التصنع مصيبا في كلامه مفضالا جوادا وكان كثير العيال والاولاد لانه كان مطلاقا مزواجا عظيم النفقة لذلك. رحمه الله

الافراني

أبو عبد الله محمد الصغير الافراني المراكشي، العلامة المؤرخ الاديب صاحب المنن على التاريخ المغربي والادب بتأليفه المفيدة التي منها نزهة

الحادي باخبار ملوك القرن الحادي وهو في تاريخ الدولة السعدية وصدر دولتنا العلوية ومنها صفوة ما انتشر من اخبار اهل القرن الحادي عشر في تراجم الاعيان ومنها المغرب في اخبار المغرب والمسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل وغيرها والحق ان كتبه سدت ثلثة في التاريخ المغربي لولاه لبقينا منها في حيرة شديدة فهو من اولئك الافراد الذين بلغوا الاحفاد ماثرا الاجداد بامانة واجتهاد توفي رحمه الله في حدود سنة 1140 هـ.

ابن زكري

أبو عبد الله محمد بن عبد الوحمن بن زكري الفاسي العلامة المحقق المشارك المدقق كان في أول نشأته يمتحن الدبابة وكان يحضر مجالس العلم الليلية فيعنى كل ما يسمع ثم تفقده شيخه في بعض الايام فقال اني تأخرت في دار الدبغ فقال له لا تعد اليها ورغب الى أبيه أن يحرس على تعليمه فانه اولى له فأكب على الدرس حتى ادرك ما ادرك ونبغ في العربية نبوغا فائقا وفي الفقه والحديث والتفسير والتصوف والادب فلم يكن يقعقع له بالشنان في كل ذلك. وألف تأليف محررة تشهد بطول بابه وكثرة اطلاعه منها شرح الفريدة للسيوطي في النحو جوده غاية وشرح البخاري شرحا متوسطا لكنه لم يكمله وقد اكمله الفقيه كنون وشقيقه مولانا الجهد فخرج في خمسة اجزاء وله شرح النصيحة الزروقية ابدأ فيه واعاد وهو الذي اختصره ابو مدين الفاسي وله الهمزية

التي عارض بها همزية البوصيري في المديح وشرحها في جزئين وغير ذلك.

وقد اتهم بالميل الى الشعوبية وانه ألف في الانتصار لمذهبهم كتابا مقذعا بسب العرب ويظهر ان الذي اتهمه بذلك لم ير تاليف ابن زكري ولم يطلع عليه وانما سمع الناس يقولون شيئا فقالوا ولا ينبغي للانسان التسرع الى الحكم على الشيء قبل التأكد من صحة دليله. ونحن قد تصفحنا تاليف ابن زكري هذا فوجدناه خير كتاب اخرج للامة الاسلامية في حضنها على الاخوة ووجوب المساواة بين افرادها والنهي عن الافتخار بالاباء والاجداد وكون فضيلة الدين وحلية الثقي هي وحدها المعتمدة شرعا لا غيرها مما يظنه الجهلة فضيلة يتميزون بها عن الناس. وهو من معنى تاليف الشيخ ميارة في الموضوع.

وكان لابن زكري ثروة طائلة فكان يواسي بها الفقراء ويكثر من صنائع المعروف عند الناس. وكان له جلساء من ذوي اليسار فكان يحضهم على الصدقة وفعل البر كثيرا وترجمته واسعة والتزبادي فيه كتاب سماه العرف الشجري في بعض فضائل ابن زكري. ومما مدح به قول العلوي شاعر شنجيط:

وانت ابن زكري امام محقق	تفردت في العليا بدون شبيه
اذا غصت في بحث خلصت بדרه	وخليت عن سفسافه ورديه
يمدك في اتيان علم تبته	قياس اصولي ونص فقيه

وقاك الذي ابداك كالنجم يتقي به الغي من يبغي الهدى ويعيه
توفى ابن زكري سنة 1144 هـ.

ابن عبد السلام بناني

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني النفزي الفاسي الفقيه العلامة
المحدث القدوة كان ذا مشاركة تامة في العلوم وله اقبال عظيم على التعليم
رحل الى المشرق وتقلب في البلاد فحصلت له رواية واسعة وكان
مائلا الى التصوف حسن الهدى حسن السميت وكثر الانتفاع به وتخرج
على يده المشايخ الكبار كالمحشي نسييه والشيخ التاودي والعلامتين قنطرة
وبردة وغيرهم. الف شرح الاكتفاء في ستة اسفار فطار كل مطار
واشتهر اي اشتهاه والف غيره ولو لم يكن له الا هو لكفاه. وبالجملة
فقد كان من الرجال الكاملين والعلماء العاملين وقد افردت ترجمته
بالتأليف توفى رحمه الله سنة 1168 هـ وقد كان جدنا عبد الله الداخل الى
فاس من بني مستارة يقرأ عليه فصاهره على ابنته وكان هو السبب في
استقراره بفاس.

ابن الطبيب اللغوي

أبو عبد الله محمد بن الطبيب الصميلي الشرقي الفاسي الامام اللغوي
الشهير ولد بفاس سنة 1110 وأخذ عن جلة علمائها كالمسناوي والوجاري
وبناني المذكور قبله وغيرهم وبرع وفضل وصار امام اهل اللغة في عصره
غير مدافع وكان له مشاركة في سائر العلوم ورواية واسعة. رحل الى

المشرق فحج ودرس بالحرم النبوي ودخل الى الروم من طريق الشام
ورجع من طريق مصر واخذ عنه في الشام ومصر خلق كثير. وله تأليف
خدم بها اللغة خدمة جلي ورفع بها لبلاده منارا اسنى من النجم واعلى
منها حاشيته العديمة النظير على القاموس في اربع مجلدات التي منها
كان استمداد الشيخ مرتضى صاحب تاج العروس فانه احد تلامذته
الذين أخذوا عنه بالمشرق وهو يعترف في أول شرحه ان تخريجه في
هذا العلم كان على يد مترجمنا. وله شرح نظم الفصيح لمالك بن المرحل
وشرح كفاية المتحفظ وشرح الزهر في علوم اللغة للسيوطي سماه المسفر
عن خبايا الزهر وله ضوء القابوس في زوائد الصحاح على القاموس
وشرح ديوان الستة وحاشية على درة الغواص للحريري وغير ذلك مما
هو المذكور في غير هذا المحل وتأليفه تنيف على الخمسين وكلها مضرب
الامثال في التحرير والاتقان وله شعر كثير وعلى الجملة فهو كما قال
المحبي عنه في خلاصة الاثر فرد من افراد العالم فضلا وذكاء ونبلا.
وكانت وفاته بالمدينة المنورة سنة 1170 ودفن عند قبر حليلة.

الهلالبي

أبو العباس احمد بن عبدالعزيز الهلالبي السجلماسي احد الائمة في
الفقه والحديث والبيان واللغة والمنطق والحساب والهندسة. درس على
اعلام سجلماسة وفاس وفاق جميع اقرانه في تحقيق هذه العلوم فكان
لا يدرك شأوه ولا يبلغ مداه فيها. والف كتبها جليلة كفتح القدوس

فى شرح خطبة القاموس واضاءة الادموس من اصطلاح صاحب القاموس
ونور البصر فى شرح خطبة المختصر ابدأ فيه واعاد وابان عن رسوخ
قدمه فى مقام الاجتهاد. وله الترواهر الاقنية فى شرح الجواهر المنطقية
وهو على المنظومة المعروفة بالقادرية فى المنطق لاحد جدودنا الاعلام
من قبل الام ابى الفضل عبد السلام بن الطيب القادري وشرحها هذا
قل ان يكون له نظير استقى من بحرہ من اتى بعده. وله أيضا الياقوتة
الفريدة فى نظم لب واجب العقيدة وهي تسعة ابيات ضمنها العقائد
الواجبة كلها بدلائلها العقلية من غير رمز ولا لغز فجاءت اية فى
البلاغة ومن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم التي اعطاها الله كرامة
لهذا الفاضل كما يقول عمنا المرحوم سيدي محمد بن التهامي فى شرحه
الكبير عليها، وله النصيحة المشهورة التي يقول فى أولها:

يا أيها الانسان هب من كراك واصح من السكر الذي قد اعتراك
أن السرحيل يا أخي قريب وكلنا مسافر غريب
وقد وضع عليها سيدنا الوالد شرحا حافلا سماه النسق العالي والنفس
العالي فى شرح نصيحة ابى العباس الهلالي، وقد رحل الى المشرق مرتين
والف رحلة مفيدة. وتوفى عام 1175 هـ

ابو العلاء العرفاني

ابو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس بن حمدون الحسيني العراقي
الفاشي شهر هو والسادة أهل بيته بالنسبة إلى العراق لقدوم سلفهم

منه، هذا كان حافظ المغرب في عصره حصل على رياسة الحديث فلم
ينازع فيها. وكان قد انصرف إليه بكليته منذ ابتداء طلبه فلم ينشب ان
بلغ فيه الغاية حفظا ورواية ودراية ومهر وبهر ودرس ورأس حتى اقر
له بالفضل في ذلك شيوخه فمن دونهم فكان يلقب بسيوطي زمانه وقال
عنه شيخه ابو جعفر الفاسي انه احفظ من ابن حجر وسأله احمد بن
المبارك صاحب الابرين وهو من شيوخه عن طريق بعض الاحاديث
فذكره على البديهة ستة طرق فقال له الله درك لقد تعب ابن حجر ولم
يخرج له الا طريقين وبالجمله فهو من مفاخر هذا القصر السعيد في العصر
العتيد. له المستدرک على الجامع الكبير للسيوطي فيه نحو العشرة آلاف
حديث وفتح البصير في التعريف بالرجال المخرج لهم في الجامع الكبير
والدرر اللوامع في الكلام على احاديث جمع الجوامع وتكميل مناهل
الصفافي تخريج احاديث الشفا وتخريج احاديث الشهاب للقصاصي
وشرح على شمائل الترمذي وشرح احياء الميت للسيوطي وشرح الثلث
الاخير من المشارق للصفاني بامر مولوي وقد اكمله ولده عبد الله وكان
ايضا محدثا فاضلا وله غير ذلك. وفي كتبه هذه حرر الكلام على
كثير من الاحاديث وبين ما هو الحق فيها وناقش كبار الحفاظ بكلام
كاف واضح شاف. توفي رحمه الله عام 1183 هـ.

ابن الطبيب الفاسي

ابو عبد الله محمد بن الطبيب بن عبد السلام القادري الحسني الفاسي

العلامة المؤرخ النسابة الواعية. ولد سنة 1124 وكان طويل الباع واسع الاطلاع مقيدا للاوابد جماعا للشوارد له قلم بارع فى الانشاء وتصرف فى العلوم الشرعية والادبية مع التقل من الدنيا والزهد والورع والاطمئنان والسمت الحسن. من ائمه نشر المثاني فى اخبار اهل القرن الحادي عشر والثاني وهو نسختان والمخطوطة اوسع من المطبوعة والتقاط الدرر فى اخبار اهل المائتين الحادية والثانية عشر والاكيل والتاج فى تذييل كفاية المحتاج للشيخ احمد بابا والزهر الباسم فى مناقب سيدي قاسم أي الخصاصي وغيرهم. أخذ عن ابن المبارك وابن عبد السلام بناني وابن قاسم جسوس وغيرهم وتوفى في شعبان عام 1187 هـ وهو من خوؤلنا

الشيخ التاودي بن سودة

هو أبو عبد الله التاودي بن الطالب بن سودة القرشي الفاسي الامام العالم العلامة شيخ مشايخ المغرب جملة ومجدد سند التعليم فى القرن الثاني عشر. كان مقدما فى كل العلوم لاسيما التفسير والحديث والفقه والتصوف والكلام والمنطق والاصول. اخذ عن جملة مشايخ عصره وأخذ عنه الجم الغفير الذي يستحيل عده. ولما حج درس بالحرمين الشريفين ومصر فتسارع الناس للاخذ عنه لما رأوه من حفظه واتقانه وقد تم الله عليه النعمة بطول العمر فتخلف عمن كان معه فى عصره وحاز رئاسة العلم بفاس والمغرب كله فما بقى احد ممن ينتمى الى العلم بالمغرب الاولة عليه منة وله به صلة. وقد جمع مع ذلك الاجتهاد فى العبادة

والسخاء وحسن الخلق والمحبة العظيمة لال البيت والاعتناء بامور الناس
وخصوصا الضعفاء منهم فتمالأت القلوب على محبته واجمعت الالسن على
مدحه. وله تأليف عظم النفع بها وتنافس الناس فيها منها حاشية على
البخاري في اربعة اجزاء وحاشية على الزرقاني كذلك وشرح التحفة
لابن عاصم وشرح الزرقاقية وشرح الاربعين النووية وشرح جامع الشيخ
خليل وغير ذلك توفي رحمه الله سنة 1209 هـ.

الشيخ الطبيب ابن كبراه

ابو عبد الله الطبيب بن عبد المجيد بن كيران الفاسي العلامة المعقولي
النظار المفسر الكبير. ولد سنة 1172 هـ واخذ عن الشيخ التاوودي والمحشي
بناني واضرابهما وعنه الفقيه ابن عبد الرحمن والكوهن وغيرهما وقد
تفرد في وقته بالجمع بين علمي المعقول والمنقول والفروع والاصول وله
في العربية باع مديد ونظم سديد. وكان يدرس التفسير بالقرويين
يستحضر اقوال المفسرين جميعا ويقابل بينها ويناقشها ويرد الزائف
منها بالدلائل القوية والحجج البينة وكان يحضر مجلسه اعيان الطلبة
والسلطان فمن دونه من رجال الدولة. وبالجلمة فهو من افذاذ العلماء
الذين لا وجود الدهر بواحد منهم الا في الفينة النادرة. وترجمته لا
تقتضي الاختصار فهذا الكلام لا يفي باقل القليل من حقه. له تفسير جليل
من سورة النساء الى حم غافر وكتب اخرى تنيف على المشرين محررة
جد التحرير. وكانت وفاته سنة 1227 هـ.

الرهوني

ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن يوسف الرهوني الوزاني
الامام العلامة الحافظ المتقن، اشتغل بقبيلته رهونة ولما اكمل دراسته
طلب التعليم بوزان فبقى هناك مدة ثم ذهب الى فاس لمواصلة القراءة
بها فتخرج في الفقه على مشاهير رجالها ورجع لوزان وبها ألف حاشيته
المشهورة على بناني محشي الزرقاني قال في الفكر السامي: «وهي أهم
كتبه دات على فضله وتمكنه من علم الفقه فضل تمكن فلقد اجاد فيها
كل الاجادة وافاد احسن الافادة وسلك في التحقيق طريقا صريحا
ومهيما صحيحا ينقل كلام المتقدمين الذي هو الاصل بلفظه مما دل على
نشاطه في الاطلاع وثقوب حفظه وبسبب ذلك فضح اغلاطا كثيرة
وقعت لمن قبله في الاختصار والتلخيص افسدوا بهما كلام المتقدمين وغيروا
والفقه عن مواضعه فهي مما ادخره المتأخرين فكانت حجة على المتقدمين
فجزاه الله خيرا عن عمله وحرية فكره ووضع طريق نقده. واعانه على
ذلك ما عثر عليه من الكتب المهمة في المذهب التي لم يظفر بها
الاجاهرة ومن ناقشهم كالرماصي وبناني والتاودي وامثالهم غير أن
الحاشية طالت فجاءت في ثمان مجلدات لكونها تجلب في المعارك الكبرى
نصوص المتقدمين بالحرف الواحد ولذلك جاء شيخ شيوخنا سيدي الحاج
محمد كنون واختصرها بحذف النصوص وحلاها بفوائد ياتي بغالبها
أول الابواب كاصل الباب من السنة أو الكتاب أو نحو هذا مما لا

يخلوا من فائدة وقرب على المطالع ما عسى أن يطول عليه من استيعاب
نصوص الرهوني وقد طبع الاختصار بهامش الاصل ه منه بتصرف
يسير. ونقول هنا أنه قد سقط من الاختصار في النسخة المطبوعة الشيء
الكثير الذي لا نبعد إن قلنا أنه قدر العشر أو أكثر منه وذلك كل
ما كان يلحقه الفقيه في هواش النسخة المخطوطة التي وقع عليها الطبع
ومن رأى كتبه رحمه الله عرف أنه كان كثير الالتحاق فيها حتى ليساوي
الملحق الاصل في بعض الاحيان ومن كتب الرهوني التحصن والمنعة
ممن اعتقد أن السنة بدعة في اثبات ان السنة السكوت عند تشييع
الجناثر وله غير ذلك وتوفي رحمه الله سنة 1230 هـ.

صمدون ابن الحاج

أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن ابن الحاج السامي المرداسي،
العلامة الاديب بوصيري عصره وخفاجي مصره. ولد ونشأ بفاس وتلقى
دروسه العلمية بالقرويين عن الشيخ الطيب ابن كيران وغيره. ومات
أن صار له الشأو الذي لا يلحق في العلوم الدينية والادبية معا. وكان
شاعرا مجودا بارعا، طلع في افق السلطنة السليمانية بدرا لا معاء،
وشهابا ساطعا.

ألف تأليف عديدة منها نظم مقدمة ابن حجر وشرحه سماه نفحة
المسك الداري لقاريء صحيح البخاري وحاشية على تفسير ابي السعود
ومتبوعه البيضاوي واخرى على مختصر السعد وقصيدة ميمية في السيرة

في نحو 4000 بيت وشرح في خمسة اسفار وجمع شعره الذي مدح به السلطان مولاي سليمان في ديوان سماه السليمانيات وحلاه بشرح نفيس وله غير ذلك.

وكان قد ولى الحسبة بفاس ثم المظالم بِناحية الغرب فبالغ في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ورفع الظلمات عن الناس وكان أهم الامور عنده الصلاة فكان يقيم الناس من حوانيتهم لادائها. وتوفي رحمه الله سنة 1232.

الفقيه كنونه

أبو عبد الله محمد بن المذني كذون الحسني الفاسي عم والدنا، الامام السلفي الحافظ المتقن مجدد القرن الثالث عشر بدون مدافع. ولد ونشأ بفاس واشتغل على كبار علماء عصره مثل الفقيه ابن عبد الرحمن واحمد المرينسي والطالب ابن الحاج والوليد العراقي وعبد السلام بوغالب ومالبت أن صار فردا يشار اليه في تحقيق مقاصد العلوم، المنطوق منها والمفهوم، وحصل على رتبة الاجتهاد، وطار صيته في البلاد وعم النفع به القاضي والدان، وتفوق على الكثير من اشياخه فضلا عن الاقران. وصفه في الاستقصا بعالم فاس والمغرب وجزم كثيرون بسانه مجدد القرن الثالث عشر وقال لنا غير واحد من اشياخنا ان وصف الفقيه في عصره صار علما بالغلبة عليه لا ينصرف إذا اطلق الا اليه. وقال في الفكر السامي: «هذا الشيخ من اكبر المتضلعين في العلوم الشرعية البورغين المعلمين»

بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وخدماتهم في المغرب شيخ شيوخنا
وشيوخ شيوخ جل المغرب رأس علمائه في القرن الثالث عشر بلا منازع.
كان فقيها محدثا نحويا لغويا معقوليا مشاركا محققا نزيها قوالا الحق
مطبوعا على ذلك غير هيب ولا وجل مقداما مهيبا عالي الهمة دعو باعلى
نشر العلم والارشاد والنهي عن المناكر والبدع التي تكاثرت في أيامه
لا يخشى في الحق لومة لائم يحضر مجلسه الولاة والامراء ابناء الملوك
وغيرهم وهو يصرح بانكار احوالهم وما هم عليه مبين لهنائهم غير متشدد
ولا متصنع بل تعتريه حال ربانية ولكلامه تأثير على سلطان النفوس
رزق في ذلك القبول والهيبة على نحول جسمه ووصلته بذلك اذابة
وسجن لكن بمجرد سجنه اعتصب الطلبة وقامت قيامة العامة فاطاق سبيله
لذلك فهو احق من يقال في حقه مجدد لكثرة النفع به وانتشار العلم عنه
وعن تلامذته وقيامه بالنهي عن المناكر وقته.

«وكان شديدا على اهل الطرق ومالهم من البدع التي شوهت جمال
الدين والمتصوفة اصحاب دعاوي التي تكذبها الاحوال وما كان احد
يقدر على الرد عليه مع شدة اغلاظه عليهم وعلى غيرهم وساوكه في ذلك
مسالك التشديد بل التطرف في بعض المسائل ومع ذلك هابه علماء وقته
ولم يجروا على انتقاده لانه كان يتكلم بالحال لا بالمقال وتحققوا خلوص
نيته ومطابقة سره لعلانيته» هـ منه بلفظه وقال الفقيه دينية الرباطي شارح
حديث التجديد بعد ان عدد المجددين بحسب الاعصار ولا صار: «وأما

المائة الثالثة عشرة فقد كان بفاس العلامة الوحيد والفهامة الفريد شيخ
الشايع في عصره وامام العلوم في مصره جوهره صدف العلم المكنون
ابو عبد الله سيدي الحاج محمد بن المدني جنون تلوح عليه امارات التجديد
فكان رحمه الله مشغلا بنشر العلم بتدريسه وتأليفه العجيبة فيه المحررة
وبقى كذلك الى ان وافاه الاجل المحتوم ليلة الجمعة أول حجة الحرام
عام 1302»

له كتب كثيرة منها الاختصار وتقدم الكلام عليه في ترجمة
الرهوني وله شرح على الموطا مشحون بالفوائد الحديثة وساذج الفقه
وله حاشية على شرح فرائض المختصر للشيخ بنيس وكتاب الزجر
والاقمع عن آلات اللهو والسماع وكتاب التسلية والسلوان لمن ابتلى
بالاذاية والبهتان ونصيحة النذير العريان في التحذير من أهل الغيبة
والنميمة والبهتان ونصيحة ذوي الهمم الاكياس فيما يتعلق بخلاطة الناس
والدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة والدرر المستنيرة بشرح
حديث لا عدوي ولا طيرة والنوازل وخلاف ذلك من الكتب في مسائل
فقهاء خاصة والرسائل في مواضيع اصلاحية دينية وسياسية. وترجمته
رحمه الله اوسع بكثير من هذا وقد استفاد الجانب الديني منها الشيخ
مصطفى المشرفي في كتاب الدر المكنون. ونحن لم يكن في نيتنا أن
نترجم الفقيه في هذا الكتاب ولكن صديقنا المرحوم فقيده الوطن السيد
الحاج عبد السلام بنونة الح علينا كثيرا في ترجمته لما رأى الكتاب

خاليا منها قائلا ان مثل الفقيه لا يجوز ان يخلو من ذكره كتاب يوضع بين يدي الناشئة لتذكيرها بعصور ايجادها وعهود اجدادها، فنزولا على رأيه في حياته ثم وفاء له بعد مماته ذكرنا هذه الترجمة المقتضبة من اقوال الناس في الفقيه رحمه الله.

ولنكتف بهذا القدر فاننا لو تتبعنا تراجم العلماء في هذا العصر لما وسعنا هذا الكتاب كله. وقد أتينا على جملة من اعيانهم ومن بقي منهم نعوض عن تراجمهم ذكر مؤلفاتهم وان كنا لانذكر ايضا الا المهم من تلك المؤلفات اذ لو قصدنا الى استيعابها لاوقعنا القاريء في الملل الذي لانشك في عدم احتماله ايابه، وكفاك من القلادة ما احاط بالحق.

كتب التفسير والحديث وتوابعهما

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة المتوفى سنة 1224 حاشية على الجامع الصغير له، تفسير القرآن للشيخ الطيب ابن كيران، شرح حديث انما بقائكم فيمن سلف من الامم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس له، شرح حديث لا يدخل الجنة ولد زنى ولا ولد ولده له، شرح الفية العراقي في علم الحديث له، قال في الاسناد له، تفسير القرآن لابي الحسن الدمناي المتوفى سنة 1306، حاشية على البخاري له، حاشية على مسلم له، حاشية على النسائي له، حاشية على ابي داود له، حاشية على الترمذي له، حاشية على ابن ماجه له، حاشية

على تفسير ابي السعود والبيضاوي لحمدون بن الحاج، نفحة المسك الداري
 لقاري، صحيح البخاري له، شرح البخاري للخصيمي المتوفى سنة 1189،
 شرح الشفا له، شرح نظم نخبة الفكر في اصطلاح الحديث له، حاشية
 على البخاري لعبد القادر الفاسي، زاد المجد الساري الى قراءة صحيح
 البخاري للمشيخ التاودي ابن سوادة، حاشية على سنن ابي داود له، شرح
 المشارق للطغاني له، شرح الاربعين النووية له، شرح اول ترجمة من
 البخاري للكوهن المتوفى سنة 1254، شرح آخر ترجمة منه له، امداد
 ذوي الاستعداد الى معالم الرواية والاسناد له، شرح الموطا للحريشي
 المتوفى سنة 1143، شرح الشفا له، شرح منظومة ابن زكري التلمساني
 في الاصطلاح له، شرح الموطا للسدراتي المتوفى سنة 1253، شرح
 الموطا للفقهاء كنون، الدرر المستنيرة في شرح حديث لا عدوي ولا
 طيرة له، المستدرک على الجامع الكبير لابي العلاء العراقي، الدرر
 اللوامع في الكلام على احاديث جمع الجوامع له، تكميل مناهل الصفا في
 تخريج احاديث الشفا له، تخريج احاديث الشهاب له، شرح شمائل
 الترمذي له، شرح الثلث الاخير من المشارق بامر سلطاني له، تكميل
 شرح المشارق لولده عبد الله المتوفى سنة 1254، الجمع بين الكتب الخمسة
 والموطا للروداني، الاوليات له، صلة الخلف بموصول السلف له، اقتفاء
 الاثر بعد ذهاب اهل الاثر لابي سالم العياشي المتوفى سنة 1090،
 اتحاف الاخلا بأسانيد الاجلا له، شرح الشمائل لابن القاسم جديوس

المتوفى سنة 1182، شرح الشمائل لبدر الدين الحموي المتوفى سنة 1266، شرح الشمائل لابراهيم التادلي المتوفى سنة 1311، شرح الحصن لمحمد بن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة 1166، شرح نظم النخبة له، حاشية على شرح الحصن للتماق المتوفى سنة 1151، شرح الاربعين للعلماء الاربعة، احمد بن التاودي ابن سودة المتوفى سنة 1235 وعبد القادر ابن شقرون الفاسي المتوفى سنة 1219 ومحمد بنيس المتوفى سنة 1214 والشيخ الطيب ابن كيران، عشرة احاديث لكل عالم على ترتيبهم المذكور بامر سلطاني، شرح تيسير الوصول الى جامع الاصول للقاضي عبد الهادي العلوي المتوفى سنة 1271، شرح الشفا لمحمد بن عبد الرحمن الدلاي المتوفى سنة 1141، شرح الشفا لابن عبد السلام بناني، مفتاح الشفا لابي زيد الفاسي المتوفى سنة 1096، استطابة التحديث بمصطاح اهل الحديث له، اللمعة في قراءة السبعة له، حاشية على الجعبري شارح حوز الاماني للمنجرة المتوفى سنة 1179، حاشية على شرح الخراز لابن عاشر له، شرح الدالية في وقف حمزة وهشام على الهمز له، حاشية على الجعبري لابن عبد السلام الفاسي المتوفى سنة 1214، شرح الدالية له، التوضيع والبيان في مقراً نافع بن عبد الرحمن للبدر اوي المتوفى سنة 1257، حاشية على الجعبري له، شرح الدالية له.

كتب الفقه والتصوف وتوابعهما

شرح المختصر لابي علي بن رحال، حاشية على الخرخشي له، حاشية على ميارة على الثخفة له، الارتفاق في مسائل الاستحقاق له، كشف

القناع في تضمين الصناعات له، رفع الالتباس في شركة الخماس له، شرح
المختصر للمجلدي المتوفى سنة 1094، أم الحواشي له، كتاب الحسبة له،
اختصار المعيار له، شرح المختصر لابن قاسم جسوس، شرح الرسالة له،
شرح الفقهية له، شرح تصوف المرشد له، شرح المختصر لابن عبد
الصادق الدكالي المتوفى سنة 1175، شرح المرشد له، شرح المختصر
لابن ابراهيم التادلي، شرح الرسالة له، شرح تحفة ابن عاصم له، شرح
الزرقاقية له، شرح فرائض المختصر له، شرح المرشد له، شرح خطبة
المختصر للهلاللي، شرح فرائض المختصر لبنيس، حاشية على الخرشني
لمولاي سليمان المتوفى سنة 1238، حاشية على الخرشني لفقيه ابن
عبد الرحمن المتوفى سنة 1275، حاشية على الخرشني للمهدي ابن سودة
المتوفى سنة 1294، حاشية على الزرقاني شارح المختصر لابن الحسن
بناني المتوفى سنة 1194، حاشية على الزرقاني للشيخ التاودي ابن
سودة، شرح التحفة له، شرح الزرقاقية له، النوازل له، حاشية الرهوني
على الزرقاني وبناني، التحصن والمذمة ممن اعتقد ان السنة بدعة له، اختصار
حاشية الرهوني للفقيه كذون، حاشية على بنيس على الفرائض له، رسالة
في النشوز له، رسالة في الشهادة والقضاء والفتوى له، النوازل له،
شرح التحفة لابي حفص الفاسي المتوفى سنة 1189، شرح الزرقاقية
له، شرح الزرقاقية للشدادي المتوفى سنة 1163، حاشية على ميارة على
التحفة له، النوازل له، شرح الزرقاقية لابن عبد السلام بناني، حاشية

على ميارة على التحفة للرغاي المتوفى سنة 1150، البهجة في شرح التحفة للتسولي المتوفى سنة 1258 شرح الشامل له، حاشية على شرح التاودي على الرقافية له، النوازل له، رجز فيما انفرد به ابن عاصم عن خليل لابن طاهر الهواري المتوفى سنة 1220، نظم العمل الفاسي لابي زيد الفاسي، نظم العمل المطاق للرباطي المتوفى سنة 1114، شرحه له، شرح العمل الفاسي له، نصرة القبض للمسناوي المتوفى سنة 1136، القول الكاشف عن حكم الاستنباط في الوظائف له، صرف الهمة الى تحقيق معنى الذمة له، النوازل له، ازالة الدلسة في احكام الجلسة للتماق، النوازل له، الوثائق الفرعونية لبناقي فرعون المتوفى سنة 1161، النوازل لبردلة المتوفى سنة 1133، فتح المغيث في حكم اللحن في الحديث للافراني، شرح المرشد لبدر الدين الحمومي، شرح المحكم العطائية له، شرح الوظيفة الزروقية له، شرح المشيشية له، حاشية على ميارة على المرشد للشيخ الطالب ابن الحجاج المتوفى سنة 1273، شرح رأئية ابن ناصر في قواعد الاسلام للتجموعتي المتوفى سنة 1118، معونة الاخوان بمعرفة اركان الايمان والاسلام والاحسان لعبد السلام القادري المتوفى سنة 1110، تميم الافراح بتنعيم الارواح له، نظم بيوع ابن جماعة لابي سالم العياشي، شرحه له القول المحكم في عقود الاصم الا بكم له، تحرير الكلام في امر النبي صلى الله عليه وسلم في المنام له، تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في

الدينيا الفانية له، نظم اصول التصوف لزروق له، رسالة في تراور
اهل الجنة وتحسرهم للشيخ الطيب ابن كيران، شرح كتاب العلم من
الاحياء له، شرح الحكم العطائية له، شرح المشيشية له، شرح النصيحة
الهالاية له، تحريك الهمم العوال الى مراتب الكمال له، النرجر والاقمع
عن آلات اللهو والسماع للفقير كنون، التسلية والسلوان لمن ابتلي
بالاذاية والبهتان له، نصيحة النذير العريان في التحذير من اهل الغيبة
والنميمة والبهتان له، نصيحة ذوي الهمم الاكياس فيما يتعلق بخطة
الناس له، ايقاظ المفتون المغرور ممن تدم عواقبه لوم النشور له، رسالة
في الرؤيا له، اختصار رسالة العجيمي في الطرق الصوفية له، شرح
النصيحة الزروقية لابن زكري، الفوائد المتبعة في العوائد المبتدعة له،
اختصار شرح النصيحة الزروقية لابي مدين الفاسي المتوفي سنة 1181
الابرينز لاحمد بن المبارك المتوفي سنة 1156، ازالة اللبس عن المسائل
الخمس له، اختصار المدخل لابن عجيبة، شرح الحكم له، شرح المباحث
الاصلية له، شرح الحزب الكبير لابن عبد السلام بناني، شرح المشيشية
له، شرح الحزب الكبير لاحمد الوزير المتوفي سنة 1144، شرح
المشيشية له، شرح دلائل الخيرات ثلاث نسخ للمهدي الفاسي المتوفي
سنة 1109، تبصرة العامل وتذكرة الغافل للطيب المريني المتوفي سنة
1145، مرقى الاقام الى غـرف دار السلام للشيخ عبد السلام جسوس
المتوفي سنة 1121، رسالة في ابطال الكيمياء للمدني ابن جلون المتوفي

سنة 1298، كتاب استنشاق الفرج بعد الازمة له.

كتب المنطق والكلام والاصول

القادرية في المنطق لعبد السلام القادري، النسيم المبعق في توجيه الخلاف الوارد في المنطق له، تنبيه المعرضين عن آيات السموات والارضين له، الخريدة في المنطق لممدون ابن الحاج، الحل في علم الجدل لابي زيد الفاسي، شرح الطالع المشرق في علم المنطق له، المستفاد في اصول الاعتقاد له، رجز في المنطق لابن طاهر الهواري، الثالي المنثورة في مناقشة سعيد قدورة شارح السلم له، رجز في الكلام له، شرح مختصر المنطق له، مناهج الخلاص لليوسي، شرح السلم له، شرح المقاصد لابن يعقوب المتوفي سنة 1128، حاشية على المحلي له، حاشية على مختصر المنطق له، حاشية على الكبرى لابي حفص الفاسي، حاشية على مختصر المنطق للمحشي بناني، شرح السلم له، حاشية على قدورة لاحمد ابن المبارك، رد التشديد في مسألة التقليد له، حاشية على قدورة لابن منصور المتوفي سنة 1232، حاشية على بناني على السلم له، حاشية على المحلي له، حاشية على قدورة له، حاشية على بناني على السلم له، حاشية على قدورة لاقصي المتوفي سنة 1250، حاشية على بناني على السلم للمهدي ابن سودة، حاشية على المحلي له. القول المسلم على نظم السلم لابراهيم التادلي، شرح مختصر المنطق له، شرح الضفرى له، شرح الجوهرية له، شرح جمع الجوامع له، شرح القادرية للهالي، الياقوتة الفريدة له،

شرح الخريدة لمحمد بن حمدون ابن الحاج المتوفي سنة 1274¹، شرح
الخريدة للشيخ الطيب ابن كيران، رسالة في المقولات العشر له، شرح
توحيد الرسالة له، شرح توحيد المرشد له، شرح رسالة مولاي سليمان
في الكسب له، رسالة في الرد على الوهابية، رسالة في قول الغزالي
ليس في الامكان ابداع مما كان له، رسالة في المطالب السبعة للمدني
ابن جلون، الحكم بالعدل والانصاف فيما بين علماء سجدلماسة من الاختلاف
لابي سالم العياشي، الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب اهل البدع
من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادة للزياني، معراج الوصول الى
سماوات الاصول لابن زاكور.

كتب النحو واللغة والبيان

شرح التسهيل للمرباط الدلاوي المتوفي سنة 1089، شرح الالفية
له، شرح البسط والتعريف في علم التصريف له، شرح كافية ابن مالك
لابن الطيب اللغوي، شرح الاقتراح له، شرح لامية الافعال له، حاشية
على المرادي له، حاشية على التسهيل له، حاشية على المغني له، حاشية
على القاموس له، ضوء القابوس في زوائد الصحاح على القاموس له،
شرح نظم الفصيح له، شرح كفاية المتحفظ له، المسفر عن خبايا المزهري
له، حاشية على درة الغواص له، اقرار العين في اقرار الاثر بعد ذهاب
العين جمع فيه من تصانيف اللغة شيئا كثيرا له، شرح شواهد الكشف
له، شرح شواهد الميضوي له، شرح شواهد التوضيح له، شرح شواهد

التلخيص له، شرح الاجرومية لابراهيم التادلي، شرح الالفية له، شرح
فريدة السيوطي له شرح كافية ابن الحاجب له شرح القطر له شرح
الازهرية له شرح الشذور له شرح لامية الافعال له شرح جمل الجرادله،
رسالة المجاز له شرحها له، شرح التلخيص، حاشية على السعد له، شرح
الالفية لابي نافع المتوفي سنة 1260، شرح الالفية للطرباطي المتوفي
سنة 1114، شرح الفريدة لابن زكري، شرح خطبة القاموس للمهاللي،
اضاءة الادموس من اصطلاح صاحب القاموس له، شرح لامية الافعال
لابن يعقوب، شرح التلخيص له شرح خطبة السعد له، حاشية على
المكودي لاحمد بن الحاج المتوفي سنة 1310، حاشية على الازهري
على الاجرومية له، حاشية على التسهيل للروداني حاشية على التوضيح
له مختصر التلخيص له شرحه له، حاشية على المكودي للمرينسي المتوفي
سنة 1277، حاشية على المرادي للمنجرة، حاشية على المكودي لابن
جلون المتوفي سنة 1136، حاشية على التصريح لابن منصور حاشية
على السعد له، حاشية على المغني لابي حفص الفاسي، حاشية على بحراق للشيخ
الطالب ابن الحاج، حاشية على التوضيح للمحشي بناني، حاشية على
المكودي للعربي ابن سودة المتوفي سنة 1229، حاشية على لامية الافعال
له، حاشية على التصريح للشفشاوني حاشية على السعد له، شرح شواهد
ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسي، نظم الموضح لمحمد بن حمدون
ابن الحاج شرحه له، ابتهاج الارواح في اصول النحو لابي زيد الفاسي

ذات الحلل في الجمل له القطف الداني في علم البيان والمعاني له، احكام
المعروف من احكام الظروف لعبد السلام القادري، الجود بالموجود في
المقصور والممدود لابن زاكور، الحسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على
المفعول له، رسالة في لو الشرطية للشيخ الطيب ابن كيران، رسالة في
ما انا ضربت الا زيدا له، رسالة في مثلك لا يبخل وغيرك لا يوجد له
رسالة في الهمزة المسهلة له رسالة في توجيهه انما يخشى الله من عباده
العلماء على قراءة من رفع اسم الجلالة ونصب لفظ العلماء له رسالة في
النكرة واسم الجنس وعلمه والمعرف بلام الحقيقة واقسام العهد له رسالة
في مبحث الجامع الخيالي له نظم الاستعارة له، شرح خطبة الانبياء
للكردودي المتوفي سنة 1268 حلية العروس في نظم اصطلاح صاحب
القاموس له، مختصر القاموس للجواري المتوفي سنة 1114، نزهة الجلاس
في انواع الجناس لابن طاهر الهواري، شرح نظم الاستعارة للبوري
المتوفي سنة 1243، شرح نظم الاستعارة لاقصبي، حاشية على السعد
للمهدي ابن سودة، حاشية على السعد لمحمدون ابن الحاج.

كتب السير والتراجم والانساب

العقد المنضد بجواهر مفاخر محمد المهدي الفاسي كفاية المحتاج
من خبر صاحب التاج له، فخر الثرى بسيد الورى لمحمد بن عبدالرحمن
الدلاي زهر الحقائق في سيرة خير الخلائق له درة التيجان ولقطة
الؤلؤ والمرجان في انساب شرفاء المغرب له شرح الاكتفا له، نفائس

الدرر في سيرة سيد البشر لمسعود جموع المتوفي سنة 1119 الروضة
 وسطى وصغرى في السيرة له، ذخيرة المحتاج في سيرة صاحب اللواء
 والتاج في خمسين مجلدا للشيخ المعطى ابن الصالح الشرقاوي المتوفي
 سنة 1180، ميمية السيرة في أربعة آلاف بيت لمجدون ابن الحاج شرحها
 له، الهمزية لابن زكري شرحها له، شرح الاكتفا لابن عبد السلام بناني
 شرح البردة له، شرح سيرة ابن فارس لابن الطيب اللغوي شرح سيرة
 ابن الجزري له الانيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب له، حاشية
 على الاكتفاء لاحمد الوزير شرح همزية البوصيري له شرح البردة له
 جلاء القلب القاسي في التعريف بالمهدي الفاسي له، شرح الهمزية
 لبنيس، معجم اسماء الصحابة لعبد الرحمن العراقي، اختصار الحلية لعبد
 الله العراقي المتوفي سنة 1234، المقصد الاحمد في التعريف باحمد
 ابن عبد الله لعبد السلام القادري العرف العاطر فيمن بفاس من ابناء الشيخ
 عبد القادر له الاشراف على نسب الاقطاب الاربعة الاشراف، الجيلاني
 وابن مشيش والشاذلي والجزولي له معتمد الراوي في مناقب احمد
 الشاوي له نيل القربات باهل العقبات له رجاء الاجابة بالبدريين من
 الصحابة له عقد المثال فيما له صلى الله عليه وسلم من الآل له مطلع الاشراق
 في الاشراف الواردين من العراق له، نشر المثاني في اخبار اهل القرن
 الحادي عشر والثاني لابن الطيب القادري، التقاط الدرر في اخبار اهل
 القرن الحادي عشر له الاكليل والتاج في ذيل كفاية المحتاج له الزهر

الباسم في مناقب قاسم الخصاصى له، الاستشفاء من الالسم في التلذذ
بذكر صاحب العلم لابن زاكور، جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد
القادر المسناوي، نتيجة التحقيق في بعض اهل النسب الوثيق له، البدور
الضاوية في ذكر اهل الزاوية الدلائية لسليمان الحوات المتوفي سنة
1231، الروضة المقصودة في مئثر بني سودة له، قررة العمون في الشرفاء
القاطنين بالعمون له، السر الظاهر في أولاد الشيخ عبد القادر له،
الانيس المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب لابن الطيب العلمي، اعيان
الاعيان لمحمد بن احمد الفاسي المتوفي سنة 1179، شرح درة التيجان
له، العرف الشعري في بعض فضائل ابن زكري للزبادي المتوفي سنة
1163، التعريف بابن عباد له، ازهار الزمان في طبقات الاعيان لابن
عجيبة، صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادي عشر للافراني،
طلعة المشتري في التعريف بالزمرخشري له، روض البهار في ذكر جملة
من شيوخنا الذين فضلهم اجلى من النهار للشيخ الطالسب بن الحاج،
رياض الورد فيما انتهى اليه هذا الجوهر الفرد له وهو في ترجمة والده
حمدون بن الحاج. الاشراف على بعض من بفاس من مشاهير الاشراف
له، نظم اللئال في شرفاء عقبة ابن صوال له، الفية السلوك في وفيات
الملوك للزباني، الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب له، الدر
النفيس في بني محمد بن نفيس للوليد العراقي المتوفي سنة 1265.

كتب التاريخ والرحلات

المغرب في اخبار المغرب للأفرائي، نزهة الحادي في اخبار ملوك القرن الحادي له، الترجمان المغرب عن تاريخ دول المشرق والمغرب للزياني، الروضة السلمانية في الدولة الاسماعيلية ومن تقدمها من الدول الاسلامية له، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف له، التاج والاكيليل في مئائر السلطان الجليل له، الترجمة الكبرى في اثار العالم برا وبحرا له. رحلة الحذاق لمشاهدة البلدان والآفاق له، الجيش العرمم الحماسي في دولة اولاد مولانا علي السجلماسي للكنسوس المغرب المبين عما تضمنه الانيس المطرب وروضة النسرين لابن زاكور نشر ازاهر البستان في الرحلة الى الجزائر وتطوان له، الدر المنتخب المستحسن في تاريخ دولة مولانا الحسن لاحمد ابن الحاج ماء الموائدوهي رحلة الحجاز لابي سالم العياشي، رحلة الحجاز لاحمد ابن ناصر المتوفي سنة 1129، رحلة الحجاز لابن الطيب اللغوي، رحلة الحجاز لابن عبدالسلام الناصري المتوفي سنة 1239، بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام للزبادي، رحلة الوزير في افتكاك الاسير لابي عبد الله الوزير المتوفي سنة 1119، رحلة اسبانيا لاحمد الغزال المتوفي سنة 1191.

كتب الادب ودواوين الشعر

عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة لابن زاكور، مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد له، الصنيع البديع في شرح الحلية ذات

البديع له، تفريج الكرب بشرح لامية العرب له، النسمات النفسجية في شرح الخزرجية له، انفع الوسائل في ابدع الخطب وابرع الرسائل له، الروض الاريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض له، المسالك السهل في شرح توشيح ابن سهل للافراني، شرح بانث سعاد لهحشي بناني، المحاضرات لليوسي، زهر الاكم في الامثال والحكم له، شرح الدالية له، ديوان شعر له، تجفة الازيب ونزهة اليب لابي مدين الفاسي، المحكم في الامثال والحكم له، ديوان خطب له، سراج الطلاب في ادب طلب العلم للمساري (من اهل القرن الثاني عشر)، القصائد العشرة في التشوق الى البقاع المطهرة للعلمي، مقصورة في المديح لاحمد الوزير، ديوان خطب للرهوري، ديوان خطب للبدرابي، ديوان شعر لابي سالم العياشي، ديوان شعر على طريقة الصوفية لابن عجيبة، ديوان السليمانيات لمجدون ابن الحاج، ديوان شعر لعبد السلام القادري، ديوان شعر للزياني، الشمقمقية لابن الونان، ديوان شعر على طريقة اهل التصوف للحراق المتوفى سنة 1261.

كتب في مختلف العلوم

القانون في ترتيب العلوم لليوسي، الازهار الطيبة النشر في المبادي العشر للشيخ الطالب ابن الحاج، الاقنوم في ترتيب العلوم لابي زيد الفاسي، المفتاح في حساب الغبار له، قلائد المسجد في علم العدد له، النتائج الحسية في المالم الهندسية له، تهديد السلاسة في علم السياسة

له، توطية الشراسة في علم الفراسة له، مطالع الضيا في علم الكيمياء له،
 القطوف في اسرار الحروف له، الاغراق في علم اسرار الاوفاق له،
 تحفة الاثير في علم التكبير له، عروس الصباحة في علم المساحة له، كشف
 الحجاب في علم الاسطرلاب له، الجوهر المنظوم في علم النجوم له، الكامل
 في الاستغناء عن الجداول له، المطالب في الربع المجيب له، الغرة في
 بيت الابرّة له، الذيل في خط الرمل له، الرقمة في علم الحكمة له، المناهج
 في استنطاق الزيارج له، الاشارة في علم الشطارة له، تحفة الاخوان
 والاولياء في صنعة السيمياء للزياني، كشف اسرار المحتالين الاشقياء الذين
 يترعمون علم الكيمياء له، رسالة الحساب لابراهيم التادلي، رسالة العمل
 بالربع المجيب له، شرح المقنع له، زينة النجر في علم البحر له، أغاني
 السيقا في علم الموسيقى له، نظم في علم الميقات للروداني، شرحه له،
 ذيل ارجوزة ابن سينا لعبد الوهاب ادراق المتوفي سنة 1159، رجز في
 حب الافرنج له، هنر السمهوري على من نفى عيب الجدي له، تعقبات
 على الشيخ داود في النزهة له، الشقرونية في الطب لعبد القادر ابن
 شقرون (من اهل القرن الثاني عشر)، النفحة الوردية في العشب الهندية له.



الحياة الادبية

لم تكن عناية الدولة الشريفة بنهضة الادب ورقبة، باقل من عناية غيرها من الدول السابقة الذكر. فقد بذل رجالها جهوداً تذكر فتشكر في سبيل تقدمه وتنشيط اهله حتى قامت الحركة الادبية على قدم وساق ونفقت سوقها اشد النفاق. فلو اننا نظرنا الى اول ملك مهد البلاد واخضع العباد وهو مولاي رشيد لوجدناه قد اجاز بالفين وخمسمائة دينار على بيتين من الشعر مدح بهما وهما:

فاض بحر النوال في كل قطر من ندى راحتك عذبا فراتا
غرق الناس فيه فالتمس الفقير خلاصا فلم يجده فماتا
وكذلك المولى محمد بن عبد الله اجاز ابن الوزان لما مدحه بقافيته المشهورة
بالف دينار، ومولاي سليمان كان كثير العطاء عظيم السخاء ولا تسئل
عما وصل منه الى شاعره ومخلد مئثره الشيخ أبي الفيض حمدون ابن
الحاج من الهبات والصلات.

وبفضل هذا التشجيع نبغ كثير من الادباء كتابا وشعراء ممن
ازدان بهم هذا العصر وكانوا مفخرة هذا القطر، وقد ياتي في الرعيل
الاول منهم الوزير اليمحمدي وابن زاكور وابن الطيب العلمي صاحب
الانيس المطرب وابن الونان والوزير ابن ادريس والكنسوس والزياني
وابو عشرين، بله غيرهم ممن لم يصلوا الى مرتبتهم فانهم كثير لا يسعنا
ذكرهم في هذه الكلمة الوجيزة وان كنا سذكروهم مع بعض مئثرهم

في الجزء الثاني.

وهؤلاء المذكورون هم ممن عرفوا بالقدرة على التعبير والتفنن في اساليب التعبير نظما ونثرا مع متانة القول واحكامه والذهاب في اغراض الكلام مذاهب الموهوبين من ادباء العربية الكبار. فلم يؤثر عليهم ما عرف عن هذه العصور المتأخرة من ضعف الملكات اللسانية بسبب ضعف الحركة العلمية واتجاهها ذلك الاتجاه العقيم للتردد بين القصور والتقصير. بل كان ان شقوا لانفسهم طريقا إلى المجد وسط تلك المحيطات المنحطة فابانوا عن رفيع قدرهم وشفوف منزلتهم.

وان ننس لانس الراوية الدلائية وما لها من يد على الحركة الادبية في هذا العصر، فانها التي انعشت روح الادب بعد خمودها بأثر سقوط الدولة السعدية. وقد نبغ من اهلها زيادة على المتخرجين فيها كثير من الادباء كالشرقي بن ابي بكر ومحمد بن المسناوي ومحمد ابن احمد ابن الشاذلي الدلائيين وغيرهم. وقد لبث الادب المعاصر يحمل طابعها الخاص زمنا غير قصير ممثلا في اسلوب اليوسي القوي الرصين ومتأديا الى ابن زاكور بطريق شيخه اليوسي، واليوسي من أعظم المتخرجين في الراوية المذكورة كما سبق القول.

ونتخلص الان الى ذكر تراجم زعماء الحركة الادبية في هذا العصر
تتميما للبحث واحاطة بالموضوع من جميع جوانبه :

ابن زاكور

هو ابو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن احمد ابن زاكور الفاسي الاديب المتفنن الرحالة شيخ الادباء في عصره صاحب اليراع المرهف والفكر المتقف المؤلف المحرر الذي برز على اقرانه وفاق اهل زمانه بكثرة اطلاعه وشدة اضطلاع به بالفنون الادبية والعلوم العربية وغيرها، فكان كاتباً بليغاً وشاعراً مبدعاً ومؤلفاً مجوداً من اكبر مؤلفي الاداب من المغاربة. قال عنه في الانيس المطرب:

«وحيد البلاغة، وفريد الصياغة، الذي ارسخ في ارض الفصاحة أقدامه، واكثر وثوبه على حل المقفلات إقدامه، فتصرف في الانشاء، وعطف انشاء على الاخبار واخباره على الانشاء، وقارع الرجال، في ميادين الارتجال، وثار في معترك الجدال ما شاء وجال، فهو الذي باسمه في الاوان هتف، وهو الذي يعرف في كل العلوم من اين توكل الكنف»^{لخ} أخذ بفاس عن جماعة منهم العلامة احمد ابن الحاج الكبير وعبد السلام القادري وابي علي اليوسي ورحل فاخذ بتطوان عن علامتها الشيخ علي بركة وبالجرائر عن مفتيها محمد بن سعيد قدورة وغيره.

وله مؤلفات مرصعات مفوفات جزلة العبارة لا يشق فيها احد غباره منها عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة في ثلاثة أسفار ومقباس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد قلائد الفتح ابن خاقان وتفريج الكرب بشرح لامية العرب وديوانه الذي اسماه الروض الاريض في بديع

التوشيح ومنتهى القريض وغير ذلك. وكانت وفاته بفاس سنة 1120.

ابن الطيب العلمي

أبو عبد الله محمد بن الطيب الشريف العلمي، ولد ونشأ بفاس ودرس على أعلامها وتخرج في الأدب بآب زاكور. وهو من أكبر أدباء العصر وأصحاب البراعة في الصناعتين. له في الشعر طبع متدفق رقيق وفي الكتابة أسلوب راق منسجم والفاظه فصحة ومعانيه واضحة وروحه مرح نشيط حتى أنه ليعدي قارءه من فرط الخفة والسهولة. وكان لأهل فاس افتتان عظيم بشعره. والى الأئمة المطرب فيمن لقيته من أدباء المغرب ترجم فيه اثني عشر أديبا من أهل عصره بقلم فتحي شائق ونفس خاقاني رائع وقد ضمنه مع ذلك كثيرا من شعره الفائق فجاء ديوانا أدبيا ممتعا يدل على رسوخ قدم مؤلفه في صناعة الإنشاء وقرض الشعر. وله أيضا القصائد العشرة في التشوق إلى البقاع المطهرة وكان كثيرا ما يهتف بديار الحجاز ويتشوق إلى زيارة ساكنها عليه الصلاة والسلام فشرق عام 1134 فمات في طريقه إليها بمصر رحمه الله

ابن النوان

هو أبو العباس أحمد بن محمد ابن النوان الملوكي الفاسي، شاعر فحل، صاحب قريحة سيالة وخاطر متدفق وفكر نقاد. كان والده متعلقا بالسلطان محمد بن عبد الله وكان صاحب نوادر وملح فكناه السلطان المذكور إيسا الشمقمق ثم توفي فعمل ابنه أرجوزته الشهيرة وقصد بها

السلطان فتعذر عليه الوصول اليه فتحين خروجه في بعض الايام واعترضه في موكبه وصعد على نشز عال من الارض ونادى باعلى صوته :

يا سيدي سبط النبي ابو الشمقمق ابي

فعرفه السلطان وأمر باحضاره الى منزله فحضر وانشد الارجوزة المذكورة فوقعت منه الموقع الحسن واجزل صلتته ورفع منزلته. وقد عرفت ارجوزته هذه بالشمقمقية واشتهرت بين ادباء المغرب اشتها را لا مزيد عليه وهي تحتوي على كثير من الفنون الادبية والاغراض الشعرية مثل الغزل والنسيب والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحكم والامثال وايام العرب واخبارها وعوائدها واحوالها مما يدل على غزارة علمه فضلا عن تدفق قريحته وقوة ملكته وهي قافية فسي نحو ثلاثمائة بيت وله نظم مسائل ابن خميس وغيره وتوفي سنة 1187.

الزيرياني

هو أبو الفاسم بن احمد بن علي بن ابراهيم الزيرياني الفاسي من صدور كتاب الدولة الشريفة ووزرائها المشاهير. كان له معرفة بالتاريخ والادب والعربية والحساب والتنجيم وغير ذلك. وله قلم حديدي ولسان سليط وفيه جرأة وصرامة. لعب ادوارا مهمة في السياسة المغربية وتقلبت به الاحوال وعانى كثيرا من الاهوال وأوفده السلطان سيدي محمد ابن عبد الله سفيرا الى الاستانة فقام بالمهمة خير قيام والف رحلته المشهورة وكان في احدى المواقع الحربية قد أصيب رأسه بضربة سيف فطارت

جمجمته فجعل مكانها طرفا من القرع فاحتف به اللحم وتماسك وعاش طويلا فنفاه عمره على المائة وقد قضى حياته الطويلة في الخدمة السلطانية كاتباً ووزيراً ومشيراً وسفيراً والف عدة كتب منها الترجمان المغرب عن تاريخ دول المشرق والمغرب والفية السلوك في وفياة الملوك والحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب. وكانت وفاته سنة 1249.

الوزير ابن ادريس

هو ابو عبد الله محمد بن ادريس بن عبد الله العمرابي، من اهل فاس واشرفها الادارسة، كان أديباً ماهراً له باع مديد في الانشاء وملكة قوية في الشعر ومشاركة نبيلة في الفنون، وكان من ذوي الهمم الطامحة الى العلو والرياسة فاتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن ابن هشام فحظى عنده وترقت به الحال فتولى الوزارة فكان كما قال عنه الكنسوس: «عصام الدولة وحلية جمالها، ومجلى محاسنها ومظهر كمالها، فبثا ثاره تترري دولة بني مولانا هشام، بدولة بني مروان بالشام، ساعدته احكام السعود، وعاملته بانجاز الموعود، فادرك في ظلال دولة السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمن من الجاه والعز والصولة، ما لم يدركه الوزير المهلبى مع ملوك الديلم ومعز الدولة، فضحكت له الايام بعد عبوس، واركبته اغر المراكب والبسته أفخر الملبوس، وبيته في فاس منبت طيب، وأصله الاصيل ناشىء عن واكف من الاالة صيب لئ» توفي سنة 1264.

اكنسوسى

هو أبو عبد الله محمد بن احمد اكنسوس المراكشى. العلامة المؤرخ
الاديب المتفطن صاحب التاريخ العامر عن الدولة الشريفة المسمى بالجيش
المرمر الخماسي فى دولة اولاد مولانا علي السجلماسي، وكان بينه
وبين الرياني منافسة حملته على انتقامه وتقده بحق وغيره فى مواضع
من تاريخه المذكور. انفرد بالرياسة الادبية فى عصره فلم ينازع فيها
وهو خاتمة الادباء الفحول الذين اشتملت عليهم هذه الدولة فى عهدها
الاخير. وكتابته عالية النفس وشعره من نوع السهل الممتنع، هذا مع
تضلعه فى علوم الشريعة ورسوخ قدمه فى كثير من الفنون. وله غير
التاريخ كتب اخرى فى مواضع شتى. وكانت وفاته بمراكش سنة 1294.

انتهى

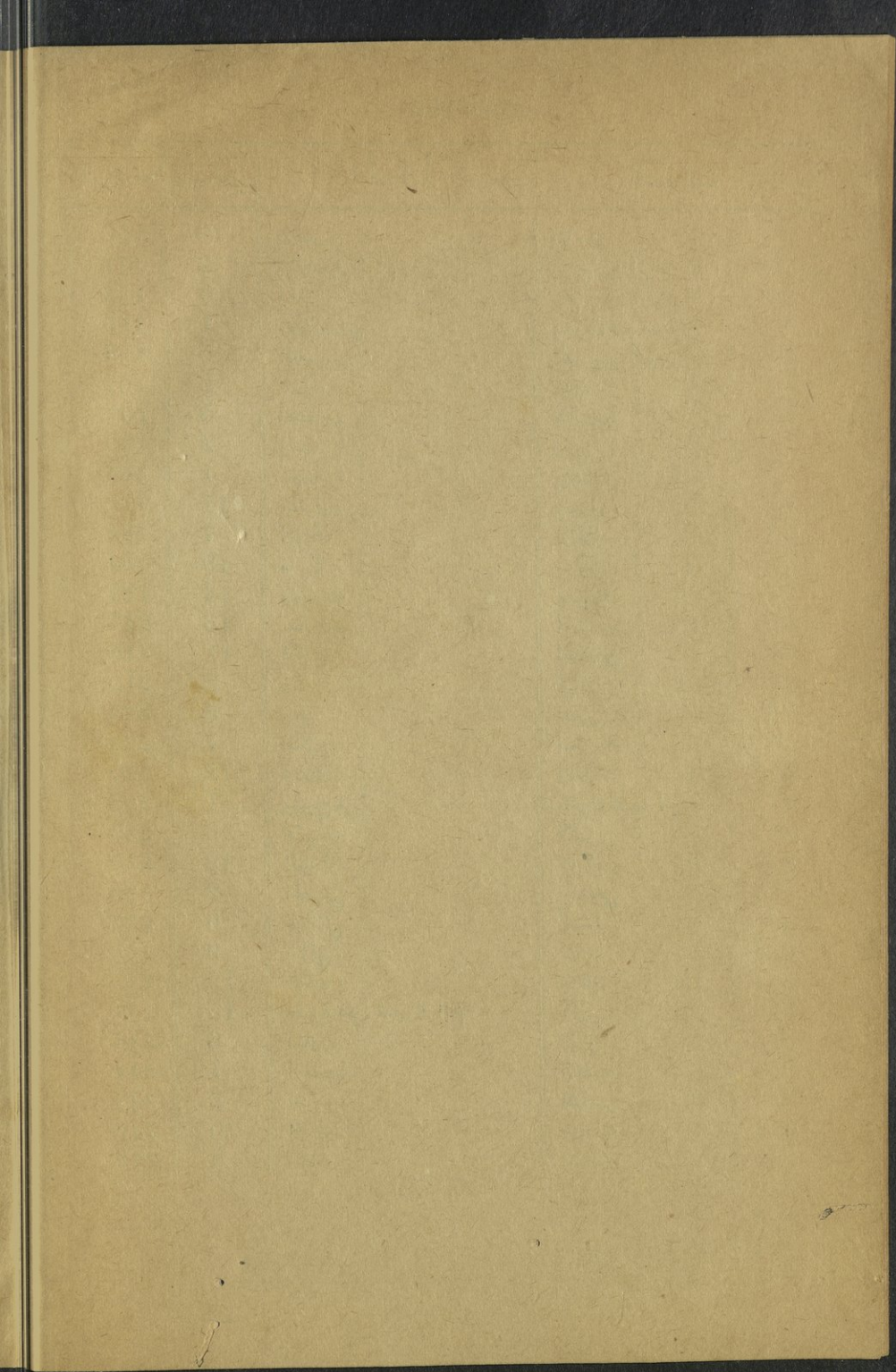
الجزء الاول من كتاب النبوع المغربي

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	السطر	رقم الصفحة
والممكن	الممكن	2	2
ونزغات	ونزغات	16	3
وازالة	وازاله	11	4
الفوضى والفوا	والفوضى الفوا	8	5
بالعدل والمساواة	وبالعدل المساواة	13	5
فاخذوا	فاخذوا	18	5
الاقوياء	والاقوياء	19	5
المجمودة	المجمودة	5	6
اللاتين	اللاتين	13	6
هو الا احد	هو احد	5	9
تقل	تقل	11	9
لانهم	كانهم	4	11
مختلفة	مختلفة	9	14
ثلاثة القرون	الثلاثة قرون	6	17
وابى	وابو	3	18
وابى	وابو	4	18
قومهم	قومهم قومهم	3	22
تقلب	تقلب	12	24
تكن، كفاة، حماة	تكف، كفات، حماة	18	24
واتصالهم من قبل بل	واتصالهم بل	13	28
جميعها	جميع	8	30
وقلب	وقبل	7	32
قلبه	قلبه	12	32
فتفتحت	فتحت	6	46
انتقادهم	انتقادهم	8	48
على	على على	14	48
لتأييد	لتأييد	6	49
بالصبغة العربية	العربية	15	50
ابن	بن	9	52
اتقانا	اتقانا	4	61
كثير	كثير	9	61
اكثرة	اكثرة	5	62

الضموم	الخطأ	السطر	رقم الصفحة
السماء	اسماء	1	63
فادر كني	فاذكرني	2	63
ابن	بن	3	63
الطبيب	الطيب	2	64
ابن زهر	ابن زهير	2 و 11 و 13	64
طوقوا	طوفوا	14	66
الزهرة	الزهوة	7	67
ترتيا	تريبا	10	73
الدفتين، تلقائهما	زائدة الدفتين = تلقائهما	11	74
سمعة	سمعة	4	79
اساطين	ساطين	3	82
ونبة	ونبع	2	83
المدارك	المرارد	15	91
هذا	هذه	18	92
يغذونه	يغزونه	3	94
تمر	مرت	10	95
السرق	الرق	7	97
امور	امرر	8	98
658	358	7	102
غضابي، وجازوه	غضافي، وجازوه	14	112
رج	رج	5	113
والسرج	والشرح	13	118
العلم	العالم	20	118
مما كان في	كما في	11	134
متين	ماهر	14	140
وغيرها	وغيرما	15	140
تجشم	تجسم	12	144
يقلب نجومها	يقلب	1	146
ابن	ان	2	146
اسطرلابا	اسطركابا	3	146
بين	بن	6	146
التعليل	التعليل	15	146
العقيلة	القبلة	18	146
النشير	النشير	1	149
لابن	لابن لابن	5	149
معتمد، مهمات	معتمر، مهمات	15	149

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
150	10	الامير	الامين
151	2	التاميس، ايراح	التاميس، ايراد
152	5	ومع	رفع
155	1	وهؤلاء من	وهؤلاء هم ممن
156	6	المصريين	المصريين اليوم
162	2	بلده	بلده
165	5	لكنهم	لاكنهم
166	2	رفع	رفع
167	1	بينها	بينهما
179	11	يتحول	يتحول
181	7	508	805
184	19	ما بكا	سالكا
187	14	ووضبطه	وضبطه
211	13	بدا	أبدا
215	11	لتكون	لحكون
216	2	قبيلة	قبيلة
223	5	جعفر	حفص
223	7	فذكره	فذكر له
226	12	والفقه	الفقه
228	1	وشرح في	وشرح عليها في
229	6	لائم	لائم
229	12	المناكر	مناكر
232	2	الحضبي	الحضبي
232	6	اللطفاني	للصغاني
235	9	لبناني	لبناني
235	19	الاقام	الاقام
237	15	حاشية على قدورة الخ	مكرر
234	6	اخار	اخبار
244	1	النفسجية	النفسجية
245	3	التكبير	التكبير
248	9	إقدامه	وإقدامه
252	5	انتقامه	انتقامه



فهرست الكتاب

صفحة

(ب)

1

فاتحة الكتاب

عصر الفتوح

1

الفتوح الاسلامية

5

كيف انتشر الاسلام بالمغرب

8

استعراب البربر

11

الصراع بين العرب والبربر

14

الوسط الفكرى فى هذا العصر

20

عصر الموحدين

20

خلاصة البحث السابق

20

دور التحول والانتقال

30

الثورة الاجتماعية

41

الدولة والثقافة

51

الحركة العالمية

76

الهيئة العالمية واثارها

94

الحياة الادبية

103

عصر المرينيين

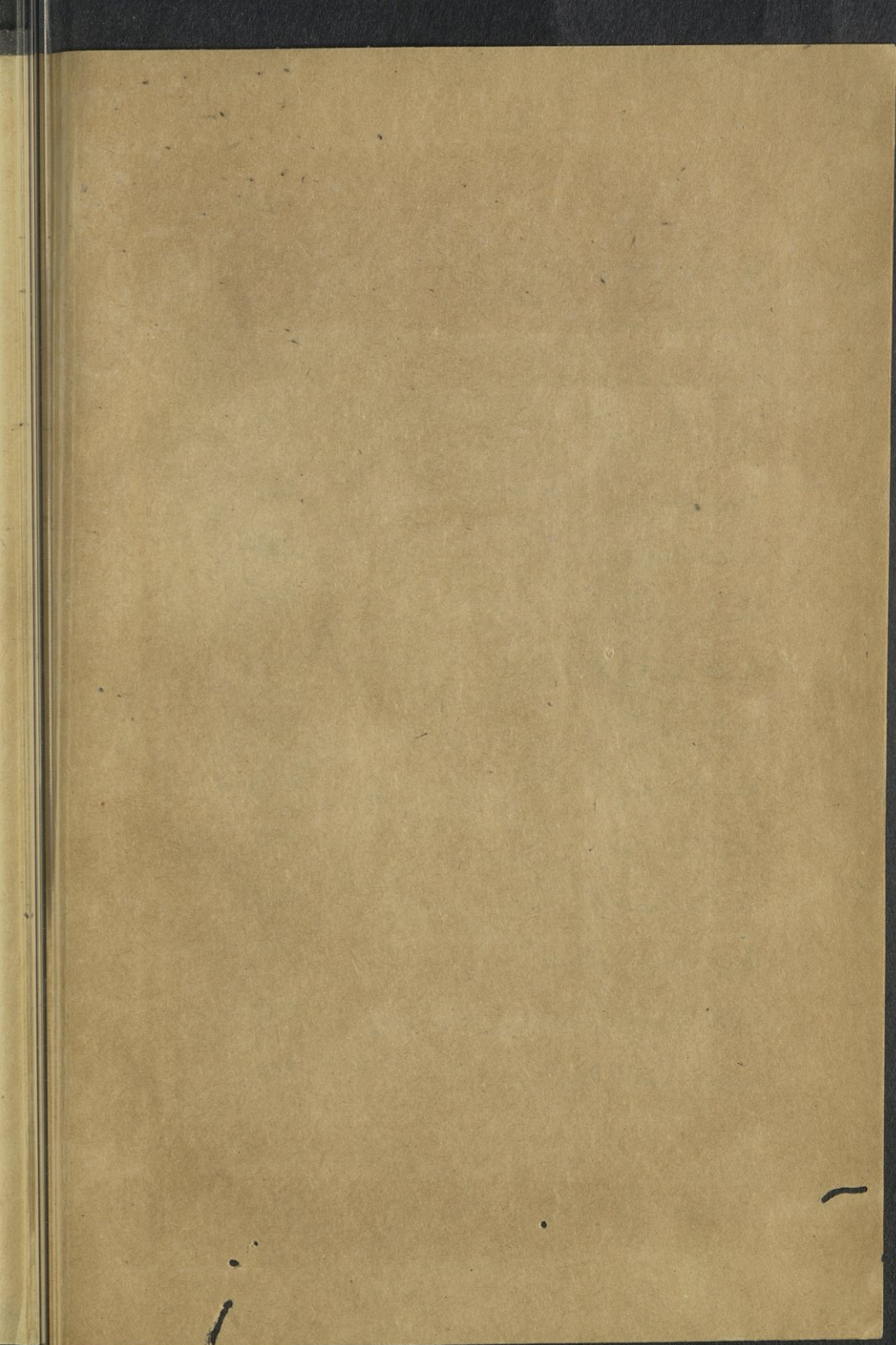
103

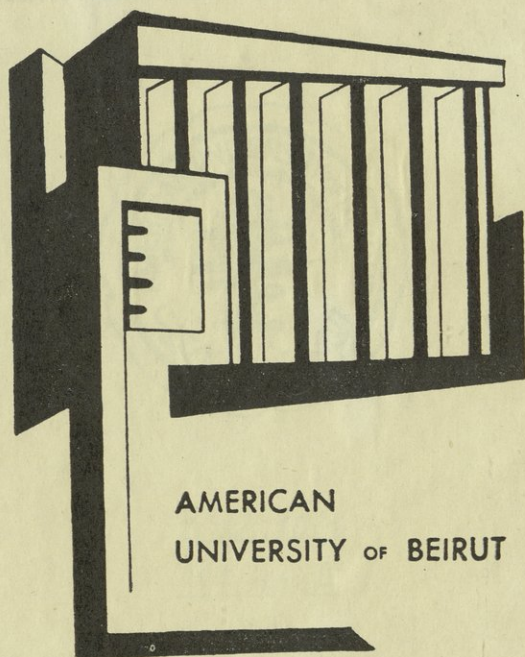
الوجهة السياسية

صفحة

116	في دائرة العروبة
120	الحركة العلمية
135	الهيئة العلمية واثارها
154	الحركة الادبية
163	عصر السعديين
163	سياسة الدولة
172	الحركة العلمية
179	الهيئة العلمية واثارها
195	الحياة الادبية
203	عصر العلويين
203	الدولة الشريفة
209	الحركة العلمية
213	الهيئة العلمية واثارها
246	الحياة الادبية
253	جدول الخطأ والصواب

لما
نما





AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

